الطيب صالح

سيرة وشهادات من محطات العمر

الكتاب: الطيب صالح .. سيرة وشهادات من محطات العمر

الكاتب : د. خالد محمد غازي

الطبعة : 2008

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.com **http://www.apatop.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

خالد محمد غازي – ط ٤ – الجيزة : وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٨

تدمك : ٠ – ١٧٦– ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

٢١١ ص ، ١٨ سم .

١– الأدباء السودانيون

أ. العنوان ٩٢٨،١ رقم الإيداع / ٨٠٠٨/ ٢٠١٥

الطيب صالح

سيرة وشهادات من محطات العمر

د / خالد محمد غازى





مقدمة :

"يا مريود" أنت لا شيء .. أنت لا أحد يا مريود .. إنَّكَ اخترت جَدَّك يا مريود، وجَدُّك اختارك لأنكما أرجحُ في موازين أهل الدنيا .. وأبوك أرجح مِنك ومِن جدِّك في موازين أهل العدل .. لقد أحبَّ بلا كلل وأعطي بلا أمل وأقام علي عجل وحسا كما يحسو الطائر ، وأقام علي سفر، وفارق علي عجل .. حَلُمَ أحلام الضعفاء، وتزوَّدَ مِن زاد الفقراء، وراودته نفسه علي المجدِ فزجرها .. ولمّا نادته الحياة ولمّا نادته الحياة .." قلتُ نعم .. قلتُ نعم .. قلتُ نعم .. لكنَّ طريقَ العودةِ كان أشقّ لأنني كنت قد مشيت.."

مِن رواية "مريود"

(١)

الموت حدث اعتيادي يحدث كل يوم حولنا .. لكن في كل مرة عندما يدنو منا ، ويخطف عزيزا لدينا نفاجأ .. ونعيش حالة من الصدمة .. ربما لأن الموت يأتي علي غفلة منا .. كان مصدر مفاجأتي أن فصول هذا الكتاب اطلع عليها الطيب صالح قبل شهور من رحيله .. وعلق عليها قائلا : " يا أخي والله إنت شاغل بالك بي في جمع حوارات وشهادات .. هناك من هو أهم مني وأشمخ قامة لتبذل هذا الجهد " .. وكان إصراري كبيرا علي صدور هذا الكتاب في طبعته الاولي وعنوانه (الطيب صالح .. أوراق من محطات العمر) وعندما تسلمت النسخة الاولي بادرت بإرسالها له .. بعد أيام عادت النسخة الي في

نفس مظروف البريد الذي أرسلته .. مكتوب عليها (لم يسلم لمن ارسل اليه) .. نعم : لم يسلم لمن أرسل اليه ، لأن الموت زاره قبل أن يزوره كتابي.

(٢)

الطيب رحل وترك لنا شيئين .. ذكري إنسانية طيبة – مستمدة من اسمه فهو " طيب " و"صالح " – لا يختلف عليها اثنان وهذا أمر عجيب ، فلم أر في حياتي رجلا لا يختلف عليه اثنان الا هذا الرجل .. جمع بين أدب الحرف وأدب النفْس .. وهما أدبانِ ما اجتمعا لكثيرٍ مِن أدباء الحرف أو أدباء النفس علي مرِّ الأزمان.

الشئ الآخر الذي تركه هو ما أبدعه قلمه من سرد يحمل عذوبة ماء النيل .. تنبع غرائبيته وفرادته من بساطته المشحونة بدلالات عميقة لم يترك موضع إبرة . علي حد تعبير أحد النقاد– من جسده الروائي لم تغرز فيه دراسة نقدية أو بحث.

إنه روائي غريب سجل اسمه كأحد قامات الرواية العربية العظام وأحد رواة العالم في بضع روايات .. لم يثرثر كثيرا .. كان صموتا كثيرا لكنه كان متأملاً وصوفياً في سلوكه وإبداعه ؟

– أحقا رحلت أيها الفارس النبيل.

أسمعك تجيبني:

– وماذا أريد من عالمكم بعد أن بلغت الثمانين .. لقد قلت لكم ما أريد وكان علَي الرحيل.

– أسمع أبطال رواياتك ينادونك .. وأنت تصر علي أن تتركهم بيننا وترحل .. ألا تسمع صوت مصطفي سعيد والزين ومحيميد و بندرشاه ومريود ومحجوب

وسيف الدين والطريفي ولد بكري وود الريس وبنت مجذوب وعبد الحفيظ وود البصير والطاهر وود الرواسي وسعيد البوم وشيخ عبد الصمد وفطومة وإبراهيم ود. طه وشيخ علي ؟

(٣)

والله لأشهد أنك رجل بحجم وطن، كل الوطن بجنوبه وشماله شرقه وغربه تخطيت بـ "سودانيتك"، لترتحل بها إلي أقاصي الأرض وتحولها لنزعة إنسانية عميقة، هكذا يكون الكبار بصدقهم وأدبهم، بسيرتهم وعطائهم عشت حياة المفكرين والمبدعين الحقيقيين ، زاهدا كريما ومتسامحا منفتحا علي الآخر. نقي السريرة .. عميقا في تأملك وتواضعك وقناعتك.

لقد كان للبيئة السودانية الريفية موقع الصدارة في أدبيات الطيب صالح، فهو يتمثلها في معظم المواقف، شكلا وموضوعا.

ولعل ذلك يعود –كما يقول د.حسن أبشر الطيب – إلي ثلاثة أسباب رئيسة:

أولها: تلك الذكريات الدافئة الحميمة التي التصقت بذاكرة الطيب عن سنوات طفولته وصباه الباكر التي نعم فيها بالحياة في قريته تلك الوادعة الهانئة بين أحبائه وأترابه• قرية تماثل "ود حامد" في الشكل والجوهر.

وثانيها: أن غربته لسنوات طوال قد عمقت في ذاته هذا الالتصاق الحميم ببيئته وكثفت اعتزازه بها لانتمائه الصادق لها ولما رأي من تناقضات لا تماثل طبعه وذوقه في بيئات أخري.

وثالثها: أن غربته قد منحته الفرصة للنظر من بعد بغية استقراء واستجلاء دقائق الحياة في بيئته تلك البريئة الوارفة الظليلة بعطائها الوافر ومواطنيها الطيبين

لواحد من هذه الأسباب، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة، ظل الطيب صالح حفيا ولصيقا ببيئة قريته الوادعة الخيرة المسترخية علي شاطئ النيل، وهو يتمثلها في الكثير من المواقف في كل أعماله الروائية• شاعرية موحية وكان نبعا ثرياً لإيحاءات بكر، وتشبيهات مبدعة، وتصوير بارع مفعم بالشفافية والقدرة علي تجسيد الاستعارة، والاستعارة كما قال أرسطو هي دليل العبقرية.

ان العديد من الشخصيات في روايات "الطيب " قد أصبح لها وجود حي ماثل في نفوس الكثير من القراء، وما كان ذلك إلا لقدرته المبدعة علي رسمها رسما مشبعا بالحياة والحركة .. يقول الطيب: " الرواية عالم من تصوري، وأنا المسئول عنه أما التفاصيل فربما يكون بعضها حقيقيا اعتمدت فيه علي واقع استلهمته من ذكريات بعيدة للمكان الذي نشأت فيه " .. وتلك سمة تميزت بها الكثير من الأعمال الروائية والإبداعية العربية والعالمية الناجحة .. فتحضرك شخصية هاملت في مسرحية شكسبير، والسيد أحمد عبد الجواد وأمينة في ثلاثية نجيب محفوظ، وعبد الهادي في الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي، وعزيزة في الحرام ليوسف إدريس ..

شخصيات "الطيب " الروائية، ليست بالضرورة شخصيات حقيقية في الواقع المعاش • إنها شخصيات روائية– وبتعبير د.حسن أبشر الطيب – هي بمثابة نماذج لها أصل وشبيه في الحياة، لكنها في الرواية غير هذا الأصل الحياتي الواقعي، فالروائي المبدع يعيد خلقها في الرواية ويرسمها فنا مبدعا يأخذ من صورة الواقع بطرف ومن رؤية الفنان وخياله بطرف آخر.

ورغم اقامته في أوروبا لسنوات ليست قليلة ، فإنه كان يعتز بعروبته، ولا ينسي أبداً أنه مولود لعائلة أساسها من المزارعين ومعلمي الدين الإسلامي،

بإقليم "مروي" شمال السودان، وتحديداً بـ "كَرْمَكوْل" القريبة من قرية "دبة الفقراء" إحدي قري قبيلة "الركابية" المعروفة .. وكانت سيرة حياته وتجاربه ومعايشته لتجارب الآخرين، هي مصادر إلهامه الرئيسية في كتابة رواياته، ثم كان تنقله بين عدة مواقع مهنية، مصدراً لاتساع خبرته بواقع العرب وآلامهم وآمالهم· فهو في تنقل دائم بين المحيط والخليج، بين المشرق والمغرب، ولم يجعله كل ذلك الشرق وكل ذلك الغرب ينسي أنه ابن جنوب الأرض، التي هاجر إلي شمالها بحثا عن الحياة الأفضل.

(٤)

ويعتبر " الطيب " واحداً من أكثر الروائيين العرب الذين نالت أعمالهم اهتماماً عالمياً وعربياً واسعاً ، سواء عبر الترجمة للغات أخري، أو تناولها في دراسات أدبية متعددة، فأعماله بعيدة كل البعد عن روتينية الصنعة الروائية، ربما لأن في إبداعاته انبعاثات للأحداث، فهي تؤدي مهمة تتجاوز الحدث، مستلهمة من الواقع مونولوجاتها الداخلية، إنه يسترسل بحرفية عالية معتمداً علي روعة أسلوبه السردي، متماشياً مع أسلوب السوداني البسيط المتصوف المشبع بعبق النيل والأرض المضمخة بعرق أبنائها، وذلك كله في محاولة خالصة منه لتشخيص مرض وإيجاد علاج، من خلال أسلوب أدبي رفيع، وعبارات ومعانٍ تميل إلي الرمز حيناً، وإلي الواقعية أحياناً أخري، مستدرجاً مشاعر القارئ وفكره للتماهي مع كتابته .. يروض لغة نصه فيجعلها عذبة عذوبة النيل، ويدقق عند اختيارها تجد في كتاباته تصوفاً خجولاً، ووصفاً ناطقاً، وصمتاً ذا ضجيج، وألماً لذيذاً، وحكايات تدغدغ الأفكار قبل المشاعر، حيث إنها اصطبغت بعبق الصوفية، وامتزجت بوهج الحضارة الغربية الصاخبة وصمت

التراث السوداني الملهم، كحنة عروس في ليلة زفافها ، حيث رائحة الطلح تعبق أجواء الخباء.

فالألفة هي كلمة السر– حسب رأي محمد الربيع محمد صالح– في اللوحة البيانية لمشروعه الثقافي والجمالي ولعلاقته مع الوجود، وأعماله الروائية والقصصية " موسم الهجرة إلي الشمال وعرس الزين، ويندر شاه بجزءيها ضو البيت ومريود، ودومة ود حامد"، تشكل أرشيفاً للوجود الحميم وللألفة المهددة بالتمزق والشرور، فإلي جانب العذوبة الواضحة والحميمية الغامرة للتفاصيل الإنسانية فيها ، يعتمد الطيب صالح تكنيكاً جمالياً يستمد عمقه من بساطة آسرة في بناء المشاهد، أشبه ما تكون بعملية توثيق تلقائية للحظات مركزية في الوجود الحميم للمجتمع السوداني، ممثلا في جلسات الأنس والسمر والتعاضد الاجتماعي في المسرات والأحزان والنُّصرة في الملمات.

قال لي الطيب صالح – والكلام علي لسان محمد الربيع صالح– حين سألته عن سر جماليات هذا البناء: "إنه نوع من الإصغاء لنداءات الحنان التي يبثها هذا العالم، الذي اعتبر نفسي مجرد وسيط وناقل له"٠

والحوار مع الطيب الصالح لا يأخذ مداه في الأريحية والجمال إلا حين يقبس من هذه العوالم ناره، لأنه لا ينظر إلي التفاصيل في هذه الحياة بوصفها جزراً معزولة عن بعضها البعض، بل يكونها أرخبيلاً اجتماعياً وثقافياً مفتوح الأبواب والنوافذ والممرات في وحدة وجود إنسانية علي قاعدة الأُلفة، وهو يراه مثل كوم "القمح الذي تنطوي كل حبة منه علي سر عظيم" .. مشيراً إلي مشهد زواج ضو البيت "في رواية بندر شاه" الذي كان حفلا أمّه جميع الناس بمختلف مناشئهم العرقية ومواقعهم الطبقية ، وصورة المرأة التي زغردت تحت وقع هذا

الإحساس الجماعي بالألفة، والتي كانت زغرودتها تعبيراً عن كونها جزءاً من هذا الجسم، لا يتحقق انتماؤها إليه إلا عندما يدخل صوتها مع بقية الأصوات.

كل شيء في حياة الطيب صالح هو تنويع علي لحن الإلفة حياته الوظيفية علاقاته الإنسانية، تأملاته النقدية، وإبداعه الروائي، فهي الناظم الوجودي لهذا الارخبيل يأخذك " الطيب " عبر مذاق لغته ونسيج إبداعه، إلي دنيا معطياتها غير تلك التي نعيشها كل يوم، وإلي أطلال تصدح بأسماء من كانوا ساكنيها، وربما يكون ذلك كله نتاجاً لدقة الوصف المحير عنده (مصدر الإبداع والتفرد) .. هذه الدقة التي لم تؤت لأحد قبله ، إنها القدرة التي نراها بدأت تنتج أثرها في كتابات بعض الأدباء العرب مؤخراً وهذا تأثر متوقع، له مقدماته.

(٥)

"موسم الهجرة إلي الشمال" تعد من أشهر أعماله الروائية، بل كان هذا العمل سبب شهرته التي فاقت العنان. ونشرت لأول مرة في أواخر الستينيات من القرن الماضي في "بيروت"، وعدت من قبل مؤسسات ثقافية عالمية كبري واحدة من أفضل مائة رواية في العالم خلال القرن العشرين.

المدهش حقاً أن رواية "موسم الهجرة إلي الشمال" تحولت بالنسبة لصاحبها من عمل عظيم إلي عبء ثقيل، فطارت به إلي سماء الشهرة، ولم تفلح أعماله الأخري في أن تطول هذه السماء أو تتجاوز حجبها، ربما ينظر البعض إليه علي أنه ذو حظ عظيم إلا أن هذا الحظ جعله سجين رواية واحدة إن دينيس جونسون مترجم كل أعمال الطيب صالح وصديقه في الوقت نفسه كشف في

كتابه "حياتي في الترجمة" أسراراً مثيرة للدهشة ومنها أن الطيب صالح تم استبعاده من الفوز بجائزة نوبل بسبب "موسم الهجرة إلي الشمال" لتذهب إلي نجيب محفوظ، وأن أول أعماله نشرت بمباركة وكانت المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A بسبب الرواية نفسها إن ظاهرة "الرواية التي صنعت الكاتب" أو بمعني "كاتب الرواية الواحدة" ليست مقتصرة علي الطيب صالح وحده رغم إنجازه أعمالاً مهمة مثل روايته (بندر شاه) بجزءيها "ضو البيت" و"مريود" إلا أنه سيبقي كاتب الرواية الواحدة ولعل ظاهرة كاتب الرواية الواحدة ليست مقتصرة علي "الطيب وحده إلا أنه سيبقي كاتب الرواية الواحدة، مثله في ذلك مثل الكاتبة الأمريكية المعاصرة هاربرلي التي تحولت إلي علامة من علامات الأدب العالمي بإصدارها روايتها الوحيدة "قتل طائر مغرد" عام ١٩٦٠، والتي سرعان ما اعتلت قوائم أفضل المبيعات، ثم أعد عنها فيلم سينمائي بنفس العنوان قام ببطولته النجم الأمريكي جويجوري بيك، ليحصد ثلاثاً من جوائز الأوسكار، وساهم في شهرة الرواية حتي بيع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.
والسؤال : لماذا اكتسبت هذه الرواية كل هذه الأهمية، علماً بأنها لم تكن عمل الطيب صالح الأول؟

وكيف صارت هي هوية كاتبها، فبات الناس يعرفونه بها وينسبون أعماله اللاحقة، وحتي السابقة إلي صاحب "موسم الهجرة إلي الشمال" ؟ الحقيقة . في رأي د. جورج طراد . أن هناك عوامل متعددة، فنية وحضارية وسياسية، أعطت الرواية المذكورة كل هذه المكانة العالية.

منها أنها سودانية الفضاء، والسودان، على أهميته ووزنه الديمغرافي والحضاري، يكاد يكون مجهولاً من معظم العرب، ومنها أيضاً أنها غرقت في محلية الملامح والمشاهد والأوصاف، فجاءت لغتها شعبية إلي حد ما ومسرحها قروياً سودانياً بامتياز ومن العوامل أيضاً أنها قدمت أجوبة خاصة عن تساؤلات قديمة، متجددة باستمرار، علي العلاقة بين الشرق والغرب: شرق الرضوخ وغرب الاستعمار، لكن ما كان مسكوتاً عنه، أدبياً علي الأقل ، قبل "موسم الهجرة إلي الشمال" صار مصرحاً به علناً بعدها، لذلك فإن أحد أبرز عوامل تفوقها هو أنها كانت حق رواية قضية؟ طبعاً هناك روايات قضية غيرها، ولعل "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ هي واحدة من أبرزها، لكن وجه الاختلاف في عمل الطيب صالح هذا، هو أن القضية كانت بين عالمين، شرق وغرب، في حين أنها عند محفوظ بين طبقتين داخل عالم واحد، لا بل داخل مدينة واحدة!

ورغم أن معظم روايات" الطيب " تعالج حالات سودانية وأشخاصاً سودانيين، فإن قراء "الطيب " هم من المحيط إلي الخليج، فهو نموذج للكاتب الذي يجمع في شخصيته بين الوطنية السودانية والعروبة الثقافية والإسلام الحضاري وعالمية الإنسان الحر،لم تحجب عنه هموم السودان هموم أمته العربية التي منها جاءت ثقافته ولغته، ولم يبهره تقدم الشمال الأوروبي فينسي أنه ابن جنوب هذه الأرض، وما في الجنوب من فقر وتخلف وآلام لم ير في مجتمع الغرب العصا السحرية لمشاكل العرب، بل ساحة ومنبراً لإبداع الفكر العربي المستنير، إنه الطيب صالح الذي جمع، في شخصيته وكتابته، بين الكلمة الطيبة والعمل الصالح.

وعلـي المسـتوي الفنـي أرخـت لـه روايتـه الثانيـة " موسـم الهجـرة إلـي الشمال" التأريخ الفني الحقيقي وكانت سبباً مباشراً في التعريف به وجعله في متناول القارئ العربي في كل مكان ويمكن أن نري فن الطيب صالح ككل من خلال هذه الرواية خاصة، بوصفها أخصب مناطق إبداعه، حيث تمتاز بتجسيد ثنائية التقاليد الشرقية والغربية واعتماد صورة البطل الإشكالي الملتبس علي خلاف صورته الواضحة ، سلبًا أو إيجابًا ، الشائعة في أعمال روائية كثيرة قبله وبنـاءً عليـه يمتـاز الفـن الروائـي للطيـب صـالح بالالتصـاق بـالأجواء والمشـاهد المحلية والانتقال بها إلي العالمية من خلال لغة تلامس الواقع خالية من الرتوش والاستعارات ، منجزًا في هذا إسهاماً جاداً في تطوير بناء الرواية العربية ودفعها إلي آفاق جديدة، ويستطيع أن يلاحظ القارئ الذواقة كيف تأتي ذكريات مواسم الطيب صالح شفافة في معانيها وسلسة في أسلوبها ومتبدلة في سردها وعميقة فـي أبعادهـا للطيـب صـالح قـدرة خارقـة علـي الرؤيـة والتبصـر والنفـاذ إلـي أدق الأمـور، وهـذه ملكـة الفنـان فيـه وهـو إلـي جانـب عملـه هـذا لـم يعتمـد فـي سـائر أعمالـه الأدبيـة علـي هـذه الموهبـة وحسـب، بـل شـحذها شـحذاً حـاداً بالثقافـة العربية فتزود منها بكـل ما وسعته القدرة علي التزود، فقرأ المعاصـرين وهضـم أعمـالهم وغـاص فـي التـراث فاسـتلهم روحـه وتسـلح بمعرفـة شـواهقه، وعـايش الثقافـة الغربيـة فكـراً مكتوبـاً، فقـرأ أعمـال الكلاسـيكيين والمعاصـرين الأوربيـين، وعـاش الحضـارة الأوربيـة أنمـاط سـلوك وطريقـة حيـاة ومـنهج تفكيـر .. بالإضـافة إلي ذلك .

نري الطبيب في أعماله ابنا للتمازج الحضاري والعرقي العربي الأفريقي السوداني، وأعماله إنما هي مزيج هذه النفحات، وشخوصها هم الرجال والنساء والأطفـال الـذين يحفـل بهـم السـودان وهـم علـي أيـة حـال لا يختلفـون كثيـراً عـن

نماذج بقية الناس، حينما ننظر إلي الجوهر الإنساني العالمي لا المظهر المحلي في كل شخصياته بما يمور في أعماقها من مشاعر وأحساسيس إنسانية هي ذاتها في كل زمان ومكان.

من أبزر أعماله التي قد ترجمت إلى عدة لغات: روايته الأشهر "موسم الهجرة إلي الشمال" و"عرس الزين"، التي حولها المخرج الكويتي خالد صديق في أواخر السبعينيات إلي فيلم سينمائي فاز عنه بجائزة مهرجان "كان"٠ كذلك من رواياته " بندر شاة " بجزأين هما "ضو البيت" و"مريود" و" نخلة علي الجدول" و"منسي"، وحصل علي العديد من الجوائز العربية والعالمية تقديرا لفنه الرفيع .. الذي يمثل لبنة حقيقية في صرح الرواية العربية.

(٦)

تطرق عبقري الرواية العربية في كتاباته بصورة عامة إلي السياسة، وإلي موضوعات أخري متعلقة بالاستعمار والجنس والمجتمع العربي٠ كذلك تتطرق إلي الاختلافات بين الحضارتين الغربية والشرقية، فهو معروف كأحد أشهر الكتاب في يومنا هذا، لا سيما بسبب قصصه القصيرة، التي تقف في صف واحد مع نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وطه حسين ، ومقالاته التي داوم علي نشرها بشكل أسبوعي بمجلة "المجلة اللندنية" لمدة تزيد علي الخمسة عشر عاماً.

ترنم في كتابه "وطني السودان" بنشيد الفقد الحزين "أن تنتمي إلي هذا الوطن البعيد المنال، ذلك أمر عسير، أن تكون سمعت زغاريد النساء في الأعراس، ورأيت انعكاسات الضوء علي وجه النيل وقت الشروق ووقت

الغروب، وأن تتذكر مذاق تمر "القنديل" أول الموسم، ولبن البقر الغريض، ورغوته معقودة عليه في "الحلابات"، وذلك أمر عسير".

ويحرر " الطيب " السودان من أي خطاب سياسي او اقتصادي ليظل الوطن لديه سؤال وجود وهوية ، يتبرعم في النفس وفي العقل والروح، وهي تقرأ الملصق الإعلاني – السياحي – الذي يدعوك كسوداني – ويدعو غيرك إلي التعرف علي جمال السودان وتنوعه وغناه .. يقول الطيب صالح: "تجلس في هذا المطار، الذي لم تعد تنزل فيه الطائرات إلا لماما، وإذا نزلت فلا تقوم إلا بشق الأنفس، في هذه الصالة التي تسلخت حيطانها، وتشققت جدرانها تنظر إلي الصور التي أخذها مصورو وزارة الاعلام، منذ كم الف عام أخذت هذه الصورة، فكأنك تنظر إليها من وراء سحاب أو من تحت ماء عكر مجموعة من رجال "الهدندوة" بشعورهم الكثة، وسراويلهم الطويلة، وصديرياتهم القصيرة يرقصون بالسيوف، نساء "الرشايدة" الجميلات في عيونهن بقية من بريق رغم تقادم العهد بالصورة، قافلة من "البقارة" ربما في نواحي "بابنوسة" رجل ضرير تلعب أصابعه بأوتار الطنبور، ذلكم النعام آدم، العازف الموهوب، إنه من ديار قريبة من ديارك، ويغني ألحانا قريبة إلي قلبك، رجال من جبال النوبة، علي رؤوسهم قرون الثيران، وفي أذرعهم الخرز، وفي أرجلهم الخشاخيش، يرقصون رقصة "الكمبلا" نساء "الدينكا" الفارعات، صدورهن نصف عارية، ونصف مغطاة، غابة نخل في " نوري" هاماتها تنوء بأحمال السبيط، وساقية الله أعلم أين، لقد انقرضت السواقي، وصمت غناؤها للنيل منذ سنين، وحيد القرن وفرس النهر، ووعل في "الدندر" وقطيع أفيال عند خط الاستواء، آه أي وطن رائع يمكن أن يكون هذا الوطن، لو صدق العزم وطابت النفوس وقل الكلام وزاد العمل هكذا يكمل الطيب قراءته للملصق الاعلاني وفي حقيقة الأمر فإن

هذا الملصق يمثل لحظة مفصلية، وجزءا حيويا وعضويا من مسرح الشجن، في صالة المغادين، فهذا السرد التفصيلي والتوثيق الدقيق لعطايا الله للسودان بشرا وطبيعة وموارد، في الملصق الاعلاني، وفي القراءة المقابلة يمثلان الخط الفاصل بين حياة هذا العالم من قبل، واللحظة التي يمكن أن نطلق عليها دون تردد جرنيكا السودان المعاصر الذي لخصه الطيب صالح بقوله:

الحبال التي ربطت هذه البلاد بالعالم شرقا، وغربا، شمالا وجنوبا، تقطعت حبلا بعد حبل، وقفت سفن النيل، وقطارات السكة الحديد، والطائرات إلا القليل، وآل هذا المطار كأنه محطة خلوية في صعيد مهجور،لم تبق إلا قوافل الابل، كما كنا منذ قرون، وحافلات هالكة تسبر طرقا غير معبدة، تنوء وتقوم.

في مقال له بعنوان "من أين جاء هؤلاء ؟" عام ١٩٩٠،كشف فيه لأول مرة عن موقفه النقدي من حكم الإسلاميين، نقدا إبان تشطي القيم والثقافة باسم الدين و"الانقاد الوطبي"· أما "موسم الهجرة إلي الشمال" بمشاهدها الأيروسية ولغتها الصادمة للعام والسائد فقد منعت في الحال، إلا ان ذلك لم ينل منها كعمل تكرس تماما بأصالته الفنية و الإبداعية.

في واحدة من أروع قصصه "حفنة تمر"، نجد شابا اكتشف لتوه اضطراب وتوتر العالم من حوله دون أن يعي ذلك الأمر واكتشف لأول مرة أن أحب الناس إليه (جده) من كان وراء دلك هنا جوهر المسالة حيث السؤال الأخلاقي الذي رسمه الطيب صالح بدقة فائقة بل وكرسه ككاتب عالمي سوف يتردد صدي أسئلته لأجيال قادمة.

(جمال محجوب – صحيفة الجارديان . لندن . ٢٠ فبراير ٢٠٠٩)

(٧)

وإذا أردنا أن نركز سيرة حياة عبقري الرواية العربية في نقاط قبل أن تأخذنا هذه النافذة السحرية إلي عالمه ، فيمكن تتبعها كما يلي:

ولد الطيب محمد صالح أحمد في كرمكول قرب الدبة عام **١٩٢٩** تلقي تعليمه الاولي في "كتاب " قريته البسيطة .. وشارك والده حياة الفلاحين من رعي الاغنام والزراعة وجمع التمر .. وتخرج في المدرسة الثانوية الوحيد في منطقته .. وجاء الي الخرطوم ليلتحق بكلية جردون التدكارية (الزراعة) – لاحقا جامعة الخرطوم – لكنه لم يكمل الدراسة بها لأنها لم تناسب ميوله، وانصرف إلي العمل مدرسا في صفوف المرحلة المتوسطة (الإعدادية) سافر إلي لندن عام **١٩٥٢**، نال شهادة في الشئون الدولية في إنجلترا .. أي قبل استقلال السودان عام **١٩٥٦** تلك اللحظة في لقاء الغرب ظلت تسم حياته و إبداعه الروائي علي الرغم من أن تصويره للقرية في شمال السودان ظل تيمته الأثيرة في معظم أعماله السردية من خلال ترجمة سردية، واقعية أحيانا و تقرب من لا معقول في أحيان أخري و هذا الفعل تحول به ذلك المكان بالغ التواضع إلي مكان كوني.

ظل بعيدا عن وطنه معظم حياته عمل في هيئة الاذاعة البريطانية أكثر من عشرين سنة حتي صار رئيسا لقسم الدراما ، وفي عام **١٩٧٤** قدم استقالته من تلك الإذاعة التي كانت أكثر الإذاعات انتشارا في العالم العربي..سافر بعدها لدولة قطر .. وشغل منصبا رفيعا بوزارة الإعلام والثقافة القطرية.. ثم عمل ممثلاً لليونسكو لمنطقة الخليج العربي، وعمل أيضا مديراً إقليمياً في منظمة اليونسكو في باريس .. وكانت لندن هي محطته التي يعود اليها دوما التي تزوج فيها من

الاسكتلندية جوليا ماكلين عام ١٩٦٥ وأنجب ثلاث بنات زينب و سارة و سميرة ، وحياته مثلما هي كتاباته، لم تكن سوي محاولة لردم تلك الهوة فيما بين شرق و غرب.

(٨)

بين دفتي هذه الأوراق ومضات من سيرة ومسيرة " الطيب " ذكرياته وأفكاره ورؤاه استخلصناها من استفسارات وأسئلة كانت حصيلة لقاءات عديدة في أكثر من مكان وأكثر من زمان عبر رحلة حياته الكاملة في محطاتها المختلفة ومن هنا كان تجوالنا المبحر معه .. حول تجليه واعترافاته وآرائه في قضايا كثيرة تهم الأدب والمجتمع العربي كما تهم السياسي والإبداعي قد تكون وافية وإجمالية لإشكاليات المجتمع من حوله، يسرد فيها وجهة نظره من خلال خبرة تراكمية ومعرفية جمة اكتسبها من اطلاعاته الواسعة علي الأشياء وعلي الخريطة الإبداعية للعالم العربي وانشغاله بقضايا إنسان العالم الثالث، الذي آمن به وعبر عن همومه وآلامه وأفراحه وإحباطاته.

كذلك عندما غيبه الموت عن عالمنا (١٨ فبراير ٢٠٠٩) وسافر معه إلي عالم آخر قدم أصدقاء " صالح " شهادات إنسانية عن قرب منه لمن عاصروه في طفولته وصباه وشبابه وكهولته ومحطاته الانسانية ورؤاه وفلسفته في الحياة والكتابة .. اخترناها بعناية وانتقاء حتي نقدم الطيب بحقيقته كما هو وكما أراد أن يكون ويعيش.

مَنْ من عشاق الفن الروائي لا يعرف الطيب صالح ؟ ذلك النبت الأصيل الذي خرج من حوض النيل، مثلما جاء مع محجوب الزعيم وود الرواس وعشا البايتات والإمام والدومة والجد الذي لا يشيخ.

(٨)

"شغلتني الأصوات المبهمة التي تنبع من النهر (النيل)، لأنني أسمعها من مسافة ألف ميل، فيها أصداء الأودية البعيدة والشلالات، وأذعنت زمناً للغط الموجات الصغيرة تعدو بلا كلل من شاطئ إلي شاطئ، ومن آن لآن كان النهر، هنالك في القلب عند ملتقي التيارات، يعوي عواءه القديم، وبينما أنا كذلك إذ بصوت إنسان إلي يميني كأنه يخاطب النهر والفجر الذي قرب يطلع: الإنسان يا محيمد الحياة يا محيمد ما فيها غير حاجتين اثنين الصداقة والمحبة، ما تقولي حسب ولا نسب، لا جاه ولا مال ابن آدم إذا كان ترك الدنيا وعنده ثقة إنسان واحد، يكون كسبان".

خالد غازي

بوابة أولي

أوراق في محطات الزمن

(١)

أصبتني لعنة الهجرة إلي الشمال

- الكاتب مثل البهلوان .. بطل في تحريك الشخصيات.
- علاقتنا بالغرب ليست رومانسية .. وأسعي لأسطرة الفلاحين في السودان.
- الرغبة في التعبير هي الحافز الرئيسي للكتابة.
- تحولات عميقة تحدث في المجتمع ولا نستطيع أن نفهم مراميها.

عرفت النيل منذ ولادتي، عشت علي ضفافه في القاهرة، ولم تمنحني ظروفي فرصة الرحيل إلي منابعه في الحبشة " أثيوبيا " فتمنيت أن أشهد قوامه بعد اندفاعه المتشظي .. تمنيت أن أذهب إلي "عطبرة " في جنوب السودان لأشهد الصدام الأبدي بين النيل الأزرق والنيل الأبيض .. الصدام الذي أراه عناقاً ، لا يحطم ولا يتجاوز .. لكنه يتحد ليشكل نسقاً مستقراً ، قوامه الحب والعطاء، يعيش علي ضفافه الملايين من البشر ..

ومنذ كنت صبياً أري أن هذه الأمنية ما هي إلاّ اسطورة لا يحققها سوي كائن أسطوري أيضاً .. وقبل أن أصير كهلاً تحولت الأسطورة إلي واقع عندما قابلت الكائن الأسطوري علي الورق ثم التقيته في الواقع.

كان اسمه " الطيب صالح " يحمل طمي النيل، ورائحته تشبه رائحة الأرض العطشي عندما يزورها النيل .. وشيئاً فشيئاً ، وبعد شعوري بأنني أمسكت بالواقع– الذي يشبهني وتمنيت أن أراه– عادت صورة الأسطوري تطغي علي المكان والزمان لكنني هذه المرة لم أترك الأمنية تذهب بعيداً فثمه وشيجة .. أولعلها وشائج أسعفتني لأنقذ حماسي من بضعة ترددات سرعان ما توارت تحت شروق ساطع لمشروعية الرحلة مع وإلي الطيب صالح .. رحلة يتصدر زادي وزوّادي فيها الإعجاب لمن أرتحل إليه ومعه.

وهناك الكثير الذي سنستضيفه أو يستضيفنا في محطات العمر، في هذه المحطات التي سوف تنزل عندها حقائب الضيف وأوراق المستضيف .. وأنا بوسعي أن أقول الكثير عن الطيب صالح .. بمقدوري أن أمضي لأشيد عالمه من جديد .. أرتب سنوات حياته يوماً يوماً .. ساعة ساعة .. برؤية ناقد.. ومشاعر متذوق لفصول وسطور قصصه ورواياته ..

يمكنني أن أنهل من شخصياته سفراً آخر أرتب فيه بيتاً جديداً، أبني صرحهُ بمقام يليق بحياته الغنية بالتفاعلات والمعطيات، وعديد من الاستلابات، ليس ذلك أمراً عسيراً .. أوليس هنالك من كتب عن شوامخ من غير زمنهم دون أن يلتقوا بهم فكانت وشائج المعرفة بين الجانبين قد تنامت بفضل ما أنجزه وتركه أولئك الشوامخ من كتابات ورؤي.

فكيف هو الحال حينما يكون الطيب صالح من أبناء عصرنا ؟ وكيف ستكون إعادة الكتابة عنه ومعي مزيد زاخر من حواراته التي تؤسس من جديد بإعادة اكتشاف كتاباته والتجوال نحو آفاق وزوايا دنياه الإبداعية وسيرته الحياتية؟ إذن فنقاط اللقاء – دعوني أطلق عليها الوشائج مرة أخري – إنما هي كثيرة .. فهو أديب عربي تربطني معه ارتشافة ماء شربناها من مياه أهم حضارتين إنسانيتين .. واحدة مع النيل وأخري مع الفرات ودجلة .. تربطني معه الغربة والبعد عن قريتي هناك من أجل البحث عن كينونة هذا الإنسان العربي الذي نزف دماً .. واستلب زمناً تحت قيد استعمار انكليزي واحد.

قلت أجل .. لابد أن هنالك روابط، وهي روابط فاعلة، غير مفتعلة، وهي مواسم دائمة لا مؤقتة، ومن هنا تكون شدة وحرارة الكتابة .. هل قلت الكتابة .. ؟ لا، وإنما الإبحار .. والتجذر .. والغوص نحو عمق عالم يعيش في ذاكرة هذا الروائي، عالم منح بعضاً منه في روايات جعلت اسمه يقف هنالك، في أعالي طود الرواية العربية، بمجرد أن نشر روايته الأولي التي لن تذبل (موسم الهجرة إلي الشمال) .. فكان سباقاً في الكشف والتفتيش – الذي مازال مستمراً ويتفاقم – عن هوية العربي أو الإنسان الجنوبي، وهو الضائع في الشطر الشمالي من أرض المعمورة .. وتلك هي المعضلة، والعصب المستفز، والإشكالية الفكرية، التي تمثل اليوم تأسيساً قديماً وحاضراً ومستقبلياً في أول لوحٍ من بانوراما الصراع

الجيبولتيكي والديمغرافي والعرقي بين دول الشمال الصناعية وبلدان العالم الثالث أو النامي في الجنوب .. وبعد، فإنها المعضلة التي تؤرق بديمومتها التي لابد أن تحد في ذاكرة المبدع في أقل طموح وتقدير.

واذا كانت الذائقة الإبداعية للطيب صالح وفية ومخلصة ومفتونة إلي أقصي حد في جعل أحداث رواياته تقضي وتتشكل كيفما هو الواقع دون أن يتسلط عليها بقمعية تفقدها خصوصياتها .. فإن ذلك يعني بكل وضوح ودقة أن تلك الأعمال امتلكت سر تميزها لأنها جاءت أصيلة دون تلاعب أوإضافات زخرفية يمكن أن تغتال علي حين فجأة نكهة عفويتها من حيث الأحداث وجعل الزمان والمكان هما اللذين يحضران في قرية منسية في أقاصي السودان، أو في أحد شوارع أوروبا .. واذا كان الشمال لا يحضر إلا كحتمية في موسم الهجرة إلي الشمال .. فإن الأمكنة الهامشية القصّية التي تمثلها بعض أبنية الطين والخيام في الجنوب ستكون دائماً المنبع .. هذا هو ما يتأكد في تلك الرواية ويتسع مداه ويزداد عمقه مع رواية (عرس الزين) ورواية (مريود) ورواية (بندر شاه).

أو لم يقل أحد الروائيين أن العالمية تبدأ وتنطلق من قريتي·· !بيد أن عالم الطيب صالح لم يتوقف عند ملامح وطقوس وعادات وزقاق القرية السودانية التي تتشابه كثيراً مع قري وأرياف مازالت منتشرة في بقاع أخري من خريطة الوطن العربي، إذ أضاف هذا الروائي عالماً آخر يفتقر إلي العفوية التي تفيض بها تلك الينابيع .. القري .. إنه عالم يفكر في افتراسها وقلعها من الجذور·· لذلك، وأنا أطوف في العالم الشمالي الذي رمتني فيه سطور الطيب صالح كنت أتحسس موقع قريتي الساكنة مع وجيف وخلايا قلبي .. ومن المحتم أنه ذات الوجيف وذات الحرص والعشق الذي عاش ويعيش مع الطيب صالح حينما كان يكتب في فترة زمن ماضٍ عن الإنسان الجنوبي التائه في ذلك العالم الشمالي· أليست

تلك وشيجة كبري .. وبعد .. ألم يحن الوقت للشروع في الرحلة·· رحلة في، ومع عالم الطيب صالح .. حيث كان هنالك .. في لهيب وسخونة الجنوب وزمهرير شتاء الشمال .. أظن أنه حان الوقت تماماً.

المطالبة بالشروط

يقول "الطيب" عن هذا الصراع : "الصراع ما بين الشمال والجنوب لايزال مستمراً وإن تغيرت أشكاله، فالتحدي الآن هو بين الجنوب المتخلف تكنولوجيا والشمال المتقدم، هو تحدٍ اقتصادي وثقافي وإعلامي .. وبين الاثنين فجوة كبيرة تصل إلي مئات السنين وهي تحول الجنوب إلي سوق استهلاكية لا إرادة لها ولاوعي .. والجنوب مطالب بشروط عديدة لخلق توازن في هذا الصراع الأبدي، منها أحداث مؤسسات ديمقراطية حقيقية تديره، ووضع مشاريع تنموية، لابد أن يلتزم هذا القرار الذي يهدف إلي تحقيق تنمية إقتصادية ويبتعد عن القرار السياسي الذي يكون خاطئاً في أغلب الأحيان .. والصراع بين الشمال والجنوب ليس علي مستوي الدول وإنما علي مستوي الأشخاص، فهو يبرز وجود عقليتين مختلفتين في كل شيء، الجنوبي الرومانسي الذي يفتقد الثقة بالنفس، والشمالي العقلاني المعتد بنفسه والصريح جداً.. والعلاقة بين الرجل والمرأة تكشف أبعاد هاتين العقليتين ".

- قلت للطيب صالح :هل يمكن العودة لرواية (موسم الهجرة إلي الشمال) لنحدد وفقها تلك العلاقة .. ؟

قال :لو رجعت إلي (موسم الهجرة إلي الشمال) وهي "رواية قضية "بمعني ما .. وليست رواية أفكار، نجدها تطرح مسألة الصلة بالغرب علي نحو شديد من الالتباس، يبدو في لحظات من الرواية وكأن هذه العلاقة حدها الوحيد هو

الصراع الدموي .. إذا راجعنا سيرة (مصطفي سعيد) في لندن نجد أن إغواء مصطفي سعيد للغربيين والغربيات إغواء لا يرتوي إلا بالقتل .. فثمة شهوة حتي الموت، ثم هنالك عودة هذا الرجل، وانطواؤه علي نفسه، بحيث يبدو هذا كله وكأنه إشعار أو أساس دعوة انبعاثية للعودة إلي الذات .. وإن يكن هذا – لحسن الحظ – ليس قطعياً علي الإطلاق، فوجود مصطفي سعيد واختفاؤه وغيابه يترك الأمر مفتوحاً علي عدد كبير من الاحتمالات، هل القصة تحمل بمعني من المعاني فلسفة قومية .. أو محاولة لفلسفة قومية .. خاصة أن هذا الأمر في ذاك الوقت كان شاغلاً للمثقفين العرب.

– هل كان يعني ذلك أن هنالك رؤيا قومية أفرزت نفسها علي السطح بعد إنجاز تلك الرواية..؟

يقول الطيب :لا أحب أن أزعم أنني صاحب فلسفة قومية .. ولكن من حياتي في لندن، ومراقبتي للأوربيين وحكم الانجليز لنا حوالي ستين عاماً، ثم التغلغل في الحضارة الأوربية والفكر الأوربي، وجدت أن هنالك مشكلة في علاقتنا فيما يسمي الحضارة الأوربية، التي هي الحضارة الأوربية الغربية في واقع الأمر .. وإن كنت لا أستثني الروس أيضاً من هذا .. إذ أتضح أخيراً أن الروس هم مما يسمي العالة الأوربية.

من هذه النتائج والتجارب وصلت إلي نتيجة وافتراض بأن علاقتنا بالغرب ليست علاقة رومانسية، وكان هذا الشائع في روايات (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم و(الحي اللاتيني) للأستاذ سهيل إدريس وغيرها، وهي روايات جميلة، لكن الصراع لم يكن موجوداً بالمعني الحضاري، فكتبت (موسم الهجرة) وأذكر ذات مرة أني سألت – جاك بيرك : أنتم مهتمون بكل شعوب الأرض، مهتمون بالصينيين والهنود وأفريقيا السوداء .. فما مشكلتكم مع العرب .. فقال

لي إن العرب قريبون جداً منا ومختلفون جداً عنا، هنالك العلاقة المتنازعة، وأنا شخصياً لا أؤيد أن ينتهي ذلك بالحرب والدماء.

– لكن قبول الآخر وروح التسامح ألا يمكن أن ينهيا للأبد مرحلة الحرب والدماء..؟

الحرب والدماء موجودان في تاريخ الصراع مع القوي الأوربية علي امتداد العالم العربي .. وكنا نتمني أن يكون هذا قد انتهي .. ولكن الأمر تعقد بوجود اسرائيل طبعاً، وأصبحت احتمالات الصراع قائمة إلي أجل غير معلوم .. وطبعاً هذه الأيام يتحدث الناس كثيراً عن الآخر .. وقبول الآخر .. الحضارة الأوربية بالتأكيد في أوج الاستعمار –كما يحدثنا التاريخ – لم تكن تطيق الآخر، معروف أن الاستعمار الأوربي أباد شعوباً بأسرها، الانكليز مثلاً أبادوا سكان تزمانيا وكادوا يبيدون سكان أستراليا (الأبوليجين) ثم هناك قصة الهنود الحمر في أمريكا .. هنالك إذن عدم القدرة علي التعايش مع إناس ينظرون إلي الكون بشكل آخر.

– قلت :تتفق أراء نقدية بأن" "موسم الهجرة إلي الشمال" هي من أفضل ما كتبه الطيب صالح ..

قال :كل كاتب تصيبه لعنة رواية واحدة تلتصق به وتبقي دائماً في ذاكرة القاريء وكأنه لم ينتج أو يقدم غيرها .. حيث يحدث نوع من الشهرة للعمل الواحد، وتبقي هذه الشهرة ساطعة طوال حياة المؤلف وحتي بعد مماته .. وبالنسبة لي تجاوزت موسم الهجرة إلي الشمال وأصبحت في مرحلة أخري قد تكون أكثر بعداً وتعمقاً في مجال الرواية .. لقد كتبت بعد موسم الهجرة (ضو البيت) و (مريود) وهنالك قصة اسمها (يوم مبارك علي شاطيء أم باب) وغيرها من الكتابات .. إذن أنا موجود وسأبقي أكتب وعندي الكثير من الافكار التي يجب أن أكتبها ولكن في الوقت الملائم والظروف المناسبة .. وأعتقد أن لكل عمل جوه الخاص به، فالذي ظهر في وقت معين من تاريخ الأمة العربية

واكتسب نوعاً معيناً من القبول وأصبح له صدي واسعاً كانت له أسباب .. فحينما نشرت (موسم الهجرة إلي الشمال) في عام ١٩٦٦ ثم حدثت النكسة والهزيمة الكبري عام ١٩٦٧ جاء انتباه الناس إلي هذه الرواية ضمن روايات أخري، والحق يقال أني لستُ الوحيد الذي برز في ذلك الوقت لأجل ذلك السبب .. مع أن هذا السبب لايزال موجوداً بدرجات تقل وتكثر حسب الظروف، ولكني حالياً لا أظن أن هذا العمل هو أهم ما كتبته.

- قلت : هذه الرواية استفزت القاريء والناقد العربي .. ما الذي استفزك من ردود أفعال حولها.. ؟

قال: هذه الرواية مرت بمراحل كثيرة·· فقد منعت في بعض البلاد ثم أفرج عنها ثم منعت، والغريب في الأمر مثلاً في بعض البلاد، يقولون إن طالبات في جامعة من الجامعات شكون بأن الرواية إباحية·· وهن طالبات في قسم اللغة الفرنسية أو الإنجليزية·· حسناً أذا حدث ذلك في الأدب الفرنسي وهو زاخر.. فكيف أفهم من شخص مثلاً لا يريد لابنته التعرف علي ما هو موجود في الأدب الفرنسي ويلحقها بقسم اللغة الفرنسية.. هذه أمور كلها محيرة .. ولا منطق لها.. وهي أعراض تحولات عميقة تحدث في المجتمعات.. انتقالات حضارية لا نستطيع أن نقيمها أو نفهم مراميها.

- وقيل أن الرواية إنتقامية - أي أنها تريد أن ينتقم الإفريقي من الغرب من خلال غزوه لنسائهم ..

هذا ما تزعمه الشخصية الرئيسية وما يزعمه بطل الرواية .. وقضية الإستعمار وارتباطه بالجنس قصة طويلة كتب فيها كثيرون ومنهم (فرانز فانون) وهو كاتب أسود، كان طبيباً نفسياً من جزر المارتنيك، واشتغل في الجزائر أيام الصراع مع الاستعمار الفرنسي .. وانحاز للثورة الجزائرية .. وأصبح فليسوفاً لها،

والجزائريون يقدسونه ويحترمونه، وكتبه نالت شهرة عالية ومنها كتابه (معذبو الأرض) الذي شرح فيه ما يفعله الاستعمار في الأمة المستعمرة فيقول .. "كل أمة لها فحولة وإذا سيطرت عليها قوة أخري تكون كأنما انتزعت فحولتها أي أخصيت الأمة، والاستعمار هو إخصاء للأمة " .. وأنا فهمت هذه النظرية وقرأت فيها كتباً كثيرة .. الجنس في موسم الهجرة موظف بهذا المعني .. وليس بمعني الانتقام من الغرب بالجنس.

ومن الطبيعي أن يكون الكاتب موجودا في أعماله .. وبالنسبة لهذه الرواية فهنالك شبه ظاهري بيني وبين الشخصية الرئيسية (مصطفي سعيد)، لكني لا أشبهه بتكويني الأساسي .. أحداث الرواية عالم وهمي لكني في الرواية أرّختُ لجيل كامل من السودانيين ذهبوا إلي انجلترا ودخلوا في صدامات.. ولعله جيل كامل من العرب.

– وبالنسبة للشخصية السودانية في السودان حينما عالجتها في ذات الرواية بعد عودة بطل الرواية للوطن..

لقد عشت طفولتي في البيئة التي عاد اليها مصطفي سعيد .. وهي منطقة في شمال السودان .. بيئة زراعية وبلاد نخيل .. في هذه البيئة كل واحد شيء خاص قائم في ذاته .. ولقد قلت مرة أن مشروعي الكتابي مستقبلاً أن أحوّل هذه الشخوص من هذه البيئة التي يسمونها فلاحين إلي شخوص أسطورية، مثلما فعل هوميروس في الإلياذه .. هذا طموح كبير جداً .. شخص يكتسب حجما أكبر من حجمه .. ولكن لو أخذنا شكسبير وأخذنا من شخوصه (الملك لير) أو (ماكبث) فهما شبيهان بمشايخ العرب عندنا .. الملك لير لم يكن أكثر من شيخ عشيرة لدينا في السودان .. أو في صعيد مصر .. شكسبير أخذ هذه الشخوص وأعطاها امتداداً في الزمان والمكان بحيث أصبحت قابلة

للإستمرار في المخيلة، ويبدو أنني لم أكن بحجم هذا الطموح، مثل من يحمل رسالة لكنه ناء بحملها .. لكن فيما بقي من العمر ربما أفعل شيئاً .. وأظن أنني فعلت شيئاً من هذه المحاولة الأسطورية في روايتي (ضو البيت) و(مريود).

- قلت له : بما تمتلك من مخزون التجارب الحياتية ومخزون القراءات .. هل تكتب نفس الرواية التي كتبتها، منذ ثلاثين عاماً، وهل تكتبها بنفس المنطق ونفس الطريقة ؟

لا أظن، بالمناسبة يمكن أنا أُسأل كثيرا.. لماذا لم أكتب رواية منذ زمن؟ ولعلك الآن أعطيتني فكرة ما خطرت في بالي، زمان وأنا أرد علي هذا السؤال لعلي الآن استدعي الكثير من الأفكار بسبب التجارب الحياتية وفي روايات كثيرة دارت في بالي ثم أهملتها لأنها لا تستحق أن تكتب.

- أهملتها بحكم مشاغل الحياة أم بحكم الصحافة التي تأخذ جزءاً كبيراً من وقتك؟

أنا لست صحافياً، وكتابة صفحة في مجلة، ليست صحافة، أنا لا أستطيع أن أتبرع بالوقت، عندي وقت لكن أعتقد أنك تستدعي أشياء كثيرة أفكر أن أكتبها ولكن لا أري لها أي قيمة،بمعني أني أمارس وظيفة الناقد وهذا خطأ في الكتابة، الكاتب إذا كان لنفسه ناقد فهذا صعب جدا، المفروض أن تكون هناك تلقائية في الكتابة، لكني أنا أفكر دائما في أبعاد المسألة.

- هل تعتقد أن كاتبا جيدا لم يأخذ حقه علي المستوي النقدي سوف يأتي من ينفض التراب عنه في يوم من الأيام؟

بدون شك لأنه لا يوجد في الدنيا شيء له قيمة ويظل مقبورا باستمرار فمثلا أبو العلاء المعري "شاعر العظماء " في تاريخ الشعر العالمي، نجد أناسا

يقولـون أن أبي العـلاء فيلسـوف، وفيلسـوف معنـاه أنهـم لا يريـدون أن يواجهـوا شاعريته، الآن نعلم أن أبي العلاء شاعر كبير جدا.

- قلت له :الأوضاع السياسية في الوطن العربي وما يعانيه الكتاب ما أثره علي مسيرة الأدب .. هل تعتقد أنه مبرر قوي لأوضـاع يمكن أن تكون أفضل حالاً ؟

قال:أنا أجيبك كفرد عادي وليس كشخص له حكمة خاصة، بالتأكيد لو أن بلادنا كانت حالتها أحسن ربما تكون أوضاع الأدباء أفضل، لكن أيضا من ناحية أخري أحيانا ينتج أدب عظيم في حالات القهر وحالات الكبت من الناحية الإنسانية ونتنمي أن تكون أحوالنا أحسن مما هي عليه الآن، ولكن صلة ذلك بالأدب قابلة للجدل !

- وجودك خارج السودان أو خارج أفريقيا .. إلي أي مدي أثر علي شخصيتك الأدبية؟

بالتأكيد حدث تأثير فالإنسان المغترب ينظر إلي وطنه من بعيد والذي ينظر من بعيد يختلف عن الشخص الذي يعيش الحياة اليومية من حيث رؤيته للمزايا والمساوئ.

- قلت : هل الشخصية تستمر في الرواية بنفس الشيء الذي توقعته لها ؟

قـال: الكتابـة هـي مـزيج ضـد التخطـيط، وأشـياء ليسـت في الحسـبان، والشخصيات نادراً ما تسير علي خط رسمه الكاتب لها، ولعل هذا أحسن ما في الكتابة حيث إن الشيء يأتي دون أن تحسب له حساباً.

- هل تعتقد أن أدبك طرح أسئلة دون الوصول إلي إجابات؟

في نهاية الأمر، الأدب لا يقدم أي إجابات، لأن الأدب يثير القضايا ويحث الناس علي التفكير فالقصيدة أو اللوحة الفنية أو الرواية لا يكون لها أي قيمة إلا إذا تفاعلت مع خيال الرائي والسامع والقاريء، ومفكر مثل جان جاك روسو كتاباته كانت هي السبب في قيام الثورة الفرنسية ولا أعتقد أن هذا صحيح، لأن الشاعر عندما يكتب قصيدة قد تحدث" انقلاباً" ولكن في تراكم علي مدي السنوات وليس لحظة وقتية.

وقد بدأ بعض الناس يفهمون الجانب الثوري في شعر المتنبي ويحسوا بالجانب الساخر في أدب الجاحظ، إذن فالأدب خطر علي المدي البعيد، خطر علي الناس الذين يريدون أن يعموا أبصارهم عن الحقيقة لكن لا يوجد أدب يحدث ثورات بطريقة وقتية.

- قلت :ما اليقين الذي لا زلت تبحث عنه ؟

قال :هذا السؤال صعب جدا !

- تحركت بالسؤال خطوة وقلت:عندما كتبت هل كنت تبحث عن يقين ما؟

أبدا، ما أظن أن الكتابة هي الحافز الأساسي، ولكن الرغبة في التعبير والمشاركة في الحوار، فالرغبة في التعبير هي الحافز الرئيسي.

- قلت : وماذا جنيت من وراء الكتابة ؟

قال :هل تعرف البيت الشهير للمتنبي الذي يقول : "ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني .. بما أنا باكٍ منه محسود" .. وهو هنا يقصد عناء الشعر لأن المتنبي عبقرية فذة فكان يحسده الناس علي شيء هو يعاني منه ويتعذب منه، المتنبي كان يتعذب من أنه متفرج وأن عنده هذه الموهبة التي لا تجعله يقبل الأشياء كما هي، وكان لابد أن يفكر فيها ويري إذا كانت تسير صح أم خطأ.

- هل الشهرة مزعجة بالنسبة لك ؟

كوني اشتهرت فهذا يسعدني بدون شك وإن كان فيها بعض المنغصات ولكن المرأ يقبلها كجزأ من طبيعية الأشياء.

- ما رؤيتك بالنسبة لانتاج الأعمال الأدبية سينمائيا ؟

الكاتب يقدم الكتاب وهو بين دفتيه ويأتي مخرج سينمائي ويحولها إلي سينما،وهو بذلك دخل في منطق آخر ووسيلة تعبير أخري، ومعروف أن هناك مخرجين أقدر علي فهم نوايا العمل ومقاصده والتعبير عنه سينمائيا، وهناك البعض الآخر ليسوا بمثل هذه الجودة،وأنا أظن أن الكاتب غير مسؤول عن ذلك ويجب ألا يلاحق ويضمن فقط أن المخرج قد فهم العمل علي أي حال وبعد ذلك يصبح المخرج حراً فيما يفعل.

- قلت :إلي أي مدي أثر التصوف علي أعمالك ؟

قال : في شمال السودان توجد الصوفية.. وحدث في مرحلة التطور المدني اختلاف بين مصر وشمال السودان .. فأصبحتم أكثر تمدنا،وليس معني هذا أنكم أصبحتم أفضل منا، ولكنكم أصبحتم في العيش أكثر تمدنا،وبعدتم قليلا عن المنابع الصوفية والقبلية، أما نحن فما تزال لدينا قبائل وطرق صوفية، والتصوف هو تركيبتنا، الدين الإسلامي نفسه دخل عن طريق مشايخ الطرق الصوفية.

فالإسلام لم يدخل عن طريق الحرب كما في مصر وبلاد الشام، وإنما علي مدي سنوات عن طريق المشايخ .. فأنا لا أتعمد توظيف التراث كما يقال، وإنما أنا أنظر إلي الناس لأنني أكتب عن الناس وعن بلدي وعن القرية وسلوك أهلها ونظرتهم للحياة .. فمثلا الناس تعتقد في الأولياء .. أنا ككاتب لا أتدخل وأقول

هذا خطأ، ومن بداية عملي مثلا كتبت قصة قصيرة اسمها " جهمية واد حامد " عام ١٩٦٠ثم "عرس الزين ".

- قلت له :كيف تري العلاقة الفعلية بين أبطال رواياتك أهي علاقة ندية أم حب وهل تختلف العلاقة أثناء العمل وبعد الانتهاء من العمل؟

قال : لاشك أن الكاتب موجود في أعماله، لأن الكاتب هذا منبعه،ولكنه ليس موجودا بمعني أنك تضع أصبعك علي الشخصية وتقول مثلا إن نجيب محفوظ هو محمد عبد الجواد .. هو مذكور في اعماله،كلها نظرته وفلسفته، الشخصيات في بيئة معينة وبعد ذلك تفاعلات الشخصية مع البيئة تكون لها منطق يختلف مع ما يريده الكاتب .. فيصبح هنا دور الكاتب إلي حد كبير موضوعياً .. إنه بطل يحرك هذه الخيوط مثل البهلوان، فالعلاقة هنا علاقة معقدة ومركبة ولكنها ليست كما يتصور الناس .. فإذا أخذنا مثلا شاعر مثل " أبو نواس " فأنا أشك أن الهفوات التي زعم أنه فعلها قد فعلها في الحقيقة، وإنما هذا فن، وهو أوصل للناس أنه يعمل فناً كذلك المتنبي .. في الأرض الفن له منطق خاص، ومن هنا جاءت دعوة بعض الناس أن الفن للفن، وهم في الحقيقة لا يقصدوا أن أول من قالها، أوسكار وايلد " وهو ما قصد أن الفن الأدبي يبعد عن الحياة.

- قلت :القصة القصيرة..هل تكون علي علم من البداية أنها قصة قصيرة ؟
نعم فهناك فرق أنك ستبني بيتا من عشرة غرف وبيتا من غرفة واحدة..وأنا فعلت ذلك في قصص قصيرة اسمها"مقدمات"وكتبتها في فترة مبكرة باللغة الانجليزية..وتعمدت أن أبعد اللحم كله وأترك الهيكل العظمي، والقصة تكون أقل من صفحة..وبعد ذلك هناك نظريات حديثة في الفراغات بين النص، قصدت أن أكتب الهيكل العظمي فقط للقصة وبعد ذلك ترجمتها للعربية.

- الرواية العربية هل تعتبر رواية أصيلة أم أنها امتداد ومجاراة للرواية الأوربية؟

من أثار الشكل الروائي هم الانجليز علي وجه التحديد، وعندنا في أدبنا،جانب من المحلية وهذا شيء ليس بغريب علي العرب،ولكن توظيف الرواية بمعني أنها أصبحت وسيلة للتعبير من أفكار معقدة عوضه الأوروبيون بحكم الدرجة التي وصلوا اليها من التطور الحضاري، نحن عندنا في أدبنا أشياء متقدمة جدا .. ويحيرني العقل العربي المعاصر، فدائما نحاول أن ننسب الأشياء إلي أناس آخرين، ولا نريد أن نصدق أنه ممكن أن يأتي واحد سوداني، أومصري بشئ متقدم، أنا أقصدإذا لم نحسن كتابة روايات فماذا نحسن، فهذه الأمور موجودة عندنا، وما نسميه التراث الآن واسع جدا، الشعراء أنفسهم يقللون من شأنه، وقالوا إن الشعر الجاهلي "من القصيدة العمودية " ليس متقدماً، قلت لماذا؟ قالوا لا توجد وحدة عضوية، أظن والله أعلم أن هذا ناتج عن عدم ثقتنا بأنفسنا.

- قلت :بالنسبة للأدب الأفريقي، ما رأيك في أثر الاستعمار عليه،وهل استفاد الناس من فترة ما قبل الاستعمار، وهل حصل نوع من التكامل بين الأدب العربي والأفريقي ؟

قال :الاستعمار عموما كان نعمة ونقمة لأن فيه فوائد ومصائب، فوجود عنصر أجنبي في بلد ما يولد طاقات لمحاولة التخلص منه الأمر الذي يجعل الأمة متحركة، تعلمنا لغات أجنبية، والأخوة في أفريقيا تعلموا فرنساوي وانجليزي، البعض منهم أصبحت اللغات الأجنبية بالنسبة لهم هي الأم، ولم تعد عندهم لغات متطورة للتعبير عن الأدب والفن، وهذه مشكلة كبيرة أن واحداً من أفريقيا يكتب اللغة الفرنسية إلي أي حد هو أفريقي أو إلي أي حد هو فرنسي، وأنا أظن أن هذا يعتمد علي نزاهة الكاتب نفسه،هو لا يكتب لمجرد أن يصبح شهيرا

في فرنسا،لكن الإنسان يعبر عن أشياء حقيقية من بيئة باللغة الأوروبية، فنحن دخلنا في أزمات خصوصا علي المستوي السياسي،وأظن أنه سيظل الأثر سلبياً لمدة طويلة إلي أن تستقر الأمور، ونحن نقبل اللغات هذه كأدوات الآن، الآن في السودان هناك رد فعل ضد اللغة الانجليزية، إنهم يقولون إن هذه اللغة هي لغة الاستعمار،الاستعمار قد انتهي منذ خمسين عاما تقريبا،وهذه اللغات مجرد وسيلة أو أداة يمكن الاستفادة منها شأن الكثير من الدول الأخري، فأنا لست من الذين يقولون لازم نتخلص من اللغات الأجنبية بالعكس.

- سألت الطيب :الرمزية في الكتابة، وأفكار الصراع بين القديم والحديث ما رأيك فيها ؟

أجاب قائلاً :الرمزية أسلوب في الكتابة، فهناك أناس يكتبون بطريقة رمزية،وهناك أناس يكتبون بطريقة مباشرة، ولو أن بعض الناس يقولون إن الأدب كله مجاز، وطالما هو مجاز إذن لماذا دخلت في موضوع الرمز، أنا منذ بدأت أكتب وأنا أميل إلي الرمزية.

(٢)

أنا عابر سبيل حياتي كلها صدفة

- ألغي الزمن فتتحول الأشياء إلي أسطورة !
- في "أصيلة" .. المكان ينمو وتكون له صيرورة .
- لبنان والسودان وجهان لعملة واحدة .
- أعترف بأن كتاباتي تعاني من الانفصام .

الحوار مع الطيب صالح لا يحتاج إلي سؤال وإجابة ، إنما مداخلات ليست سهلة ، فعالم "الطيب" ثري جداً رغم أن إنتاجه نادر جداً، وفي هذه المحطة يتداخل الزمان والمكان .. تتداخل الكلمات، نحن نتحدث عن كاتب حقق ذاته،ووصل إلي درجة من الإيمان بحياته .. درجة ليست هي اليقين التام، لكنها– من وجهة نظرنا– حلقة من حلقات الصوفية الكاملة..

وبقدر ما تثيره روايات الطيب صالح من جدل حول الذاتي واللاذاتي .. الخاص والعام، نحاول أن ندفعه إلي جزء من حياته الخاصة .. تلك الحياة التي يراها هو عكس ما نراها نحن .. يراها لا تستحق التدوين، ونراها حافلة بالمنافع وتستحق التدريس وليس التدوين فقط.

في هذه المحطة من أوراق الزمن .. نبحر معه للكشف عن الجذور .. جذور القلب والرحلة .. جذور البذور .. أو بذرة البداية التي نمت إلي أن صارت نخلة .. نعم نخلة .. (نخلة علي الجدول) .. و (نخلة علي الجدول) كان عنواناً لأول قصة ينشرها الطيب صالح عام ١٩٥٣ وهو العام نفسه الذي وصل فيه هذا الروائي إلي لندن ، حيث ستبدأ في هذه العاصمة الإنقلابة الجذرية لحياته كلها .. تلك الحياة التي جعلت الماضي أطلالاً فخمة يحن اليها لينهل منها أبدع صور رواياته وقصصه .. حيث يلقي المستقبل الجديد بظله علي ماضٍ عتيد لا يسكن في الذاكرة .. وهكذا يكون الفارق بليغاً وشاسعاً بين رؤيا الكاتب لمفردات الحياة السودانية البسيطة حينما لم يغادره .. وبين ذلك الشاب الأسمر الذي عاش بين سحب وشتاءات لندن حيث يأتي استذكار الوطن عن بعد جغرافي كنوع آخر من الكتابة.

ولعل العودة إلي قصة (نخلة علي الجدول) ستميط اللثام عن خبايا كثيرة ، خاصة فيما يتعلق بنقاء الأجواء من تلوث العواصم الصناعية الأوربية .. مكاناً .. وشخوصاً .. ودوافع .. ففي أول قصة كان قد نشرها الطيب صالح .. وهي موضوع كلامنا يأتي كل شيء سودانياً صرفاً .. ففي القصة تتجلي الأحداث في هيئة حوار بين صاحب النخلة التي علي الجدول وهو الشيخ (محجوب) وبين التاجر (حسين) الذي أراد أن يدفع عشرين جنيهاً ثمناً لهذه النخلة .. وهذا المبلغ كان مغرياً بالنسبة للشيخ ، خاصة وهو يحتاج لشراء أثواب لابنته وزوجته وتسديد دين عليه .. وكانت الحيرة بين أمرين بالنسبة للشيخ هل يبيع النخلة التي أثمرت بعد أن زرعها منذ خمسة وعشرين عاماً .. أم يبقي عليها.. ؟ لنقتطف مقطعاً من القصة يدلل علي شيء من الأسلوب الذي كان يكتبه الطيب صالح قبل ستة وأربعين عاماً .. حيث يشرح القاص بحس رومانسي ردود فعل سعف النخلة التي ترفض أن تباع .. "هكذا أخذ يوشوش ، ويتعارك ويتلاطم، كغريق يطلب النجاة، وبدت النخلة لمحجوب في وقفتها تلك رائعة وأجمل من أي شيء في الوجود " .. وعند ذاك تكون النخلة ليست مجرد نخلة طالما أن لها قولاً .. وموقفاً .. إذ عند هذا المعني الذي يقف عنده القاص تكون للنخلة أبعاد أهم .. وأبلغ .. وبالطريقة التوفيقية الجاهزية التي كانت تعم أساليب كتابة القصة القصيرة في الأربعينات والخمسينات تكون نهاية القصة .. إذ يأتي الحل من الابن (حسن) الذي يبعث لأبيه مبلغاً نقدياً وحقيبة ملابس للأسرة ، حيث كان الأب يعمل في مصر .. وتقفل القصة بعبارة ختامية – يفتح الله.

العلامة الأولي: تلك القصة القصيرة الأولي له .. هل قررت منذ البداية أن الرمز هو علامة أولي في كتابات الطيب صالح .. هذا بعد ما قدم في أعمالٍ لاحقة صورة أخري للرمز .. ليس هنالك بمقدوره أن يجيب علي ذلك وبدقة .. إلا

الكاتب نفسه .. حيث يقول .. " لاشك أن الرمز يواجد بنسب مختلفة وذلك حسب الظروف والتناول ، لكني أرفض أية تفسيرات حول إنتاجي بخصوص أنها ترمز لشيء ما أو شيء محدد ، الرمز عندي شيء مدفون مكنون غير ظاهر بالمرة .. شيء يشع اشعاعات غامضة متضاربة ، بحيث لا أربك القاريء أو أجعله مشتتاً أو يعيش في غموض .. بل العكس .. أجعله يغوص معي ويعيش بسلاسة وخفة ويتحرك كيف يشاء ، ويقدر ويتصور العمل بحرية ، ومهمتي هي أن أخدم العمل بكل أدواتي الفنية والأدبية وأجعله مقنعاً كي يتناوله القاريء ليعيش فيه .. وهناك نظرية نقدية حديثة تقول إن القاريء يعيد صياغة العمل الروائي ".

غير أن الرمز بقي حاضراً ولم ينفك عن أغلب روايات الكاتب .. وصولاً إلي روايته الأخيرة (ضو البيت) .. التي أخذ الرمز فيها تأصيلاً آخر مستنداً علي تكثيف فكري أكثر عمقاً وبعداً ومعني .. ولم يتوقف الاستناد الرمزي عند بوابة الميثولوجيا والأديان والعادات بل مضي ليستخلص ايحاءاته من نظريات الجدال الفكري والسياسي الحديث.

فالتراث الديني أخذ يعكس نفسه بوضوح لو اخترنا فصول رواية (مريود) .. إذ تحمل بعض رموز هذه القصة علي مستوي الشخصيات دلائل دينية واضحة برؤيا معاصرة .. فالرواية يتوافر فيها شبه مع قصة النبي يوسف من وجهة نظر حكائية .. أما الشخوص فإن التبادل واضح بينهم وبين شخصيات الرواية الدينية .. ولو شئنا أن نلمح إلي ذلك الترميز فلسوف يكون علي النحو التالي .. مريود هو يوسف الأب بندر شاه ، هو الأب يعقوب .. الاثنا عشر ابناً لبندرشاه أحد عشر ابنا للأب يعقوب .. الابن يوسف والابن مريود .. الأول

مستهدف بالقتل .. والثاني كذلك ، الفاعل الأخوة ‥ الفاعل الأبناء .. وفي (ضو البيت) يكون النهر في الرواية شكلاً أساسياً للرمز .. الذي يعني هنا الخصوبة .. ويحمل معني (ضو البيت) ذاته رمز التجديد في كل شيء وهو اسم أطلق علي شخص عادي دخل القرية بشكل غريب ومفاجيء وعاش فيها وتزوج منها ومرت حياته بمراحل يشكل نهر القرية حلقاتها المغلقة .. حتي شعر الجميع بأن (ضو البيت) هو اسم كان موجوداً منذ الأزل.

تلك هي ايحاءات الرمز التي سرعان ما يكشف عنها الكاتب بمباشرة واضحة ‥ وهكذا (لم يكن وجوده عبثاً فقد جاء به موج النيل ليكون بشيراً بالخير والبركة ولقد حمل للأرض الخصوبة) .. ذلك هو المعني الذي يحتويه الرمز .. وهو في واقع الأمر معني يتكرر مع أعمال الكاتب ليأخذ الصورة والوصف نفسه .. الخصوبة .. الأرض .. العطاء .. فمنذ (النخلة) التي استعاض بها الكاتب كبديل موضوعي أو رمزي للأرض .. للعطاء .. بقي حوار الروح الإبداعي يعيد ذكره بين عقلية الكاتب وبين الأرض التي غادرها ولم تغادره .. ويبدو مؤكداً أن لغة الحنين لا تكفي لتكون هنا واقعية صرفة .. إذ إن الرمز يمنح حرية وفضاء واسعين لقول ما يشاء أن يقوله الكاتب .. ليس خوفاً من سلطة أو خشية من شروط .. وإنما ليحمل المعشوق – وطن، ذكري، مُثل – إلي حالة شبيهة بالتقديس، وهذا التقديس لابد أن يليق به الرمز .. أو أن الرمز هو الحالة المعبرة شمولياً وبأقصي دقة للمقدس.

ولكن السؤال .. هل بقي الرمز بالنسبة للطيب صالح مستمداً من الثقافة السودانية دون أن يعبر أو يتجاوز أو يتكأ علي رموز من ثقافات أخري ؟ .. وهل الدين هو الجانب الوحيد الذي راح الروائي يضع المرآة لحروفه مستذكرا إياه بين السطور .. مؤكداً علي الهوية السودانية.

وعن ذلك يشير الطيب صالح في إحدي الحوارات التي أجريت معه .. "الآن يكثر الكلام عن الهوية، نحن في السودان لم نطرح قط هذا السؤال بل لم نكن نفهم الكلمة نفسها، الآن هنالك كلام كثير في السودان عن الهوية، لأننا نحس – علي أي حال – أن الشيء الذي كنا عليه بدون أن نعرف ما هو بدأ يضيع من بين أيدينا لا أنكر نحن السودانيين في وضع خاص، نحن عرب، وربما سحناتنا وسماتنا لا تدل علي ذلك لكننا من الناحية الوجدانية ومن ناحية اللغة من أعرب العرب .. وأنا أكتب واقعاً موازياً للواقع آخذ جغرافيا المكان لكنه ليس المكان نفسه حتي يتاح لي الكتابة في زمن مبهم وأترك الأمور مفتوحة لفضاءات التأويل .. فعندما الغي الزمن تتحول الأشياء إلي أسطورة ، أوتسعي لخلق أسطورتها الخاصة ، ففي رأيي أننا لسنا في حاجة لكتابة الواقع بخذافيره ، وهذه ليست طريقة جديدة لكنني كتبتها بشكل يميزني عن غيري.

والموروث الشعبيي السوداني والخرافات التي ماتزال موجودة فيه مع وجود الكثيرين من المؤمنين بها إنما هي كلها جزء من الواقع الاجتماعي .. وكان من الضروري توظيف مثل هذه الموروثات والرموز .. فأنا ولدت في هذه البيئة وتشربت بها .. وأثر الدماء الأفريقية كان واضحاً لدي في كتابة رواية (نار الزغاريد) فجزء من عالم الكتابة عندي يأتي من انبهاري بالمدن التي أعيش فيها".

وإذا كانت أعمال هذا الروائي التي كتبها في أولي سنوات عمره الإبداعي ، تتسم بشفافية رمزية واضحة .. فإن الغموض الذي أغرقت فيه رواية (ضو البيت) تبقي في حاجة إلي الوقوف عندها كثيراً .. فحيرة الكاتب .. وحيرة الشخصيات لاتنتهي إلا مع حيرة القاريء وهو ينتهي منها حاملاً معه عالماً

يكتنقه الغموض المعبأ بالرمز .. سوي أن الكاتب لا يري المسألة بهذا الشكل .. وهو يعبر عن هذا الغموض برؤية أخري.

" هذه رواية ليس لها بداية ولا نهاية هي عبارة عن مشاهد ومواقف ولم تنته ، ليس مثل رواية (موسم الهجرة إلي الشمال) .. ضو البيت رواية مفتوحة ولم تنته من نفسها ، الموضوع طويل وأنا لم أفرغ منه بعد .. فأنا كتبت منها جزأين الأول اسمه (ضوالبيت) والجزء الثاني (مريود) ..ونلاحظ أن نهر(النيل) في الرواية هو عنصر أساسي .. وأنا وغيري من كتاب وادي النيل نستخدم هذا النهر كرمز ".

هذا عن المكان .. ولكن علي مستوي الشخصيات هل يكرر الأديب نفسه ، ويشظي رموزه التي يرغبها هنا وهناك بين أبطال روايته .. ليوفر توازناً متكافئاً مع نفسه ومع شخصية معينة ما تكون دلالة .. أو رمزاً له .. عن ذلك يقول الروائي .. "البحث عن التوازن الرمزي بين الكاتب كبشر عادي يعيش بين الناس ، كونه بين واسطة للتعبير عن أشياء لعلها ليست متفقة مع سلوكه هو شخصياً هي بالفعل مشكلة ·· لأن القاريء عادة يخلط بين الكاتب وبين شخصياته ، وأنا أعاني منذ سنوات من هذا الأمر .. فالبعض يسألني ما علاقتي بهذه الشخصية أو تلك .. وقد قيل إن الفن يأتي من مكان غامض .. فلا نستطيع أن نعرف لماذا الشاعر قال هذا في القصيدة ولماذا خرجت هذه الصور.

ومن وجهة نظري أن المتنبي مثلاً لا يمكن أن يكون هو الشخص الذي يعبر عنه في شعره ولا أبو العلاء ولا أبو نواس ، حتي بعض النقاد يقعون في هذا الخطأ .. إنهم يأخذون النتاج الفني كوثيقة لشخصية الشاعر أو الكاتب ، وهنالك مقولة شهيرة للكاتب الروائي الفرنسي الكبير – بروست – يدافع فيها عن بودلير ، لأن بودلير قيل عنه أنه شاعر الشر نسبه لديوانه (أزهار الشر)

حيث قال البعض إن هذه البذاءة ناتجة عنه فهو بذيء .. لكن بروست اختلف معهم وقال إن الشعر والفن يأتيان من شخص آخر ، بمعني أنني حين أجلس وأكتب رواية تأتي الرواية من شخص آخر .. فهو واسطة فقط".

بدايات الروائي الطيب صالح مع الشعر لم تستمر طويلاً .. مع أن له تجارب شعرية في مقتبل حياته الأدبية .. وتلك التجارب كان لها أثر كبير في تكثيف الصورة الوصفية في الشكل الفني للرواية .. ولقد كتب الروائي ثلاث مجموعات شعرية فاضت القصائد فيها بالرمز .. ولقد استخدمت مقطوعات شعرية مكتوبة بالعامية السودانية خلال النسيج الروائي لبعض كتاباته من أجل إضافة شكل متميز ومختلف عن كتابات غيره .. هل جاءت تلك القصائد لتعبر عن دلالات موحية لرموز معينة .. يقول عن هذا الإفتراض :

" هذه المقطوعات الشعرية تدخل في نسيج السرد وتكمل الحكي الموجود قبلاً ولا يصح أن تتجزأ من هذا السياق وهي مقطوعات دون شك حملت بالمعاني والرموز .. وفيها نوع من التجديد الذي يكسر حدة السرد العام .. هذه المقاطع أشبه بالجوقة في المأساة الإغريقية التي كانت في ذهني .. وأنا في مرحلة كتابتها كنت أكتبها بطريقتي الخاصة .. فأنا تجريبي في المقام الأول ، أجرب جميع الأشكال والطرق وحتي الآن لم أصل للنص الذي أريد "

- أهو النص الذي يحوي علي رموز وتكنيك كتابي مغاير .. ؟

يواصل الأديب قائلاً .. " بعض النقاد الذين كتبوا عن رواية – سماء بلون الياقوت – عابوا استخدام هذه المقاطع الشعرية علي النحو الذي وردت به وبعضهم أشاد بها .. وبالنسبة لي فهي نوع من التكنيك الكتابي المغاير ، المكتوب علي المنوال الشعبي .. الذي فيه من الإيحاء الكثير .. من كل ذلك

قصدت أن تحاكي الرواية الموروث الشعبي خاصة بالنسبة للجزء الغائب منها .. أكتب واقعاً موازياً للواقع .. آخذ جغرافيا المكان ، لكنه ليس المكان نفسه، حتي يتاح لي الكتابة من زمن مبهم وأترك الأمور مفتوحة لفضاءات (التأويل) .. أنا أستمتع بهذه الكتابة ولا أعرف لماذا .. إلا أنها تخدمني بصورة ما .. فعندما ألغي الزمن تتحول الأشياء إلي أسطورة .. أو تسعي لخلق أسطورتها الخاصة .. ففي رأيي أننا لسنا في حاجة لكتابة الواقع بحذافيره ..

حياتي عادية ، ليس فيها ما يثير إطلاقا ، واستعراضها لا يفيد أحد ، ولا يؤثر في أدبي .. ومن أراد أن يتعرف علي الطيب صالح – الكاتب فإن انتاجي معروف وفي متناول الجميع .. أما الطيب صالح الإنسان فهو موظف يجاهد من أجل الحياة الكريمة " .. ذلك جزء من حديث قاله الطيب صالح لجمهور من الأدباء في تونس عام ١٩٩٦ حينما تزاحمت عليه أسئلة كلها تهدف لمعرفة المزيد عن الحياة الخاصة لهذا الأديب.

وإذا كان هذا الروائي قد أكد في مناسبات عديدة بأن حياته الخاصة لا تشكل أية علاقة مع ما يكتبه وليس فيها ما يثير .. فإنه في الواقع لم يكن دقيقا في هذا الجانب .. إذ أن الكتابات الأولي خاصة إستمدت الكثير من حياة هذا الروائي في نسيج بنائها الدرامي وحضورها المكاني والزماني .. ومهما حاول – مثلا – هذا الروائي أن يتنصل من روايته الشهيرة الأولي – موسم الهجرة إلي الشمال – كونها لاتمت أحداثها بصلة مع حياته الخاصة .. فان (زمكانية) الرواية وشخوصها هما أهم الشواهد الراسخة والقوية التي عكست ملامح قريبة للغاية لتفاصيل الحياة الخاصة .. بيد أن الطيب صالح يرفض جملة وتفصيلا ذلك القرب .. بل ويعلن كرهه لها .. حيث يقول : " أنا لا أحب هذه الرواية كثيرا ، رغم أنها كانت بداية شهرتي ".

ويضيف الروائي كلاما آخر حول موسم الهجرة إلي الشمال .. " ما هذا الاهتمام برواية موسم الهجرة إلي الشمال ، وقد أخذت ما تستحقه من الدراسة والتحليل " .. والإجابة نقولها نحن .. هذا لأن الرواية أصبحت تمثل بالنسبة للقارئ والروائي حالة شبيهة بالسيرة الذاتية لمواطن سوداني مهاجر يتفق مع مواطن سوداني مهاجر آخر يدعي الطيب صالح .. والشبه بين بطل رواية موسم الهجرة إلي الشمال (مصطفي سعيد) و (الطيب صالح) يتفق كثيرا من حيث التفاصيل .. وهذه سطور من حياة الكاتب مقتبسة ، توضح الأيام ، اللحظات الأولي من تجربة الهجرة التي تمثل أهم قفزة ومرحلة في حياته ..

من القرية إلي لندن

" الآن سيقتلع الطيب صالح نفسه إقتلاعا ، ليركب الطائرة من مدينة أم درمان إلي لندن .. كانت الأشياء قد اختلطت في ذهن هذا الشاب الذي يبلغ من العمر آنذاك ٤٢ عاما فقط .. " فقد عاش أربع سنوات قلقة وهو نفسه يصف تلك الفترة بأنها كانت فترة (اللخبطة) .. لقد ترك وراءه سنوات الصبا .. والأهل ودفء العشيرة، بحثا عن مجهول لم يكن يرغب فيه ولعل تلك هي إحدي المفارقات في حياة الطيب صالح .. لكن هذه النقطة في الزمان والمكان هي التي ستصنع عالمه الروائي .. ".

وعن تلك اللحظات التي ستشيدّ فيما بعد تناقضات شتي وأفكار وانطباعات يصوغها في رواية (موسم الهجرة للشمال) يقول الطيب صالح .. " وصلت إلي لندن في شتاء ١٩٥٣، عند وصولي لسعني البرد، وأحسست بزمهرير داخلي فاجأني هذا الطقس، فقد جئت من منطقة حارة ، وهأنذا أصل إلي منطقة باردة جدا .. كانت هنالك سحابة من دخان أسود فوق سماء لندن ..

هذه السحابة نتيجة اختلاط دخان الفحم الحجري من الضباب، وهو ما يطلق عليه الإنجليز كلمة إنيغ ونظرا للإستعمال الكثيف للفحم الحجري في تدفئة المنازل خلال تلك الفترة فان السواد كان يغطي سماء لندن باستمرار .. جئت للعمل في هيئة الإذاعة البريطانية ولم يكن لدي سابق معرفة بالعمل الاذاعي وأحسست أنني وقعت في ورطة حقيقية .. فقد جئت إلي بلد لم أكن أرغب فيه ، لأعمل عملا هو كذلك ليس لي رغبة فيه .." .. ومن القرية السودانية إلي لندن لم تكن هجرة الشاب آنذاك سهلة .. حيث نقل في مخيلته واحتفظ بذاكرته كل ما يربطه بحياته سواء التي قضاها في القرية حيث النخيل ودفء العشيرة .. أم في الخرطوم وأم درمان حيث النيل والدراسة.

في قرية (الدبة) بمنطقة مروي في شمال السودان وفي عام ١٩٢٩ الطيب صالح كان أبواه قد رزقا بمولودين ذكرين قبله لكنهما لم يكتب لهما العيش .. لذلك فقد رأت الأم (عائشة أحمد زكريا) أن تطلق عليه اسم (الطيب) فلعله يعيش ولا يلتحق بأخويه .. ومن المؤكد أن فرحة الأب (محمد صالح أحمد) لم تكن بأقل من فرحة الأم حينما رزقا بمولودهما الجديد الطيب .. هذا الطفل الذي أثر المكان وبشكل قوي وجذري في تشكيل الملامح الأولي لصباه .. حتي كانت القرية والعشيرة هما المنهل الذي استمد منه الكثير في تكوين أعماله فيما بعد .. ومن الواضح أن سنوات الدراسة لم تؤثر كثيرا علي الطيب صالح أو لعلها لم تستقر في ذاكرته كما حدث بالنسبة لسنوات الطفولة ، لذلك سنلاحظ أنه لم يتوقف عندها كثيرا في معظم أحاديثه وحواراته التي أسترسل فيها مع محاوريه حيما يتطرق نحو السيرة الذاتية.

لقد انتقل الكاتب من قرية (الدبة) إلي بور سودان لمتابعة دراسته في المرحلة الوسطي وذلك في مطلع الأربعينات .. وكانت - بور سودان - تعتبر المدينة السودانية الثالثة بعد الخرطوم ومدني .. ثم تابع دراسته - السنوية - في مدرسة (وادي سيدنا) بأم درمان وهي المدينة التي عاش فيها سنوات الصبا والخصُوبة الفكرية .. وبعدها التحق بكلية العلوم في العاصمة الخرطوم ليدرس الزراعة ولكن الحال لم يستمر كما كان يرغب أن يكون عليه بالنسبة للطيب صالح .. فترك الدراسة .. وعن الخرطوم يقول .. "كانت تبدو لنا مدينة غريبة حين نزورها، نشاهد الدور التي يسكنها الانجليز، والحدائق، والدور الحكومية التي أصبحت فيما بعد وزارات وقصر الحاكم ، وكلية (غردون) التي ستتحول لاحقا إلي جامعة الخرطوم " .. ثم يمضي الطيب صالح ليعمل مدرسا في المرحلة الوسطي في بلدة (رفاعه) لينتقل منها إلي معهد (بخت الرضا) الذي خرّج العديد من الشخصيات المشهود لها بالنبوغ والكفاءة.

نحو مستقبل آخر

في ١٩٥٢ يعلن القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية عن حاجته لمذيعين ومحررين ومترجمين سودانيين .. ويدخل الكاتب امتحان القبول لينجح فيه .. وخلال فترة وجيزة يكمل اجراءات السفر إلي لندن .. وتبدأ الهجرة .. يقول الطيب الصالح عن تلك الأيام " إذا كانت لبعض الناس مبرراتهم في الإغتراب والهجرة ، فلم يكن لدي أي حافز لأفعل ذلك .. هنالك أناس خرجوا من السودان لأنه لم تعجبهم بيئتهم أو لأنهم يريدون جمع الفلوس ، أو من أجل الدراسة .. وبالنسبة لي لم يكن هنالك أي شئ من كل هذا .. اللهم إلا

الدراسة .. ربما " .. لكن المهاجر كان ينوي أن يهاجر جسدا ولا ينأي بعيدا عن السودان .. أو ينقطع عن جذوره .. وعن هذا التعلق الشديد بالمكان الأول .. يقول الطيب صالح .." حاولت أكثر من مرة العودة بكيفية نهائية للإستقرار في السودان .. وما جعلني أعدل عن هذه الفكرة ، هو أنني كلما عدت وجدت أن البلد تسير نحو الأسوأ .. " ويضيف في حوار آخر معه .. " وقد يكون اندماجي في البيئة هو الذي أطال إقامتي في لندن ، وربما لأنني تزوجت من هذا المجتمع – يقصد المجتمع الإنجليزي".

ويحاول الطيب صالح أن يربط بصورة قد يكون فيها الكثير من المبالغة بين المناخ الاجتماعي في القرية السودانية .. ومثيله في لندن .. مع أن الاختلاف والتنافر بين المناخين واضح للغاية .. بيد أنه يذكر قائلا " بدأت استنشق مناخ الحرية في لندن .. وهذا ما تربيت عليه .. خاصة أن السنوات التي أمضيتها مع أهلي في مجتمع القرية ، كنت أحس خلالها بالحرية في أن أقول أو أفعل ما أشاء .. وفي لندن أعجبني مناخ الحرية والانفتاح .. ثم أنني عملت في هيئة الإذاعة البريطانية وهي مؤسسة منظمة جدا ".

غير أن تلك المؤسسة المنظمة جدا والتي ترقي بها إلي موقع رئيس قسم وهو بعمر التاسعة والعشرين .. غادرها نحو عمل آخر ليعمل مستشارا في اليونسكو، حيث استطاع من خلال عمله هذا أن يجوب مع زوجته الإنجليزية وبناته الصغيرات آنذاك عواصم العالم العربي .. غير أنه بقي مشدودا إلي ثلاثة منها هي القاهرة وبيروت والدوحة ، وعن هذا الإنشداد لتلك العواصم، يقول .. " أمضيت في قطر سبع سنوات وشكلت تلك الفترة محطة مهمة في حياتي .. عملت في الدوحة مديرا لوزارة الاعلام القطرية ، ثم مستشارا لوزير الاعلام بعد أن عينوا وكيلا قطريا للوزارة ".. ثم في مكان آخر يذكر .. " استفدت كثيرا في

قطر ، وأعتقد أن ذهابي اليها كان بمثابة مخرج لي .. لأنه حين عرض علي المنصب كنت بالفعل أحس بالملل في لندن والأمر كله - كما هي مسيرة حياتي - تم بالصدفة ..".

وعن القاهرة ومصر عموما .. يقول الطيب صالح : " ليست مصر بلدا آخر بل هي جزء من تكويننا ومزاجنا العام ، وكانت لي علاقات طيبة مع كثيرين في مصر من هؤلاء يوسف إدريس الذي نشأت بيننا علاقة أخوة طيبة، وكنت حين أجئ إلي القاهرة لابد أن أبحث عنه " ويواصل الروائي ذكرياته عن القاهرة ومصر ويسترجع أسماء أدباء وفنانين مصريين وغير مصريين عرفهم فيها .. حتي نلمس مدي قوة وتوثق العلاقة بين الطيب صالح وبين مصر الأرض .. والإنسان .. والإبداع.

وزيارات الأديب صالح لبيروت عديدة، وكانت أولها بعد عمله بإذاعة لندن بخمس سنوات حيث أوفدته الاذاعة عام ١٩٥٨ إلي مكتبها في العاصمة اللبنانية .. وكانت زيارته التي يتذكرها عام ١٩٨٠ لإلقاء محاضرة في الجامعة الأمريكية ببيروت .. عن علاقته مع هذه المدينة يصفها الطيب الصالح بأنها علاقة أثرت بوضوح علي مسيرته الأدبية .. أما اللبنانيون فيقول عنهم " أحببت اللبنانيين حبا خالصا .. وأعتقد أن الرأي الشائع الذي يقول إن اللبنانيين هاجسهم المصلحة المادية هو أفتراض محض .. اللبنانيون يميلون إلي التجارة والعمل والسياحة .. ولكنهم يمنحون خدمة مقابل ما يأخذونه ، وهذا شئ طبيعي .. ثم إن اللبناني قد يتعب النهار كله ويشقي ليكسب مالا ، لكنه علي استعداد أن ينفق كل ما كسبه في آخر الليل لإستضافة أحد أصدقائه أومعارفه.. ."

ثم في حديث آخر عندما يأتي ذكر لبنان يقول .. "المدهش أنني وجدت نقاط التقاء بين لبنان والسودان ، ورغم بعدهما الجغرافي .. هنالك أشياء كثيرة مشتركة ودون امبالغة يمكن أن أقول أن السودان ولبنان وجهان لعملة واحدة .. لقد في الشعر العامي اللبناني أوجه شبه مع زجل وأشعار قبيلة (الشايقية) في شمال السودان".

وكما يتحدث الروائي بحميمية عن المصريين من خلال القاهرة والقطريين من خلال الدوحة واللبنانيين من خلال بيروت فإنه يتحدث بالحميمية نفسها عن مدن عربية أخري .. شهدت أياما أو سنوات حاضنة له .. مثل مدينة (أصيلة) المغربية .." عرفت المغرب منذ زمن بعيد .. وكنت أزوره علي فترات متباعدة .. لكن علاقتي الحقيقية مع هذا البلد كانت عام ١٩٧٨ لقد سافر الطيب صالح في ذلك العام إلي المغرب ليشارك في مهرجان (أصيلة) الثقافي والتي صار فيما بعد يتردد عليها .. ومن بين ذكرياته عن المغرب يقول " رغم بعد المسافة بيننا وبين المغرب لاحظت أن هنالك أوجه شبه كثيرة مع السودان كانت الطرق الصوفية قد أوفدت الينا من المغرب وجاء علماء مغاربة أيام مملكة سنار في القرن الرابع عشر الميلادي ·· ثم إن تركيبة المغرب السكانية ، وكونه همزة وصل بين العرب وأفريقيا السوداء فانه يشبه في ذلك كثيرا الدور الذي يفترض أن يقوم به السودان.

وقد تراكمت لدي ذكريات جميلة في أصيلة ، لأن هذه البلده بدأت تخلق ميثولوجيا المكان .. فالمكان ينمو وتكون له صيرورة .. ليس فقط عن طريق الناس الذين مروا منه ، وحملوا صورته في خيالهم وذهبوا بها إلي جميع أنحاء العالم فقد جاء لأصيلة رسامون من اليابان وكتاب من أمريكا وشعراء من البرازيل

وأدباء من فرنسا ومبدعون من شتي بقاع العالم ، هؤلاء الناس حملوا صورا للمكان ورحلوا بها ووزعوها في العالم بأسره .. ثم هنالك الذين أحبوا المكان وماتوا فيه .. الموت أيضا يعمق فكرة الميثولوجيا .. ويخلق ميثولوجيا المكان .. واليوم .. وبعد تلك الحياة الحافلة التي عاشها الطيب صالح .. والتي وصفها يوما – حياة تمت بالصدفة – هل فكر هذا الكاتب بأن يدونها يوما .. لغاية هذا الوقت ليس هنالك ما يؤكد ذلك فالطيب صالح لم يكن في الماضي مندفعا لكتابة مذاكراته .. ولعل آخر ما اعلن عنه بهذا الشأن .. " لا أحس في هذه المرحلة من العمر أن حياتي تستحق أن أؤلف عنها كتابا، فالناس الذين ينشرون " السيرة الذاتية " هم رجال السياسة ، أما أنا فعابر سبيل علي باب الله .. حياتي عادية ليس فيها ما يستحق .. ".

وراء الطيب .. امرأة

غير أن هذه الحياة كان لوجود المرأة فيها ركن أساسي .. إذ بعد فترة قليلة من وجوده بانجلترا تزوج الأديب من امرأة أسكتلندية مازالت تشاركه حياته .. عن حياته معها يقول الأديب السوداني الكبير .. " تزوجت امرأة أسكتلندية لأنها شخصية أعجبتني وليس لأنها بيضاء .. أبدا .. فاللون المفضل عندي هو اللون العربي الأسمر .. وليس الأبيض .. أنا أحب اللون العربي الأسمر والشعر والعيون السوداء والصوت العربي الجميل .. لدي بناتي اللواتي أعتز بهن .. وأنا صديق لهن .. ابنتي الكبري أسمها زينب وأنا أبو زينب .. واخترت هذا الاسم لها لأن جدتي لأمي كان اسمها زينب .. وامي اسمها عائشة وأبي محمد .. واسمي الطيب وهذا الاسم من أسماء أبناء الرسول صلي الله عليه وسلم ، هو أبو القاسم ، وأبو الطيب وأبو الطاهر .. وأنا سعيد بالاسم وإن كان يحملني

مسئولية كبيرة فما أسهل أن يقال أنه لا طيب ولا صالح .. وسمتني والدتي بهذا الأسم رغم أن جدي كان يسمي كل أحفاده ولكن والدتي أصرت إصرارا شديدا أن تسميني الطيب ، وذكرت لي فيما بعد أن نبي الله (الخضر) بشرها وهي حامل بأنها ستلد ولدا وتسميه الطيب .. وهكذا تغلبت علي الجد .. إذ كانت امرأة قوية.

وكان فارق السن بيني وبينها قليل كنا نبدو كأخوين .. وقد توفيت عام ١٩٨٨ ولم أحضر وفاتها وكانت (خفيفة الدم) للغاية ولديها ذاكرة قوية جدا وتحفظ شعرا كثيرا .. شعر شعبي وشعر مدائح .. وأكيد أنني تأثرت بها وتعلمت منها ولقد أهديت لها ولأبي ولأختي وأخي كتاب (ضو البيت) .. أما بالنسبة لعلاقتي بأبي فقد كانت طيبة وبيننا صداقة ، وأدين له إيمانه بالتعليم في وقت كان لا أحد يحفل بالتعليم النظامي كانوا يعتبرونه تعليم الإنجليز ، ويفسد الأخلاق ، ولكني تعلمت أنا واخي وأبناء عمي وكل أهلي وكان أبي هو الذي أصر علي تعليمهم ".

ومن الجلّي أن الروائي يبتعد كثيراً عن التحدث في الجان،لكن النساء اللواتي ظهرن خلال أحداث الرواية التي عرف بها – موسم الهجرة إلي الشمال – قد يوحين للقارئ بأنهن شخصيات عرفهن الأديب عن قرب غير أن الطيب صالح يرفض ذلك بشدة .. " بطل الرواية مصطفي سعيد ليس هو أنا .. والنساء اللواتي في الرواية كلهن من وحي الخيال .. أنا لا أعرف واحدة اسمها – ايزابيلا سيمور – مثلا ، لكن لعلني صادفت ناسا يشبهونها ، ولو أنني أردت أن أكتب قصة حياتي لقلت " سيرة حياة " وليس عندي رغبة أن أكتب سيرة حياة .. ربما لو امتد بي العمر لكتبت هذا .. ".

وقد تكتب عن حياتك العاطفية خلال حياتك الأولي في السودان " أنا أكتب محظوظا في ذلك الوقت .. إذ كنت محاطا بحب كثير جدا .. حب جداتي لأبي وأمي وعماتي وخالاتي .. كنت محاطا بدفء شديد .. والمرأة الحبيبة الأولي أو غيرها فعلت معي ما فعلته بالكتابة مع الناس .. ولكن الكاتب بعد أن ينتهي من عمله بالكتابة يتحول إلي شخص عادي .. وأنا لم أحب من طرف واحد أبدا .. ولا أحتمل أن أكون هذا المحب ، وإذا لم أضمن أن الطرف الآخر يحبني أروح إلي حال سبيلي، وأسير في هذا علي نهج – عمر بن أبي ربيعة – الذي قال :

"سلام عليها ما أرادت سلامنا   وإن لن ترده ، فالسلام علي أخري "

وأرجو أن لا يحدث لي هذا علي كبر، وألا تكون مصيبة .. فكل تجاربي المحدودة كان الحب من طرفين .. لكني لا أحبذ الحب علي طريقة قيس وليلي لأنه في الغالب يكون فيه طرف لديه استعداد للتوهم والتعذب .. وأنا أفضل حبا بصيرا .. مأساة " عطيل " مثلا كان الحب فيها غبيا .. إذ يقول شكسبير علي لسان عطيل " أنا أحببت بغباء والمحب في الحب الغبي لا يعرف موطئ أقدامه "

لكن .. كيف يتفهم الروائي هذه الناحية من خلال بناته زينب وسارة وسميرة اللواتي عشن في مناخين مختلفين متناقضين .. إنجلترا .. والسودان يقول الطيب صالح " أنا صديق لهن .. لكن لم تبلغ العلاقة معهن أن تحكي لي واحدة عمن تحبه .. ربما لو سألتها لقالت، ولكن أنا لا أسأل لعل في داخلي بعض شخصية من الأب العربي المسلم.

ليست هنالك إشارات واضحة تبين أن هذا الأديب أولع بالكتابة منذ صغر سنه .. فحتي خلال فترة مراهقته وشبابه الأولي التي قضاها في السودان

ولغاية عام ١٩٥٣ لم توفر معطيات قوية تلمح لاهتماماته في فن الرواية أو الأدب بصورته الشمولية .. فيما عدا إهتمامه باللغة الإنجليزية التي أتقنها تماما وهو في الخرطوم .. وعلي ذلك فإن هنالك ما يؤكد بأن قلم الطيب صالح لم يكتب السطر الأول من قصصه ورواياته إلا بعد ما استقر بلندن .. ولم يحمل معه من الخرطوم أية قصاصة ورق تحمل قصة كان قد كتبها.

في عام ١٩٥٣ وفي لندن .. يكون هذا الروائي قد وصل لسن الخامسة والعشرين .. وعند هذا السن بدأت ولادته الحقيقية ككاتب .. وهنا لابد أن نتساءل : هل الحياة – حياته – التي تمت بالصدفة كما وصفها يوما يمكن أن يتطابق هذا الوصف مع الكتابة كذلك ؟ .. هذا السؤال نجد إجابته فيما قاله الأديب يوما .. " لم أرغب أن أكون كاتبا في يوم ما .. مثلما لم تكن لدي أية رغبة في نشر ما أكتبه .. وقبل أن أغادر السودان إلي لندن كنت قد كتبت محاولتين في القصة القصيرة ، أو شيئا من هذا القبيل ومزقتهما وانتهي الأمر عند ذلك الحد ".

وعن أول قصة قصيرة عرف بها الكاتب والتي سبق أن أشرنا إليها .. حيث كتبها بعد أشهر من وصوله للندن"عندما جئت لندن في فبراير/شباط ١٩٥٣ وجدتها تعيش تحت وطأة شتاء من أفظع الشتاءات التي عرفتها انجلترا .. كان بردا قارسا مازلت حين أتذكره تصطك أسناني .. وآنذاك بدأت ألوم نفسي لوما شديدا .. كنت أقول : لماذا جئت أصلا إلي هذا البلد .. وما هي المصيبة التي رمتني وساقتني اليه .. في تلك الفترة وتحت وطأة الحنين إلي أهلي وبلدي وعشيرتي كتبت قصة قصيرة أسميتها (نخلة علي الجدول) كان ذلك عام ١٩٥٣ ونشرت في وقت لاحق ضمن المجموعة القصصية " دومة ود حامد" إنها قصة بسيطة كتبتها ببساطة شديدة جدا .. والآن حين أعود إلي قراءتها أدرك إلي أي

مدي كنت تحت تأثير حنين جارف إلي وطني .. كانت القصة تعبيرا عن حنين للبيئة ومحاولة لإستحضار تلك البيئة .. ولقد اطلع علي القصة (معاوية الدرهلي) وهو أحد أصدقائي الفلسطينيين فأعجبته كثيرا، وأذاعها من إذاعة لندن، ثم نشرت في وقت لاحق .. بعض الإنجليز أعجبتهم تلك القصة وقالوا لي – أنت كاتب – ودهشت لذلك، بل إن دهشتي إزدادت حين قال لي معاوية الدرهلي إن أسلوبي فيه ملامح من أسلوب (جيمس جويس) وبدا لي أن هذا كلام كبير جدا".

إذن فان الانتماء إلي الكتابة القصصية لدي الطيب صالح لم يكن في بادئ الأمر انتماءً محسوما وقويا وقصته القصيرة التي عرف بها لأول مرة بقيت وحيدة وشبه يتيمة ولم يلحقها بأي نتاج آخر بعد مرور سنوات عديدة .. وهذا يعني أن الإهتمام الإبداعي الأدبي بمجال القصة كان أمرا ثانويا في حياة الكاتب .. بل إنه لم يتحمس حتي علي نشر كتاباته في مجلات أو صحف تصدر في العالم العربي ولم يؤكد علاقاته مع أي من الأدباء إلا في فترة متأخرة.

(٣)

الكتابة تصبح أصعب عندما يكون

الواقع أغرب مما يتخيله الكاتب

– الشهرة زائفة والنجومية وهم !

– "نوبل" لن تفكر في أديب حياته غير مثيرة.

– المجتمعات العربية قائمة علي الصراعات والتاريخ الدموي.

– أحياناً .. أشعر أن البشرية تائهة وأنا تائة معها!

العبـور مـن محطـة إلـي أخـري مـع الطيـب صـالح يصـيبك بالدهشة .. هو شخص عادي –كما يصف نفسه– وولوجه إلـي عـالم الكتابـة لـم يكـن بغـرض الكتابـة لكنهـا الوسـيلة المثلـي للتعبيـر.. لكـن مـا الـذي يريـد أن يعبـر عنـه هـذا "الأسطوري" الذي يعترف بأن حياته تصنعها الصدفة، وأنه ككاتب يعاني نوعاً من الإنفصام ..

ها أنا قد عبرت معه من محطة البداية بعد رحلته من السودان إلي لندن، ومن الخاص إلي العام فإذا به يعود إلي محطته الأولي السودان .. وإذا بي أعود إلي صورة الصوفي الزاهد التي رسخت عنه في نفسي، فأجدني أكثر عطشاً من ذي قبل أريد أن أقف علي جدوله وأنتظر تمر نخلته، فأجمع "حفنة تمر" وأضعها علي مائدة أوراقي وأقول له..

وماذا بعد أول قصة كتبها فيقول: بعد "نخلة علي الجدول" بسبع سنوات كتبت قصة قصيرة أخري أسميتها "حفنة تمر" ثم كتبت "دومة ود حامد"، نشرت في مجلة كانت تصدر بلندن اسمها "أصوات" يحررها المستشرق الإنجليزي دينيس جونسون ديفيس مع الصديق المصري الراحل - ادقار فرج - وبادر جونسون ديفيس إلي ترجمة -دومة ود حامد- إلي الانجليزية وأرسلها إلي مجلة شهيرة وكانت أكبر مجلة أدبية تصدر في بريطانيا في تلك الفترة .. ولشدة دهشتي قبلت المجلة القصة ونشرتها.

إن أي متفحص للمراحل التي مرت بها تجربة الكتابة للطيب صالح سيلمس بسهولة أن هذا الكاتب لم يكن يرسم لنفسه يوما المنزلة الأدبية والابداعية التي يتربع عليها اليوم .. إذ كانت الملامح الأولي لهذه التجربة لا تمثل بالنسبة إليه إلا هواية ولعبة أدبية استهوتها نفسه، وشجعت لها إطراءات المقربين اليه، العاملين خاصة بإذاعة لندن .. وإذا ما كان واحد من هؤلاء الأصدقاء المقربين اليه يلح عليه بمواصلة الكتابة .. فإن جواب الطيب صالح لا يأتي إلا متعجبا للطلب .. بمواصلة الكتابة .. يعني أن أتحول إلي كاتب .. ؟ هذه مزحة .. لقد كتبت ما عندي وخلاص .. ! تلك كانت الإجابة التي يمكن أن تمثل

بعد المسافة الفاصلة في أن تكون الكتابة هما وانتماءً له .. أولا تكون .. ليتعامل معها كأمر ثانوي وعن بعد.

ولكن .. متي بدأ هذا الروائي يقف حقيقة عند البداية الجادة للإحتراف الأدبي ؟ .. وما هي العوامل التي ساعدت علي أن يستمر في الكتابة ويقدم إبداعاته هنا وهناك؟.. إنها في الواقع عدة مؤثرات وعوامل، منها ما يتعلق بشخصية الكاتب نفسه .. وأخري تتعلق بالفترة التاريخية التي ظهرت بها تلك الكتابات.

في عام ١٩٦٤ نشر روايته الأولي – عرس الزين – والتي كان قد كتبها قبل هذا التاريخ بسنوات .. ولم تحظ هذه الرواية بالاهتمام الذي حدث بالنسبة لروايته الثانية التي جلبت له كل الشهرة دفعة واحدة .. حصل هذا عام ١٩٦٦ حينما نشر رواية (موسم الهجرة إلي الشمال) في مجلة حوار اللبنانية التي كان يرأس تحريرها الشاعر الفلسطيني توفيق صائغ .. في ذات الوقت كانت هذه الرواية قد صدرت في لندن مترجمة من قبل أحد زملاء الكاتب العاملين في هيئة الإذاعة البريطانية .. ومن المحتم أن هذه الانجازات الأدبية التي حصلت ما بين عامي ١٩٦٤-١٩٦٦ قد حثت وشجعت الأديب للمضي في التجربة، هذا بعد أن لاقت الرواية الثانية صدي واسعا من قبل القراء والنقاد .. وأصبحت الأضواء تتركز علي شخصية الطيب صالح .. الأديب.

ويروي الطيب واحدة من صور الإهتمام المدهشة والجديدة التي واجهها من قبل القراء والنقاد خلال تلك الأعوام "زرت جامعة أكسفورد، وكان لي منها بعض الأصدقاء، منهم الأخوان حسن بشير وكرار أحمد كرار، وهناك التقيت واحدة من علماء إحدي كليات أكسفورد اسمها سانت أنتوني إنكونتر قد نشرت في العدد نفسه الذي نشرت فيه (دومة ود حامد) قصة للكاتب

الأمريكي نورمان ميلر، وهو من أشهر الكتاب في أمريكا .. وأثناء تناولنا وجبة الغذاء قال لي أحد الأساتذة.

هل تعلم أن نورمان ميلر يمكن أن يتعلم منك .. صعقت حين سمعت هذا التعليق .. وتساءلت "يتعلم مني أنا".. !.. فأجاب بالإيجاب، وراح يتحدث عن مميزات القصة .. وقال إنها قصة كلاسيكية فيها بساطة شديدة وجوانب فنية غير مطروقة" تلك واحدة من صور عديدة جعلت وساهمت مثلما ساهم الكثير من العوامل والأسباب لأن ينظر الطيب صالح نظرة أكثر حميمية وقربا وانتماء إلي عملية الكتابة .. ففاز بآراء نقدية جادة ومهمة .. فقبل ٥٢ عاما تقريبا صار اسم الطيب صالح ذائع الصيت في دنيا الرواية العربية.. ووصفه الناقد (رجاء النقاش) وبوقت مبكر .. الطيب صالح في الرواية شاعر كبير.. أدواته الفنية في منتهي الطاعة لرؤاه الفنية الفياضة .. وأدبه نموذجا للحوار الفصيح الذي يحمل الكثير من الروح الشعبية.."

السودان أولا

البيئة الشعبية السودانية هي العالم الوحيد الذي تدور فيه كل أجواء رواياته وقصصه القصيرة التي كتبها .. وحتي اذا ما كتبت عن مكان آخر غير السودان، فان ذلك المكان يأتي موظفا للبيئة الأصل .. وهي واحدة من أهم العوامل التي ساعدت علي صنع هذا الأديب .. فإذا ما كنا قد عرفنا تأثير البيئة السودانية علي كتابات الطيب صالح فما هو تأثير الأماكن الأخري غير السودانية علي الكاتب .. يقول: "إنني لم أهتم بالكتابة عن البيئات الأخري إلا بشكل محدد جدا، ولذلك كان اهتمامي بالبيئة السودانية .. وحتي الأفكار التي أكتبها عن بيئات أخري أجلبها إلي هذه البيئة وأغرسها فيها .. ثم أراقب ماذا يمكن أن

تفعل .. ولعل في شخصيتي الكتابية – لا شخصيتي كإنسان – نوعا من الانفصام هنالك جانب في " عرس الزين " أقرب إلي طبيعتي .. أحيانا أكتب روايات ليس فيها توتر، والعالم فيها متجانس وليس فيه صراعات عنيفة .. ثم هنالك جانب آخر هو عالم " موسم الهجرة " وهو العالم المكتسب من التعليم والسفر والعيش في بيئات غريبة ومعاناة الشتاء القاسي في لندن والدخول في أزمات مع النفس .. ومعايشة أقوام غرباء .. فأكتب عندها علي غرار "موسم الهجرة".. ولعلي في روايتي "ضو البيت" و "مريود " خلطت بين الشخصيتين فثمة جانب عنيف تمثله أسطورة بندرشاه وعلي السطح هنالك القرية بل هنالك أشخاص "عرس الزين" وامتدادهم محجوب وعبد الحفيظ والطيب يعيشون علي السطح .. ويستطيع الواحد منا القول أننا في العالم العربي كله نعيش في مجتمعات قائمة علي أعماق من الصراعات والتاريخ الدموي.

مشهد من رواية بندرشاه

بقيت الثقافة والبيئة السودانية بخصوصيتها المتوارثة من جيل لجيل هي مكان وزمان الكتابة .. حتي بدت كتابات الطيب صالح عبارة عن إعادة وحفظ لتلك الميثولوجيا .. والفلكور الإجتماعي .. مفيدا له ومستفيدا منه .. ولنلاحظ الإستفادة التي أخذت منها رواية (بندرشاه) من الفلكورالسوداني، حيث جعل الأديب الشخصية التقليدية السودانية تتحرك وتعيش في روايته دون تدخل منه ودون قمعها تحت تأثير ذاتية المزاج أو لغة الكتابة .. بل إن الكتابة تأتي أحيانا باللهجة السودانية.

"قعدنا علي الحالة دي أسبوع عند بندرشاه .. حكيت لهم حكاية الشطة، وقت جروحنا بردت أنا ومختار .. رجعنا للحلوة .. مختار بطل الافتراء،

وأنا من يومها ما قاشطت جنس مخلوق .. ونحن الأربعة بندرشاه، وجدك، ومختار، وأنا، بقينا أصحاب أي كأننا اخوان أشقاء ما يفرق بيننا إلا الموت"
قلت لسعيد الذي كان قبلا يلقب بسعيد البوم: "قالوا سموك سعيد عشا البايتات ضحك ضحكته البريئة التي أذكرها من أيام طفولتي في ود حامد وقال بلهجته البدوية.. "الوليه فطومه أجارك الله، وقت العرقي يشلع في راسها تطلع الكلام خارم بارم

قلت له ..

- وكمان فطومة غنت في عرسك

قال ..

- يامحيمين أخوي .. في هادي الأيام الفلوس موتجيب الهوا من فروته ..

قلت له ..

- فطومة شن قالت فيك .. ؟

فقال فخورا وهو يبرم شاربه الصغير الذي يجلس قلقا علي فمه كما تجلس العمامة المفرطة الكبري علي رأسه

- يازول فطومة تطير عيشتها .. هو لكن غنا فصاح

- يازول العرس الماغنت فيه فطومه أصلا ما يقولوا عليه عرس "

وأعدت عليه السؤال، فقال:

- علي الحرام، أخوك عرس عرسا خلي ناس ها البلده تنسي عرس الزين .. أسأل أيا من كان يقول بك العرس عرس سعيد والا بلاش"

عرس الزين كان أعجوبة .. أما أن سعيد اليوم يصبح صهرا للناظر بجلالة قدره، فهذه هي المعجزة .. وقال سعيد .. "عليك أمان الله، ما لقينا محل نحشرها .. قبايل قبايل .. كل قبيلة تساوي الشئ العلاني .. عملنا العقد في

الجامع الإمام قال للرجالة كل واحد يشوف ويسمع سعيد راجل حبابة.. ما في انسان يقول سعيد اليوم" .. تلك الشخصيات وتلك الأجواء حاضرة أبدا في روايات وقصص الطيب صالح .. ويبدو أنها دائما مُستلة من واقع اجتماعي سوداني لم تدخل اليه السياسة بعد ·· ولم تجعله فيما بعد واقعا إجتماعيا قلقا كما هو عليه اليوم بفضل التناحرات السياسية أو المعاناة الإقتصادية والمعيشية التي يعاني منها الإنسان السوداني.

عن هذا الواقع المتغّير .. يقول الطيب صالح وهو يتحدث عن أجواء رواياته في حقبات ما قبل امتداد أصابع السياسة إلي لوحة المجتمع في السودان.. "حين كتبت هذه الروايات كان السودان -نسبيا- مستقرا، ولم يكن قد دخل في هذه الصراعات الدامية .. وربما هذا جزء من عرقلة الكتابة.. فهي تغدو أصعب حين يصبح الواقع أغرب مما يمكن أن يتخيله الكاتب. هذا هو الأمر عندما يتذكر المرءِ إعدام النميري لعبد الخالق محجوب والشفيع ثم شنقه محمود محمد طه أو يتذكر إعدام هذا النظام حوالي ثمانية وعشرين ضابطا في أواخر شهر رمضان .. وأنا وصفت في "ضو البيت" الجلد والتعذيب قبل أن يحدث ذلك في السودان .. كنت أحس ذلك خيالا .. ولكنه حدث فعلا .. بيوت أشباح وتعذيب وبلاء .. هذه الأمور أحيانا تعرقل الخيال أو تعكره .. ما حدث في الجنوب مأساة كبري جدا إذ أبيدت قري كاملة·· أنا أنتمي إلي الشمال ولكن علينا أن نقر بأنه وقع ظلم كبير جدا علي الجنوبيين في حرب أدارها زعماء سياسيون"

قبل أن يظهر اسم هذا الروائي، ليحضر بكل قوة وتفرد في الساحة الأدبية العربية منذ منتصف الستينات، لم يكن يعرف القارئ كاتبا سودانيا كان قد حقق من قبل ما حققه الطيب صالح علي مستوي العملية الإبداعية والانتشار

مع أنه يعتبر كاتبا ليس غزير الانتاج .. فما السر الذي يراه هذا الكاتب بالنسبة لاهتمام القارئ بنتاجاته .. ؟

"عندما أكتب شيئاً، أحب أن يكتشف فيه القارئ متعة مختلفة ،يكتشف عالما جديدا" ..

لكن الأقلال في الكتابة كيف يفسره ؟

يقول عن ذلك " ليس عندي هذا الهوس بالكتابة كما لدي بعض الكتاب، فإذا كتبت فليكن، وإن لم أكتب فلا أظن أن الناس قد خسروا كثيراً، فأنا لا أؤمن بالكثرة في الإنتاج، إذ ليس ضروريا أن أخرج كل سنة كتابا .. بل الكتابة تأتي حين يكون الكاتب قد نضج تماما، وما عنده لا يمكن حبسه أي كما يقول العرب -بلغ السيل الزبي- وكثيرا ما أجد اناسا كتبوا أشياء رائعة في العالم فأتساءل: ماذا بوسعي أن أضيف إلي كل هذا .. بل ما معني أن أكتب رواية كل شهر ليس لها مضمون ذو بال .. كما أنني حقيقة، لا أحس بهذه الرغبة الحادة في الكتابة، غير أني أستمتع بأشياء أخري ذلك أن عالم الإبداع يلتهم الحياة ، فحين نقرأ سيرة الكاتب " بلزاك " مثلا ، نجد أن هذا الرجل أفني عمره ليكتب فالتهم الفن حياته .. وقد تأسف علي ذلك في آخر سنوات عمره .. ".

هل هذا يعني الإعتراف صراحة بأن الطيب صالح آسف علي ذلك الزمن الذي التهم من حياته وأنفقه علي الكتابة .. ؟ ثم ما هي الحياة التي يتمناها ويرنو لها من بعيد ليعيشها ..

يضيف الكاتب .. "أريد أن أوازن بين الحياة وبين الفن حتي لا يلتهم أحدهما الآخر، ولعلي أميل إلي الحياة مني إلي هذا العالم الموهوم الذي أسمه الفن .. لذلك فأني أستمتع بالقراءة وبمقابلة الناس وبالسفر" هل هذا معناه محاولة

للهروب من ضريبة الشهرة التي يجلبها الإبداع علي الكاتب .. ؟ يجيب عن ذلك بالقول .."في الحقيقة أن الشهرة شئ زائف ووقتي والنجومية وهم .. والشئ الأهم وهو الأمر العادي الذي ينتج عن هذا الجهد الذي يبذله الكاتب العربي لا يحصل عليه .. فلو كنت كاتبا انجليزيا لحصلت علي تقدير مادي، وكتاب مثلي يعيشون في بحبوحة من العيش لدي الإنجليز والفرنسيين أما نحن العرب فمساكين لا نجد سوي بعض الحفاوة ونحمد الله علي ذلك .. والشعوب التي تهتم بالكاتب بحكم توجهها الحضاري أعطت للإبداع سواء كان كتابة أو موسيقي أو رسم ، وظيفة في المجتمع ، وأي مجتمع لا يمكن أن يكون متحضرا بدون الإبداع لأنه في نهاية الأمر لا يبقي سوي الفن والثقافة.. فالأمة التي تريد أن تصنع حضارة لابد أن تحتفي بالثقافة والفن، ونحن أهملنا هذا، ربما لظروف فرضت علينا لأننا ظللنا قرونا عديدة وطويلة لا ننتج شيئا".

جوابك هذا يعني أن الأديب والمبدع العربي بأقصي حاجة إلي رعاية.. ولعل تكريمه بجائزة ما عالمية سيكون لها أبلغ الأثر عليه. كما حصل مع الروائي نجيب محفوظ .." فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل كان فوزا بينا، وهو رجل يستحق هذه الجائزة بكل المقاييس ولقد قلت ذلك قبل سنوات.. ويوجد شعراء وكتاب عرب عديدون يستحقون هذه الجائزة، وأنا شخصيا لا أريد أن أشغل نفسي بالجوائز .. جائزة العويس .. جائزة البابطين وغيرها من الجوائز .. ولو ظل الإنسان يفكر في هذه الجوائز فلن ينتهي إلي وضع يستريح له .. والأديب يفعل ما يستطيع تحقيقا لنوازع هي أهم من الجوائز.

أما بالنسبة لجائزة نوبل فالله وحده يعلم ، هل سيعطونها لعربي في المستقبل القريب .. ؟ لكن لابد أن نتذكر أن نوبل جائزة أوروبية .. وهم أحرار في منحها لمن يريدون .. وأري أن الرد علي السخط العربي بأن كتابنا مهمشون

من قبل جائزة نوبل هو إنشاء جائزة عربية تعطي علي غرار جائزة نوبل .. ونحن كعرب لاينقصنا المال .. إلي درجة أن لدينا أثرياء عرب يستطيع الواحد منهم إنشاء مثل جائزة نوبل .. فنحن نسمع أحيانا أن (فلان) لديه كذا مليار دولار "طيب يعمل أيه في هذه المليارات" فلو خصص منها علي سبيل المثال ٥٠٠ مليون دولار، وتمنح هذه الجائزة لمن يكتب أحسن بحث عن جزئية معينة من الحضارة العربية والثقافة العربية.

وبهذا نكون مساهمين في الحوار الدائر ولسنا متعلقين .. فنحن دائما مستهلكون، نقف متفرجين إلي أن تأتينا السلعة الأجنبية من الخارج .. فجائزة نوبل أنشأها فاعل خير سويدي اسمه –نوبل– صنع الديناميت والقنابل، وتحت أحساس وخز الضمير قال: نخصص جائزة للعلوم والآداب تمنح للمتفوقين سنويا في العالم ، ولكن موقفنا من هذه الجائزة سلبي .. ولابد إذن من انشاء جائزة عربية كبري بديلة لها وعلي الإعلام العربي أن يتولي الدعوة لها.. ومع أن الطيب صالح تحدث عن جائزة نوبل بشئ من التهكم .. إلا أن هنالك أقوالاً ترددت حول سعيه لنيل هذه الجائزة .. وبهدوئه وتواضعه المعتاد يرد الروائي السوداني علي تلك الأقوال ..

"لم أسع إلي جائزة نوبل، ولم أفكر فيها علي الإطلاق .. وأنا أولاً لا أملك الإنتاج الأدبي الكافي لتأهيلي إلي نيل هذه الجائزة ثم أني لا أعتبرها شيئا متغيرا في تاريخ الأدب ولا شيئا قادرا علي تضخم الكاتب الذي يحصل عليها سوي في الأيام الأولي للإعلان عن الفوز بها .. ثم ينتهي كل شئ وتدور عجلة الحياة .. وعموما الجوائز لا تصنع أديبا، ثم إن جائزة نوبل ليست كل شئ في حياة الأدباء الذين يحبون الأدب والحياة والجمال .. هذه الجائزة كمن سعي إلي السراب لا لأنها ليست مهمة، بل لأنها تسند لأسماء قد لا يتوقعها أحد

ولأسباب كثيرة .. ثم إن جائزة نوبل لن تفكر في الطيب صالح لأن حياته غير مثيرة وكتبه غير كثيرة ".

المتعة والإمتاع

– قلت: طالما أن المتعة الحقيقية لكاتب مثل الطيب صالح تأتي في التعبير عما به، ولا يبغي الشهرة ولكنه مندهش من الواقع عندما يصبح أغرب من الخيال، فيا تري ما الذي يمتع الطيب صالح وهو يبدع؟

يقول: أحب صوت فيروز وأنا أكتب، ولا أعرف لماذا، أم كلثوم يحتاج صوتها إلي تهيؤ واستعداد، لكن صوت فيروز يثير في أشياء كثيرة، أحب المقام العراقي المليء بالشجن، وأحب كثيراً من الغناء السوداني الخصب، ويحضرني أحمد المصطفي، وعبد الكريم الكابلي، وحسن عطية، وعثمان حسين، هؤلاء أحملهم معي من الوطن، هذه هدايا منقولة من الوطن، عندنا مطربة اسمها حنان النيل، صوتها جميل، وهادية طلسم، وعندنا شاعر من منطقتنا اسمه عبد الله محمد أحمد، وشاعرنا السوداني المعروف سيدي أحمد الحردك· وأسمع موسيقي عالمية، أحب الجاز، وأحب أناشيد المديح، مديح الرسول في شمال السودان، وأحببت موسيقي البيتلز في غناء الأوروبيين.

– قلت: تشربت بالثقافة من هنا وهناك حتي أنك تري أن الكتابة في بعض جوانبها تماثل عمل علماء الانتربولوجيا والآثار.. فكيف يكون ذلك؟··
قال: هؤلاء يحفرون طبقات الأرض فيجدون أحياناً بعض التحف أو الصخور الدالة علي حضارة معينة، وأحياناً بعض الحلي، وهم في ذلك مثل الروائيين والمؤرخين، لأن مايقولونه لا أحد يستطيع إثباته لأنه دخل في بحر الزمان، وأنا

شخصياً لا أشعر بأنني غريباً عن هؤلاء الناس، علي الرغم من أنهم قد يستعملون عبارات تبدو محددة، لكنهم بالضبط مثل الروائيين.

وفي اعتقادي أن الكاتب أو الروائي "أركيلوجي" بشكل مختلف .. الكاتب ينظر إلي مايسمي بالواقع، ولكن حين نفكر فيه بعمق لا يوجد واقع، من الناحية الفلسفية لا يوجد واقع، هناك حلم، كما يقول شكسبير، إذا نظرت إليه من الناحية التاريخية، وهو ليس ثابتاً· حتي الأشياء التي تحدث قبل أسبوع نجد الناس ينظرون إليها بشكل مختلف، ويحكونها بكيفية مختلفة، وكل واحد يعيد صياغتها بنفسه، وأنا شخصياً لم أسع مطلقاً أن أصنع واقعاً لأني لا أعرف ماهو هذا الواقع .. وأقول في السياق نفسه: إن الذاكرة تلعب كثيراً بالإنسان، وبالنسبة لي حيث أتذكر واقعة ما، فإنني لاأعرف علي وجه الدقة هل ما تذكرته يناسبني في الكتابة؟ .. لذلك تجدني دائماً أقول إنني أعتمد أنصاف الحقائق، والأحداث التي يكون جزء منها صحيحاً والآخر مبهماً، وهذا يلائمني تماماً، بمعني آخر قد تكفيني جملة سمعتها عرضاً في الشارع لأستوحي منها فكرة للكتابة، وليس بالضرورة أن أجلس مع صاحب الجملة لأستمع إلي قصته كاملة، هذا لايهمني ولكن يكفيني جملة واحدة أسمعها في الطريق فتثير في نفسي أصداء لاحدود لها قد لايفهم القارئ أبعاد ما تكتبه خصوصاً حين تكيف ما تسمعه لكي يتناسب وطريقتك في الكتابة، لذلك أعتقد أن كثيرين أستوعبوا وفهموا ماكتبت، وفي المقابل ربما هناك كثيرون لم يفهموا ما كتبت، وهذا شئ طبيعي، ومجمل القول إن كل صناعة لها آفات، والأدب كذلك، الحداد مثلاً علي رغم أنه يتعامل مع النار صباح مساءً قد تطير شرارة صغيرة وتحرقه، الزراعة لها آفات لذلك يستعمل المزارعون لفظ "آفة" حيث يتحدثون عن أمراض القمح أو القطن، والكتابة خصوصاً في هذا العصر وفي عالمنا العربي مليئة بالآفات، والذي

يطرح أفكاره علي الناس علناً عليه أن يتحمل تبعات ذلك، لذا لا يزعجني أحياناً حين يسألني بعض الناس هل مصطفي السعيد يشكل جزءاً من سيرتي الذاتية؟ وهو مايذكرني بالواقعة التي تقول أن أبو تمام عندما أستهل إحدي قصائده المشهورة بالضمير، واستعمل كلمة "هن" في أول البيت، قال له أحدهم "لماذا لا تقول مايفهم" فرد أبو تمام "ولماذا لاتفهم مايقال"؟ .. والأمثلة متعددة .. إذن الناس أحرار فيما يسمعون ويقرأون، وحدث أكثر من مرة أن ألتقي أناساً يتحدثون عن رواية وهم لايعرفون حتي عنوانها .. لكنهم أحرار، ويبدو لي أحياناً أن البشرية تائهة، وأنا تائه معها .. لذلك لا أطالب الناس أن تفهمني كما أريد .. الكاتب نفسه أحيانا لايعرف ماذا يقول وماذا يكتب.

سيرة ذاتية

– قلت للطيب صالح: صرحت مراراً بأن ليس في حياتك مايمكن كتابته أو طرحه كسيرة ذاتية .. فلماذا غيرت رأيك وتحدثت لتخرج سيرتك الذاتية في كتاب؟

قال: لآخر قطرة من حياتي أقول: "ليس لدي ماأقوله"، وما حدث في السيرة الذاتية التي نقلها عني الأديب "طلحة جبريل" هو قراءة لسيرة إنسان .. وأنا أفهم الآن مايسمي بتواصل الإنسان مع بيئته ومع الناس، فقد عشت في بيئة صنعها أجدادنا، شرب جدي من لبن البقرة وشربت أنا من سلالتها من بعد، وحتي الحمير كنا نعرف من أين جاءت كأنها بني آدم، كنا نعرف تاريخ كل نخلة علي حدة، كل شئ كان متصلاً ومتناسقاً، كان هناك "هارموني" بين الإنسان وبيئته،وحين يتحدث علماء البيئة حالياً عن المدن الحديثة، أدرك تماماً مايقصدونه، لأن الإنسان في هذه المدن عبارة عن خلية أخذت من بيئة أخري،

وزرعت في هذه المدن، وعندما تركت قريتي وسافرت إلي لندن ساورني طويلاً هذا الإحساس، الإحساس بأنني خلية زرعت في مدينة كبيرة زراعة اصطناعية، لذلك لم أحس إطلاقاً بالراحة النفسية التي كنت أحس بها في قريتي.

وهذا الحنين الجارف إلي الجذور يتكرر في أكثر من موضع من سيرة الطيب صالح، وهذا الحنين وحده كان دافعه إلي الإبداع، وهو لم يعتبر نفسه أبداً مبدعاً علي مستوي الإحتراف، وإلي ماقبل مغادرته السودان إلي لندن في عام١٩٥٣م، لم يكن كتب سوي محاولتين قصصيتين، مزقهما، وأنتهي الأمر عند هذا الحد.

يقول الطيب صالح إنه لايعتبر نفسه جزءاً من الحركة الأدبية، ولديه رغبة حقيقية في عدم الإلتزام بالأدب ويقول:لاأقترب أبداً مما يسمي بالصالونات الأدبية أو اتحادات الأدباء .. أنا شخص علي الهامش، وهذا الوضع يريحني كثيراً.

والذين يعرفون الطيب صالح يلمسون عزوفه عن الشهرة، ونفوره من التنظير والإدعاء، ورغم أنه كان من الممكن أن يستغل شهرته ويقبل علي انتاج أعمال كثيرة يفوز من ورائها بشهرة أكبر وربح مادي أوفر إلا أنه رغم تقدمه في العمر ورغم تجربته الموسوعية في الحياة يري أن الشهرة شئ زائف والنجومية وهم ويقول أيضاً: لم أكثر يوماً من الانتاج .. أنا مقل لأني أشتغل في عمل أكسب منه، ولكن الناس ينسون أحياناً أن الكاتب يعيش في الدنيا أيضاً، أنا أختلف في هذه الجهة عن ميخائيل نعيمة الذي كان يعيش في أعالي "بسكنتا" في جبل "حنين" والذي كان خالياً من أية مسئوليات عائلية .. زرته يوماً في منزله، وقلت له "ليتني كنت في وضعك، وليس عندي عائلة وإلتزامات"٠٠ الكتابة ليست هي كل حياتي، وقد ذكرت مرة أنني أراوغ في عملية العلاقة مع الفن لأن الفن يلتهم

الحياة .. يأكلها .. هناك من يقبل هذا المصير، ولا يفعل شيئاً سوي الرسم أو الكتابة أو نظم الشعر.. "أنا مش عاوز المصير ده".. وأرجو بالطبع ألا يكون النبع قد جف عندي، ولكن ماينقصني هو توفر الوقت، فالوقت في الحياة قصير جداً.

- قلت للطيب الصالح أليست الكتابة عملاً يومياً؟

قال: لا لأن الأفكار تدور في ذهني .. ونوع الكتابة التي أقدمها تستلزم أن تتفاعل مع العمل وتبقي في المخيلة مدة طويلة.

- يثار جدل حول مسألة زمن القصة القصيرة وزمن الشعر وهي أسئلة مستهلكة وأنت كالعادة تقرأ كل ماهو مستهلك وكل ما هو معلق .. لكن هل تعتقد أن رواية واحد جيدة في هذا الزمن تستطيع أن تصنع كاتباً؟

نعم .. في تاريخ الأدب، توجد أعمال منفردة صنعت كتاباً، وحين نستعرض الشعر العربي مثلاً نجد شاعراً لم يقل إلا بيتين، ولكن هذين البيتين بقيا يترددان، علي مر العصور، إذن فالكثرة ليست محاكاً، وإذا كانت كثرة مع جودة فهذا يكون شئ جيد .. لكن نادراً ماتكون الكثرة فيها جودة .. وهناك كتاب مقلون وكتبوا أشياءً عظيمة مازالت موجودة حتي اليوم.

- عندما صدرت مجموعة يوسف إدريس مثلاً "أرخص ليالي" أثارت ضجة، وفي الطبعة الثانية كتب لها المقدمة د. طه حسين .. الوقت وسط الانتشار الإعلامي ووسائل الاتصال ورغم ذلك إلا أنه من الصعب جداً أن مجموعة قصصية أو عمل واحد تستطيع أن تقدم كاتباً؟

هذه القضية، قضية مفتعلة كلها، لأن القارئ لايقرأ كل شئ- حتي ولو كان قليلاً لأي كاتب، وهناك روائع عندنا قد نكرها الناس، من قبل، وكأنهم

يريدون توجيه اللوم للكاتب دائماً، وأنا أنظر للأشياء دائماً علي أنها مترابطة، فغير مهم أن يكون الكاتب كبيراً ولكن المهم أن تخلق مجموعة من الأصوات تتفاعل في جيل أو جيلين لتخلق شيئاً جديداً وجيد، ولو لم يكتب يوسف إدريس إلا "أرخص ليالي" لكان من الممكن أن يشهد الناس لعمله هذا بأنه عمل جيد، ولكن من حسن الحظ انه كتب أكثر من ذلك، فالضغط علي الكاتب بأن ينتج باستمرار ليس مهماً، ويمكن الاستمرار في الكتابة في حالة واحدة فقط وهي إذا كانت حياته مرتبطة بالكتابة فمثلاً، تشارلز ديكنز عند الإنجليز أو بانزاك كان يكتب كثيراً لأنه يريد أن يكسب، وكان يقدم الرواية مسلسلة للصحيفة ليكسب منها لأنه إذا لم يفعل ذلك فقد يموت من الجوع، وهذا هو المبرر الوحيد، وغير ذلك لايوجد أي مبرر للضغط علي الكاتب كي ينتج، فإذا قارنت بين ابراهيم عبد القادر المازني وبين طه حسين ستجد أن د. طه حسين أنتج عدداً من الأعمال ذات مستوي عالٍ جداً، ولكن المازني علي قلة ماكتب ترك أدباً علي مستوي عالٍ.

- إذن فليست المسألة مسألة نجومية؟

هناك أناس يحبون النجومية، ولكن هذا ليس له صلة بعملية الإبداع.

(٤)

السياسة "مفسدة" تقتل الإبداع

- في " بندر شاه " تتضامن السياسة مع الإبداع من أجل الإنسان !.
- أكتب مثل عالم أثري يرسم خريطة فنية للمكان.
- الإنسان العربي يعيش علي أنقاض المدن الحضارية القديمة !.



كلّما أوغلت في الحوار معه .. انسحبت الأسئلة، واتسعت الإجابات ، وفي نفس الوقت الذي ينسحب فيه الطيب صالح من الحوار وتتقلص كلماته لتصبح مجرد إشعاع نوراني أو" حضرة صوفية " تختزل العالم .. في هذا الوقت تبرق الدلالة وتزداد الاحتمالات فتصير الإجابات غير شافية، ويصبح المحاور في شوق شديد إلي الارتواء لكن الصوفي الزاهد يخشي علي المحب فلا يمنحه سوي قطرة ..

إنه يذكرنا دائماً برواياته التي تأخذنا من السطح إلي العمق .. من الواقع إلي الميتافيزيقا .. ثم تتركنا هنا .. أو هناك .. معلقين بين السماء والأرض .. بين

الأرض والناس .. الناس تتشبث بالحلم ·· والحلم هو أقرب لحظات اللاوعي وأكثرها صدقاً ..والصدق – للأسف الشديد – تفسده السياسة.

يقول الطيب صالح: " في قناعتي أن الإبداع الروائي أشمل وأعمق من السياسة .. إنه يحتوي السياسة حتي لو لم يرد الكاتب ذلك .. والسياسيون سواء أكانوا شخوصا أم رموزا هم دلالات علي أوضاع ما في المجتمع ، لكن السياسة لا تتناول الفن الروائي ولا تتدخل في الإبداع الروائي لأنها تفسد الصدق الفني فلا يكون إبداعا .. والروائي لا يصدر أحكاما سياسية أو يدعو إلي توجهات بعينها لأن الأصل في الرواية أن يشعر القاريء بحريته وأن يمتلك القدرة علي الخيال ورسم صوره لحاضره ومستقبله ".

إن الطيب صالح حينما يقول رأيا مثل هذا جمع فيه حرية الكاتب وحرية القاريء بعيداً عن تأثيرات السياسة إنما هو يتحدث في الواقع عن كاتب لا يعيش دائما في جغرافيا العالم العربي .. فكم من أدباء وروائيين ذهبت بهم أعمالهم إلي نهايات مأساوية .. وكم من قاريء حرم من كتابات هذا الأديب أوذاك .. والطيب صالح نفسه يقول في ذات الوقت الذي قال فيه الفقرة السابقة حديثا يؤكد استلاب الكاتب العربي خاصة .. " النص الروائي يتعرض لعقبات وضغوط وقيود تأتي جميعاً من خارجه ، فهنالك رقابة مكثفة، وهنالك تهديدات دائمة بالسجن والنفي ، وهو ما يؤدي إلي إشكالية لدي الكاتب فيقدم في نصوصه تجربة مواجهتها ومحاولات الخلاص والتحرر منها، وهو ما أدي إلي ظهور اتجاهات تصنيف في الرواية مثل رواية (السجن) وراوية (المنفي).

ومع أن كاتبنا قضي ما يقارب من ثلثي عمره خارج وطنه السودان وعاش بعيداً عن السلطة المباشرة لهذا البلد غير أنه هو الآخر تعرض لانتهاكات سياسية لما كان قد كتبه .. فلسنوات عديدة كانت روايته (موسم الهجرة إلي الشمال) تدرس في أقسام وكليات الآداب في الجامعات .. ولمجرد أن أبدي هذا الأديب آراء حادة وإنتقادية للسلطة في السودان ولو من بعيد وخارج الحدود ، حتي صدر بعد ذلك وبوقت ليس مباشرا قرار حكومي بمنع تدريس هذه الرواية في تلك الجامعات .. ويكشف صاحب الرواية ، أوراقا أخري لم يكن يعرفها القاريء كانت سببا مضافا في أن تمنع الحكومة السودانية تلك الرواية من جامعاتها ، وتعتبر الطيب صالح بكل صراحة واحدا من أنداد السلطة.

إن الطيب الصالح الذي يعيش بعدا بعيداً عن وطنه جعله ذلك يتحصن من مضايقات واستفزازات عديدة كان ومازال الأدباء العرب يعانون منها .. سواء من قبل السلطات الحاكمة أو من قبل أحزاب وقوي المعارضة، فالأديب والمبدع اذا لم يكن مع السلطة فإنها تنظر له بعين القلق والشك في أن يكون مع المعارضة .. ولو كان الأديب مع السلطة فلن يسلم من اتهامات شتي تكيلها له قوي المعارضة.

وغير أن الأمر ولسنوات طويلة إختلف تماما مع الطيب صالح، فهو، وهو بعيد قدم إبداعاته علي سنوات غربته المتلاحقة والمستمرة وإلي اليوم لم يحصل له مع السلطة أي تشاحنات أو أزمات إلا في فترة مجيء حكومة البشير .. كما بقيت علاقته مع قوي المعارضة متوافقة وطيبة .. وقبل أن ننتقل إلي الاهتمامات السياسية وتأثيراتها في روايات وأعمال الطيب صالح .. نسمع منه ردود أفعاله حول قرار منع روايته (موسم الهجرة إلي الشمال) في أن تدرس في الجامعات السودانية.

يقـول الطيـب صـالح: كـل مـا أسـتطيع أن أقولـه الآن هـو الإحسـاس بالدهشـة ثم الحـزن .. الدهشـة سببها أن هـذا العمـل لـه الآن أكثـر مـن ثلاثـين عاما منذ أن نشر باللغة العربيـة وترجـم نحـو عشـرين لغـة عالميـة ، بمـا فيهـا جميـع اللغـات الكـبري في العـالم .. وكتبـت عنـه دراسـات ، فمـا السـبب الـذي جعـل هؤلاء الأخوة فجأة يجدونه غير لائق لأن يدرس في الجامعات ، والحزن سببه أن هـذا يعني أن المسئولين في السودان الآن لا يتخذون قرارات منطقية عاقلة فيها أية حكمـة .. وهـذا يعـني أن الـذين اتخذوا هـذا القـرار ، وأنـا لا أعلـم مـن هـم هل وزير التعليم العالي هل هو وزير الإعلام – هؤلاء يتصرفون بطريقة هستيرية ، تؤكد الصورة المنفرة في العالم عن السودان الآن ، فهي دولة لم تعد تتصرف بحسـب الأصـول والقواعـد الـتي تتصـرف بهـا الـدول العاقلـة .. وأنـا أري أن هـذا العمل – منع الكتب وإحراق الكتب – ضمن أعمال لا معني لها ، تؤكد صورة في أذهان العالم بأن هذه النظم نظم هشة وليست واثقة من نفسها وتذكر الناس بالفترة النازية حين منعوا الكتب وأحرقوا وأرهبوا المفكرين والكتاب ".

وهكذا فإن الضرر حينما كان حاداً علي هذا الأديب جاء رد فعله بنفس الحدة ، وكان لابد أن يدخل الأديب شاء أو أبي في معركة السياسة .. وأن يقول كلمته الفصـل .. ولكـن هـل كـان هـذا الحـال هـو نفسـه مـع الطيـب الصـالح في زمن ماضٍ ما .. ؟ .. لا بطبيعة الحال ، فالطيب الصالح لم ينضم إلي أي حزب سياسـي مـع أنـه كـان يتمتـع بعلاقـات واسـعه وقويـة مـع أغلـب السياسـيين السـودانيين .. وبقـي كمـا يقـول المثـل " يمسـك بالعصـا مـن الوسـط " فمـع السياسيين اليساريين المتطرفين منهم له علاقات حميمة، .. وهذه العلاقات له مثلها مع سياسيين وقوي وطنية في أقصي اليمين .. ولكن كيف يمكن أن نفهم

علاقة الطيب صالح بالسياسة قبل أن نعود معه مرة أخري إلي بدايات حياته لنلقي الضوء علي هذا الجانب.

بعيدا عن السياسة

يذكر صاحب " موسم الهجرة إلي الشمال" – "الواقع أنني ومنذ المرحلة الثانوية ابتعدت عن التحزب ، رغم أن ذلك لم يكن في تلك الفترة أمراً سهلاً فعندما كنا ندرس في مدرسة (وادي سيدنا) الثانوية كان الصراع ينحصر علي أشده بين الشيوعيين والإسلاميين كنت آنذاك أقوم بأداء الفرائض ، وأحافظ علي الدين ، لكني لست متدينا بالمعني السياسي والأيدلوجي للكلمة كنت أحضر اجتماعات الإسلاميين والشيوعيين وأميل إلي الحديث في الجمعيات الأدبية ، وفي الوقت نفسه أنفر من المناظرات السياسية والانطباع السائد لدي أقراني من الطلاب أنني " طالب شاطر، له أهتمامات أدبية "

ويذكر الطيب الصالح من خلال أحاديث كثيرة وهو يعود إلي مرحلة الشباب بأنه والسياسة لم يكونا متوافقين .. ولم يكن متحمساً لها ، ففي السودان وخلال أيام الجامعة حينما كان يلتقي مع مجموعات من الطلاب السياسيين من باب الاطلاع لا الانتماء فإنه لا يستمر في سماع نقاشاتهم :

"كنا نفترش الأرض في ميادين الجامعة نتذاكر حول أشياء عديدة .. ونتبادل الرؤي والأفكار .. وبعد فترة لم أعد أجالسهم ، فقد تركتهم ومضيت إلي حال سبيلي ".

ويبدو أن هجرته إلي بريطانيا ساعدته كثيراً أن ينسلخ من أية تأثيرات سياسية مباشرة وأخذ يعيش فضاءً واسعا من الحرية التي لم يكن يتوقعها أو يحلم

بها ··غبر أنه بقي وفيا وحميمياً مع بلده : " أنا أحب السودان حباً شديداً بطبيعة الحال ·· وولائي كما أقول دائما للأمة في صيرورتها الدائمة المستديمة ·· وهذا التزام أبدي، وواضح أن آراء السياسيين تتبدل تبعا للظروف والتقلبات السياسية وهم يريدون من المفكر أن يتبدل معهم، وهذه مسألة متعبة، وأقرب مثال جعفر النميري ، فقد كان اشتراكيا فأراد أن يكون الجميع اشتراكيين مثله · ثم تحول إلي ليبرالي وأراد الجميع علي شاكلته ، وفجأة تحول إلي مسلم متشدد ، وطلب ممن معه أن يتأسلموا .. لذلك أدخل من عمل معه في تناقضات شديدة .. وأعتقد أنه كان من الأفضل لفئة المثقفين الذين عملوا معه البقاء بعيدا عن هذه التقلبات المزاجية والأهواء المتناقضة".

والحال كذلك فإن الطيب صالح يدري أو لايدري فإنه يوقع نفسه في مأزق آخر عندما يقي يصرح حتى نهاية الأمر بأنه ليس سياسيا .. في حين أنه في الوقت ذاته عندما يتحدث عن أعماله وروايته فإن الجانب السياسي هو أول ما يحضر في أحاديثه ، وهنا تكون لبنة التناقض لديه .. خاصة وهو قد أصبح بعمر لابد أن يقول كلمته ويوضح رؤيته وموقفه الأيدلوجي في زمن صار فيه وطنه السودان يعج بالتحركات والأحزاب والأنشطة السياسية التي تبحث كل منها علي دور وموقع سواء أكان تاريخيا أو سياسيا أو صولجان الحكم .. وليس يكفي مثلا أن ينوه هذا الأديب عن اعتزازه بهذه الحركة السياسية أو تلك ، ويوقع بياناً مع أخري كما حصل مثلا في (إعلان قرطاج) عام ١٩٩٤أو غيره من البيانات التي تصدرها قوي سياسية مختلفة.

ولعل هذا الأمر يبدو طبيعيا بالنسبة للأدباء والكتاب في أوروبا والغرب .. بيد أن التشكيل السياسي العربي لا يتوافق مع أديب له نزعة توفيقية يلائمها

مع غالبية الأحزاب والاتجاهات حتي لوجاء ذلك مع زاوية الإعلان والدعاية.. في الغرب مثلاً يحضر أديب أو كاتب يساري تجمعاً تقيمه منظمات يمينية .. والعكس يحصل في أحايين أخري .. ولابد أن نقيم بأن الهجرة والعيش بعيدا عن الوطن والارتباط الاجتماعي مع تشكيل اجتماعي آخر لسنوات ليست قليلة سوف تلقي كلها بظلالها علي تركيبة الأدب العربي ، وتجعل هذا الأديب المهاجر والذي يحمل مواصفات الطيب صالح تحديدا يمارس حياته بجرأة واضحة .. ولايخضع للقيود التي يخضع لها الكاتب في داخل السودان.

أجل .. لقد ساعدت السنوات الطويلة من العيش والعمل والارتباط الاجتماعي في بريطانيا أو فرنسا أو بلدان عربية أخري بالنسبة للطيب صالح أن يعتبر نفسه يعيش في عالم مختلف أعطاه نتائج مختلفة .. هذا لأنه تعرض ومنذ سنوات شبابه الأولي إلي مؤثرات فكرية متنوعة أعطته فرصاً حقيقية لمناقشة كل القضايا التي عاني منها وطنه وبكل حرية .. غير أنه – الكاتب – بقي نائياً عن أي التزام سياسي .. وهكذا ومثلما تعددت واختلطت رؤاه السياسية فقد تعددت تلك الصفات التي خلعت عليه من قبل نقاد وأدباء عديدين .. فالبعض اعتبره كاتباً سودانياً قطرياً لم يخرج من ثوب الشخصية السودانية أبدا مع أنه جال كثيرا في بلاد الله وعاش سنوات في الغرب وآخرون قالوا إنه سيبقي رغم كل ما قيل ويقال كاتباً عربياً .. وبعض آخر وصفوه بأنه كاتب أفريقي وتلك معضلة لن نصل إلي حلها إلا من خلال ما يقوله الطيب صالح –" لا أنكر أننا نحن السودانيين في وضع خاص، نحن عرب ، وربما سحنتنا وسماتنا لاتدل على ذلك .. ولكننا من الناحية الوجدانية ومن ناحية اللغة من أعرب العرب .. السوداني العربي كأنما هو باستمرار مضطر إلي أن يثبت عروبته وبعضنا يمل هذا والبعض الآخر يقول " في ستين داهية " ولكن أنا أؤمن بأن

العروبة لا تأتي من قول أحدهم لك أنت عربي أو اعترافه بعروبتك .. أنت تشعر بعروبتك وكفي .. وفي هذه الأيام إذا كانت العروبة نادياً فهي ليست نادياً جذاباً ·· ولكن لدينا مصادر أخري ، التراث القديم في النوبة مثلاً ، وفي عرب السودان أناس أقرب إلي غرب أفريقيا.. وفي الجنوب جماعات أقرب إلي أواسط غرب أفريقيا ·· فالسودان ملتقي تيارات وتفاعلات كثيرة جداً .. ولعلنا بين العرب لانشبه أحد " فهل كانت الرؤية الأيدلوجية التي تعيش في عقلية الطيب صالح متوافقة تماما مع ما قاله هو عن بلده .. أي رؤية فسيفسائية، تتجمع عندها ملتقي التيارات والتفاعلات .. ؟

مما جعل بالتالي جميع رواياته وكتاباته يستقبلها عموم السودانيين دون فرق بين شمالي وجنوبي، بين يساري ويميني .. وهل يكون هذا الأديب قد استطاع بحق أن يقلب المعادلة القائلة (السياسة تحتوي الإبداع) .. ليكون الإبداع محتوياً للسياسة ليقدم حلا وسطا هو العودة للجذور لكن مع استقبال الجديد القادم من الشمال .. تطابق مفهوم الإبداع مع السياسة ولكن أين اجتمعت تماما وتطابقت عند الطيب صالح قضية الإبداع مع قضية السياسة :" قد يكون ذلك قد حصل .. هذا لأنني عندما كتبت " موسم الهجرة " والتي ظهرت قبيل حرب ١٩٦٧ سبت هذه الرواية – زخما – ما بعد الهزيمة، حينما كان الصراع حاداً بين الشرق والغرب .. وذاعت الرواية أيضا في العالم، ولا أدري إن كانت تعبر عن حالة وجودية تتعدي الظروف الموجودة في العالم العربي .. لكن فيها بالتأكيد عنصر الإثارة، وهي من هذا المنحي أقرب منالاً للقاريء سواء فهم ما أريد قوله أم لم يفهم ·· المهم أنه يقرأ الرواية وفيها أحداث مشوقة وقتل ومحاكمات "·

ويقول الطيب الصالح : رواية "عرس الزين" كتبتها في لندن وكنت أريد أن أحتفي فيها بالعالم الذي فقدته وهو عالم القرية السودانية .. ووقتها كنت مثل المغني الذي لم يعرف بعد .. فهو يغني في الحفلات الخاصة ، لذا فإني كتبت هذه الرواية لا لغرض الشهرة ولا لأي شيء آخر ، بل لمجرد أن يصل صوتي إلي الناس الذين أحبهم .. في (ضو البيت) و (مريود) بدأت أغوص أعمق في تركيبة المجتمع السوداني وتاريخه وأصل إلي داخله .. وأرجو ألا أكون مدعياً منذ البداية ، ومنذ أن كتبت قصة قصيرة اسمها (نومة حالمة) أحببت أن أخلق عالماً ملحمياً ميثولوجياً .. وأظن أن الكتابة الملحمية الميثولوجية لم تكن في تلك الأيام محبوبة، فقد كان الظرف حافلاً بمشاكل سياسية وصراعات ، والناس يريدون أدباً مباشراً .. أحببت أن أحول أهل هذه القرية إلي شخصيات ملحمية .. وأنا دائماً أقول إن شخصيات الإلياذه هي كشخصيات المزارعين الموجودين في الشمال السوداني أو في أي مكان من العالم العربي.

وأنا أقول أحيانا إن عندنا قضيتين رئيسيتين هما المدينة والسلطة .. هذا واضح في رواية (ضو البيت) حيث الصراع الإجتماعي والسياسي للأجيال .. حتي (بندرشاه) يمثل المدينة والملك .. فبندر هي المدينة وشاه هو الملك فالإشكالية هي كيف نبني مدنا بالمعني الحضاري .. كيف نبني الإنسان .. هي إشكالية سياسية .. هنا تطابق عندي مفهوم الإبداع مع السياسة .. من يحتوي من .. في الماضي كانت لدينا مدن حضارية مثل بغداد ودمشق والقاهرة ومراكش وغيرها .. أما اليوم فما هو عندنا عبارة عن مخيمات بالمعني الحضاري ، أناس يسكنون في مكان ما .. أناس يعيشون علي أنقاض هذه المدن الحضارية .. عندنا أيضا مشكلة السلطان – الملك الذي نريده لأنفسنا من هو – هارون الرشيد الذي نريده .. المأمون .. المعتصم .. هذه الجدلية هي أساس

العمل ، وأنا أحب دائما أن أدخل العمل بافتراض قد يقره العمل أو يرفضه أو يتركه مفتوحا .. في (ضو البيت) و (مريود) تجد هذا الإحساس بصراع الأجيال.

أضف أن تاريخنا العربي الإسلامي في السودان بدأ مع مانسميه بدولة (الفنج) ويسمونها أحيانا – السلطنة الزرقاء – التي نشأت تقريبا في الفترة التي خرج فيها العرب من الأندلس .. إذ وجد بعض المؤرخين قيام دولة عربية إسلامية كبيرة في هذه الأرض الشاسعة نوعا من العزاء عن ضياع الأندلس، وكان حكام هذه الدولة مستنيرين يحيطون أنفسهم بالعلماء .. لذلك جاء لها علماء من بلاد الشام ومصر والمغرب وبغداد.

استمرت هذه الدولة في السودان إلي أن جاء الحكم العثماني .. ثم جاء الإنكليز .. وبعده الحكم الوطني .. هذه التنوعات .. إلي جانب تنوع البلد واتساع رقعته، شكلت مادة لعمل ما، لكني أحيانا أشعر بأنني لا أملك القدرة علي تحمل العبء الذي يجب أن يحمله أناس عديدون يخطر لي أيضا أن أكتب كعالم أثري، فهنالك طبقات متراكمة وعليك أن تحضر لتعثر علي إناء خزفي هنا وقصعة هناك .. وغير ذلك وتحاول أن ترسم صورة في محاولة لرسم خريطة فنية للمكان.

التحدي والكتابة

وعن التحدي الذي يواجهه كمبدع يقول : "أكثر تحدي أواجهه يتمثل في الصفحات البيضاء، أشعر أنها تخرج لي لسانها وتقول: " لو كنت رجلاً أكتبني" ، وأنا في الغالب أري أن الذي يدفعني للكتابة غير البحث عن الراحة والدفء هو إختمار تجربة ما داخلي فهذا يستفزني للكتابة ويرهقني حتي أفرغه علي

الورق، وهذا حدث في قصة " الرجل القبرصي " ورواية " موسم الهجرة إلي الشمال " فقد كانتا تعبيراً عن اختمار تجربة ، ودائماً ما أحدد بداية الرواية، وبعد ذلك أبدأ في تفاصيلها من دون التقيد بخطوط خاصة بالشخصيات والتي أترك لها الحرية في صنع مسارها ، وبعض الأعمال تحتاج إلي قراءات عميقة ، والغوص في تفاصيل شعبية وأسطورية مثل " عُرس الزين".

وللطيب صالح رأي مدهش أيضاً في مسألة الكتابة .. يقول : الكتابة عمل أكرهه بشدة، فالكتابة ليست كل شئ في الحياة، هناك القراءة والسفر، وأشياء كثيرة ممتعة، أما الكتابة فهي عملية عذاب متصلة، وماذا يمكن أن تفعل الكتابة في الحياة ؟ ، لقد جاء " تولستوي " و " ريتوفسكي " وغيرهما ثم ذهبوا ولا زالت الدنيا كما هي ".

والمتابع لكلام الطيب وسخريته يلمح أن الكتابة تقع تحت ضغوط يعانى منها الكاتب والرواية .. يقول الطيب : "النص الروائي يتعرض لعقبات وضغوط وقيود تأتي جميعاً من خارجه، فهناك – كما قلنا – رقابة مكثفة ، وهناك تهديدات دائمة بالسجن والنفي، وهو ما يؤدي إلي إشكالية لدي الكاتب فيقدم في نصوصه تجربة مواجهتها ومحاولات الخلاص والتحرر منها، وهو ما أدي إلي ظهور اتجاهات تصنيف في الرواية مثل رواية السجن ورواية المنفي وغيرهما.

– قلت : وما تقييمك للرواية العربية الآن ؟

قال : الرواية العربية الآن أصبحت أكثر وضوحاً من ناحية هويتها، خلافاً للفترات السابقة، فهناك بحث عن خصوصية في المكان والتاريخ والناس والاحتكاك والمأزق العربي الراهن ، وأظن أن الرواية قادرة أكثر من أي جنس أدبي آخر علي رسم خصوصية الهوية العربية ، إنها تستمد هويتها من تناولها للناس المنسيين، وأنا من ضمن الناس الذين يؤمنون بإقامة علاقات وثيقة جداً

بوسائل التعبير المختلفة من أجل إثراء التجربة الروائية ، فكلما أمكن ينبغي الاهتمام بالفن التشكيلي وبالسينما والشعر أيضاً.

أما النقد فلا يزال متلعثما في قسمه الأكبر من وجهة نظر الطيب: " يجوز نظرياً أنه من خلال احتكاك الناقد بالنظريات التي تنتج في الغرب قد اكتسب مفاهيم وأساليب معينة لقراءة العمل ، لكن للأسف لم يستطع النقد أن يبلور لنفسه معاييره الخاصة، ولم يقم ببناء نظريته الخاصة، وبالتالي نري أحياناً ناقداً ينتهج مدرسة نقدية معينة ، يختار الأعمال التي تناسب منهجه النقدي، أكثر منه إقبالاً علي العمل بنفس مفتوحة ، وبرغبة الاكتشاف والتفوق والتعامل الذي يتيح له إمكانية إقامةالأسس الخاصة من خلال العمل ذاته، لذلك أتمني للمشهد النقدي الخاص بالرواية أن يكتمل ويكون المرشد الحقيقي للقارئ ..

السياسة كفكرة

وإذا كان الطيب صالح يري أن السياسة تفسد الإبداع فإن ذلك لا يعني أنه غير معني بالسياسة أو بالقراءات السياسية لكنه يقرأ السياسة بصفتها فكرة، ويقول :" أحب قراءة السياسة ليس علي المستوي اليومي، لكن أقرأ في السياسة بصفتها فكرة، هناك كتاب عندما أقرأ لهم أشعر أنهم يكتبون بطريقة المؤرخين ، ويحفرون مثل علماء الآثار، يحفرون طبقات ربما يجدون طوبة أو قطعة رخام فيتخيلون البناء كله، ويحضرني منهم الكاتب الإنجليزي روبرت سيتفنر الذي كتب أحسن كتاب عن عبد الناصر ، كتاب "ناصر"، والكاتب الإنجليزي "ليبمان" والأمريكي " جورج كنان " وكان سفيراً أيام كندي، و " فرينتان يروديل" أيضاً.

ومن الكتاب العرب محمد حسنين هيكل .. قرأت له كل ما كتب بالإنجليزي والعربي، هيكل أصبح مؤرخاً، قرأت له كتابا عن علاقة مصر بالاتحاد

السوفيتي .. يشرح فيه كيف ورّط عبد الناصر السوفيت في علاقة مع مصر إلي أن أصبحت شريكاً لمصر.

- قلت للطيب صالح : الموت له حضور طاغ في أعمالك الأدبية فما دلالة هذا علي المستوي الإبداعي والشخصي؟

قال : علي المستوي الإبداعي فهذا ما تناوله النقاد ، وهم أكثر مني قدرة علي الحديث في هذا الموضوع ، والدكتور عبد الرحمن الخانجي تناول دلالة الموت في عملين لي هما " بندر شاه "، و " موسم الهجرة إلي الشمال "، وعالج الموت من خلال محورين: محور موت الأنثي وهو موت آثم يرتبط في أكثر معانيه بغريزة الجنس، ولا يخلو من عنف أو خطيئة .. ومحور موت الرجل ، وهو موت نبيل يرتبط بالكبرياء والسمو، ولا يخلو من تضحية ونكران الذات.

- قلت : هل هناك دلالة ما أو مدخل آخر لأعمالك الأدبية بعد كل الأطروحات التي وضعها النقاد عنك ؟

قال : لست أدري بعدما يوّدع المرء هذه الدنيا، يكون الناس أحراراً في أن يقولوا ما يريدون في هذا الشئ القليل الذي فعلته، إن كانوا يرونه ذا قيمة أو لا، وأنا بالطبع لا أهتم بما سيحدث لاحقاً، ربما كان ذلك أحسن ما عندي، ولدي رغبة شديدة في التعرف والاستطلاع ، أريد أن أفهم ما يدور حولي .. هذه العقول العظيمة في مكتبتي أحب أن أتعرف عليها .. أحياناً أنظر إلي مكتبتي في بيتي وأقول إن كل كتاب فيها عبارة عن عقل حديث وشخصية بين الدفتين، وشئ مما عاشه ابن آدم وفكر به .. أريد أن أعرف وأستطلع، وإذا ما وجدت لنفسي حيزاً صغيراً وسط العقول العظيمة فهذا جيد جداً، وإن لم أجد فلا يعنيني ذلك.

قال الطيب صالح علي لسان أبطال رواياته:

"ولماذا يا أخي تبعد عني هذا البعاد ؟ أما كفاك وكفاني ؟ ترفق بنفسك يا حبيبي فانك قد تبوأت رتبة قلّ من وصل إليها من المحبين الخاشعين، وإنني أركض فلا أكاد ألحق بغبارك ؟"

رواية مريود ص٨٥

"رحم الله ضوالبيت ، دفع بروحه ثمن العصيدة التي أكلها معنا أول يوم، مضي كالحلم وكأنه ما كان ، لولا ابنه عيسي الذي ولد بعد موته بثلاثة أشهر ننظر إلي وجهه فلا نري ضوالبيت وننظر إلي عينيه ، فإذا هو ضوالبيت الخالق الناطق "

بندر شاه ص ١٠٤

"ويلهج لسان الزين بذكر الفتاة ويصيح باسمها حيثما كان فلا تلبث الآذان أن ترهف وما تلبث العيون أن تنتبه وما تلبث يد فارس من بينهم أن تمتد ، وتأخذ يد الفتاة وحين يقام العرس تفتش عن الزين فتجده إما مسخرا يملأ القلل والأزيار بالماء أو واقفا في نصف الساحة عاري الصدر في يده فأس يكسر به الحطب ، أو بين النساء في المطبخ يعابثهن ويعطينه من آن لآخر قطعا من الطعام يملأ بها فمه ما يفتأ يضحك ضحكته التي تشبه نهيق الحمار وتبدأ قصة حب أخري "

عرس الزين ص ٣١

" أنت يا مستر سعيد خير مثال علي أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوي ، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة.

موسم الهجرة للشمال

ما رأيت حبا مثل حب تلك الأم ، وما شفت حنانا مثل حنان تلك الأم، ملأت قلبي بالمحبة حتي صرت مثل نبع لا ينضب، ويوم الحساب، يوم يقف الخلق بين يدي ذي العزة والجلال، شايلين صلاتهم وزكاتهم وحجهم وصيامهم ، وهجودهم وسجودهم ، سوف أقول : يا صاحب الجلال والجبروت، عبدك المسكين ، الطاهر ولد بلال ، ولد حواء بنت العريبي، يقف بين يديك خالي الجراب، مقطع الأسباب، ما عنده شيء يضعه في ميزان عدلك سوي المحبة "

مريود ص ٦٦

"يا مريود أنت لا شيء ، أنت لا أحد يا مريود انك اخترت جدك وجدك اختار جدك وجدك اختارك لأنكما أرجح في موازين أهل الدنيا، وأبوك أرجح منك ومن جدك في ميزان العدل، لقد أحب بلا ملل، وأعطي بلا أمل، وحسا كما يحسو الطائر ، وأقام علي سفر، وفارق علي عجل، حلم أحلام الضعفاء، وتزود من زاد الفقراء ، وراودته نفسه علي المجد فزجرها، ولما نادته الحياه .. لما نادته الحياة "

مريود ص٨٨

"ذباب البقر أكل رقبتي والملاريا حرقت جلدي والدوسونتاريا غرست أسنانها في أحشائي – أقيلوا عثرتي يرحمكم الله هؤلاء قوم لا حاجة لهم بي ولا بواعظ غيري "

الواعظ قي دومة ود حامد ص ٣٦

البوابة الثانية

شهادات إنسانية عن قرب

الصديق الكاتب.. نبع الصفا والمودة والحكمة

إبراهيم الصلحي

يقول الطيب صالح، علي لسان الطاهر ود الرواسي أحد أشخاصه في قصة "مريود"، للراوي محيميد "الإنسان يا محيميد .. الحياة يا محيميد ما فيها غير حاجتين اثنتين: الصداقة والمحبة .. ما تقول لي لا حسب ولا نسب ولا مال.. ابن آدم إذ كان ترك الدنيا، وعنده ثقة إنسان واحد يكون كسبان، وأنا المولي عز وجل أكرمني بالحيل، أنعم عبي بدل النعمة نعمتين: صداقة محجوب وحب فاطمة بت جبر الدار".

المحبة كلمة طيبة جامعة، كثيرًا ما سمعتها تتردد علي فم الطيب صالح، وهي كلمة كبري لا يلقيها في كلامه جزافًا، إذ هي ديدن حياته، وفي اعتقادي أنها المدخل الحقيقي النافذ مباشرة إلي لب شخصه وأدبه عبر عنها كثيرًا في كل ما كتب كلمة أصلها ثابت في الأرض وفرعها يعانق الهواء والإنسان والسماء.

والطيب قد أحب الأرض والناس عن معرفة أكيدة بحالهم وأحوالهم فكانت له المحبة في القلوب. يقول بهذا الصدد أخوه مولانا/ بشير محمد صالح، قاضي المحكمة العليا في السودان، والمستشار القانوني حاليًا لمنظمة الخليج للاستشارات الصناعية في دولة قطر: "كنا حين يعود الطيب من سفر له، وتلمحه جارة لنا قادمًا من مرفأ الباخرة، علي ظهر حمار كالعادة، تسبق مقدمه مهرولة إلي بيتنا قائلة لوالدتنا: " البشارة .. البشارة يا عائشة .. ولدك جاء"

ويضيف مولانا بشر ضاحكًا: " وبينما كنت آتي أنا لزيارة الأهل في القرية، وقد كنت كثير التردد عليهم بين حين وآخر، خصوصًا أيام الإجازات، وأقوم بحل مشكلة من كانت لديه مشكلة، علاوة علي كتابة الرسائل لمن كان لا يفك الخط منهم، لكن كما تعلم بشيء من التحقق بما يتطلبه الوضع، ولربما كان بشيء من الدقة والخشونة التي تعهدها في" ويضيف: " حين تلمحني تلك الجارة و"تتوكدني" وقد كادت أن تهرول لنيل حق البشارة من والدتنا، رحمة الله عليها، علي ظن أن القادم علي ظهر الحمار من مرفأ الباخرة هو أخي الطيب، تكتفي بقولها: "هي بس .. ده بشير، مولانا الطيب".

ومولانا: بشير الشقيق الأصغر للطيب صالح، رجل شهم وشاعر ملهم عالم بالله، لازمته سنوات عدة بالدوحة، ولا أكاد أفارق مجلسه، وداره العامرة ملتقي أهل العلم والتقوي ما انفردنا إلا ودار الحديث بيننا عن ذكريات البلد وأحواله في ماضيه وحاضره وما انفض مجلسنا إلا وذكرنا أخاه الطيب، ودعونا له بالخير.

وبهذا وقفت علي كثير من تفاصيل أحوال بلدتهم التي نشأ في ربوعها وظروف الحياة فيها، بين نهر وزرع وضرع وقصص وأشعار وأهازيج يرويها مولانا بشير، وقد حوت ذاكرته الكثير والعديد منها، حتي تكونت لدي حصيلة وصورة واضحة المعالم لبلدتهم في شمال السودان، بما فيها من أناس أهل بلد، ووافدين عليهم من عرب صحاري شمال دارفور وكردفان، وأولاد ريف نزحوا من صعيد مصر، وغيرهم من بقايا عهد اقتصادي قديم تحرروا منه منذ زمن، وما اكتنف حياتهم من قول وعمل.

التقيت الطيب لأول مرة أثناء فترة الدراسة في المرحلة الثانوية بأم درمان قبل انتقال مدرستنا إلي وادي سيدنا في نهاية عام ١٩٤٥، أيام كان التعليم في تلك المرحلة في السودان يقوم علي أساس نمط بريطاني بحت، تأهيلاً للتشرب بنمط حياة المستعمر وخدمة لأغراضه، إذ كانت وتيرة الحياة المدرسية علي غير ما ألفناه في المرحلتين السابقتين الابتدائية والمتوسطة، فكانت جميع العلوم تدرس باللغة الإنجليزية ما عدا الدين واللغة العربية، ولو كانوا قد وجدوا إليهما سبيلاً لما أبقوا علي تدريسهما لنا بلغتنا العربية الأم. والهدف في الغالب الأعم كان لخلق الجيل المسخ الذي يعمل وفق: إرادتهم بقدر محدود من العلم بما يفي بالغرض ولعل هذا الوضع الذي دأبوا علي اتباعه، هو الذي أدي إلي تباين في الأخذ والعطاء· نشأت عنه بطبيعة الحال روح التمرد مع نمو وتزايد الشعور الوطني الطاغي ضد المستعمر، وضد ثقافته الاستعمارية الدخيلة.

وتوثقت عري الصداقة بيني والطيب صالح خلال السنة الرابعة عام ١٩٤٨، حين كنا ضمن فريق ضمنا نحن الاثنين في رحلة مدرسية إلي جنوب السودان، شملت أقاصي حدود المديرية الاستوائية ومناطق تماسها مع كل من الكونغو وأوغندا.

ومنذ تلك الفترة، ولأكثر من نصف قرن مضي وإلي يومنا هذا، وأواصر المودة بيننا حبل متين لا ينقطع، بل ازداد مع مرور الأيام قوة ومنع ومحبة، والطيب هو الود والمحبة بذاتهما، خلوق، وفي، بشوش دائم البشر، ندر أن تلقاه عابسًا حتي في ساعات الضيق (إذا حلت)، يتجاوزها عادة برحابة صدر وابتسامة تعلو شفتيه علي الدوام.

وللحقيقة أذكر أني كنت وإلي أواخر الخمسينيات خالي الذهن مما لدي الطيب من قدرات إبداعية في الكتابة، رغم علمي سلفًا بأنه كثير القراءة واسع

الاطلاع كنت أجهل تمامًا أنه قاص متميز، لسرده القصصي نكهة خاصة، فريدة في نوعها، تعبق بعبير الإنسان في صدق وصفاء لا يشوبه كدر. يتحدث عن مجتمع القرية فيصف الإنسان رغم اختلاف البيئات والنشأة، بأنه الإنسان نفسه.

كنت خالي الذهن مما لدي الطيب من طاقة إبداعية لا تضارع، إلي أن وصلني كتاب من توفيق صايغ، صاحب مجلة "حوار" التي كان يصدرها من بيروت وأنا في الخرطوم طالبًا إلي تحضير رسوم لمجموعة قصص "دومة ود حامد"، ثم تصميم كتاب "عرس الزين"، ولا أذكر أيهما كان الأسبق· وبإطلاعي علي نصوص تلك المجموعة القصصية والروائية، ذهلت وتملكني العجب أكل هذا يا طيب وأنت لا تذكر عنه شيئًا؟!!

الطيب كان ولا يزال مثالاً حيًا للتواضع الجم، يؤثر ويقدم غيره علي نفسه، تعود أن يعمل في صمت دون جلبه أو تباه يجلب إليه الأنظار .. صبور .. وفي هذا يقول عن أهله في "موسم الهجرة إلي الشمال" (معبرًا في حقيقة الأمر عن نفسه) إنهم أناس "تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر"، والنهر نهر النيل، واهب الحياة عن الإله للأحياء يجري سخاء ورخاء دون انقطاع.

والشجر النخيل المعطاء، في صمت يتحمل الحر والرياح والجفاف، صامدًا مشرعًا جريده دائم الخضرة شامخًا في إباء وشمم نحو عنان السماء رمزًا دائمًا للقناعة وقوة الشكيمة والجلد لا يفارق مخيلة الطيب، وإليه يستند جذعًا كلما عاد.

يقول في "موسم الهجرة إلي الشمال" يصف شعوره علي لسان لراوي، لحظه لقائه جده في القرية كلما عاد إليها من سفر بأنه "إحساس صاف بالعجب" يقول عن جده: " حين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التي هي خليط

من رائحة الضريح الكبير في المقبرة، ورائحة الطفل الرضيع"، ثم يترسل مضيفًا: " نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي فلاحون فقراء ولكني حين أعانق جدي أحس بالغني كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب· بل كشجيرات السيال في صحاري السودان، سميكة اللحي حادة الأشواك تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة وهذا وجه العجب.

لله درك يا طيب من قص ثر مبدع دقيق الوصف لحال أهلنا في ربوع السودان حال الإنسان الذي طبع علي أن يقنع من حياته، وهو راض عنها بالقليل العظيم الكبير في معناه، أمر قد لا يتأتي فهمه وإدراكه لأهل الوفرة والرفاة.

يقول عن جده: "إنه عاش أصلاً رغم الطاغون والمجاعات والحروب وفساد الحكام· وها هو ذا يقترب من عامه المائة· أسنانه جميعًا في فمه· عيناه صغيرتان باهتتان تحسب أنهما لا تريان· لكنه ينظر بهما في حلكة الليل.
جسمه الضئيل ينكمش علي ذاته· عظام وعروق وجلد وعضلات وليس فيه واحدة من الشحم، يقفز فوق الحمار نشيطًا ويمشي في غبش الفجر من بيته إلي الجامع".

ويبدع الطيب في استعراض القيم المجتمعية التي يتصف بها السوداني المسلم من تسامح وسعة صدر وتقبل للآخر، إيمانًا منه بالقدر والقضاء يتحدث علي لسان أهلنا في شمال السودان بلغة عربية دارجة فصحي، محددة اللفظ والهدف وهنا تبرز ميزة الطيب في الربط الوثيق بين اللهجة المحلية الدارجة بالعربية الفصحي، بحيث تكون لدي السامع العربي مزيجًا متناسقًا غير مختل التوازن يكون للمعني فيه بعد تصويري تكاد تبصر فيه من خلال وقع الكلمات والتعابير

اللفظية معالم هيئات المتحدث وتلمس فيه ملامح وجهه وتعبيره، ناهيك عما تضيفه اللهجة المحلية المتحدث بها، علي النص من بلاغة وحيوية دافقة، وغني يثري إطاره العام.

واستمع إليه حين يصف في "ضو البيت" ما دار يوم خرج إليهم من النهر غريب أبيض البشرة أزرق العينين، جريحًا فاقدًا للذاكرة تقبلوه عن طيب خاطر فرعوه حتي شفي وأكرموا مثواه بمنحه أرضًا يفلحها.

يقول الطيب علي لسان محمود للرجل الغريب أخضر العينين الذي أسموه "ضو البيت": " يا عبد الله نحن كما تري نعيش تحت ستر المهيمن الديان، حياتنا كد وشطف لكن قلوبنا عامرة بالرضا قابلين بقسمتنا التي قسمها الله لنا، نصلي فروضنا ونحفظ عروضنا متحزمين ومتلزمين علي نوايب الزمن وصروف القدر، الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلي اللحد القليل أل عندنا عملناه بسواعدنا، ما تعدينا علي حقوق إنسان، ولا أكلنا ربا ولا سحتًا، ناس سلام وقت السلام، وناس غضب وقت الغضب أل ما يعرفنا يظن إننا ضعاف، إذا نفخنا الهواء يرمينا، لكن في الحقيقة مثل شجر الحراز النابت في الحقول وأنت يا عبد الله جيتنا من حيث لا ندري، كقضاء الله وقدره ألقاك الموج علي أبوابنا، ما نعلم أنت مين وقاصد وين .. طالب خير أو طالب شر مهما كان نحن قبلناك بين ظهرانينا زي ما نقبل الحر والبرد والموت والحياة، تقيم معنا لك ما لنا وعليك ما علينا، وإذا كنت خير تجد عندنا كل خير، وإذا كنت شر فالله حسبنا ونعم الوكيل.

تأمل قول محجوب في موضوع الدين، وهو إقرار صريح بما هو واقع، " يا ضو البيت نحن ناس مسلمين لكن ما عندنا تشدد في موضوع الدين، كل نفس بما كسبت، والله مخير في عباده ولو كنا نعلم لك ملة لتركناك علي ملتك، أما

وأنك لا تعرف أنت من أي دين، فإنه رأيك ندخلك معنا ملة الإسلام، نحن نكسب ثواب وأنت تنجو من غضب الله، ويسهل عليك التعامل مع ناس البلد إذا حبيت تستقر من ناحية الزواج والصهر".

حدث ذلك يوم طلب إليهم "ضو البيت" أن يزوجوه علي سنة الله ورسوله، فاحتفلوا في تتابع سريع وفي يوم واحد ابتداء بسمايته ثم ختانه ومن ثم تزويجه من فاطمة بت جبر الدار، إحدي فتيات القرية التي ارتضته زوجًا لها.

يشير الطيب إلي هذا الإيقاع السريع للأحداث بما يستوجبه التسامح من التزام فيقول: " اليوم سوف تتلاحم الأجزاء فيصبح كل واحد أحدًا" وهكذا يصور تتابع الحدث في تطابق موجز، اختصارًا للزمن كما يحدث عادة في عالم الأحلام رغم ذلك فهذا أمر غير بعيد أو بمستغرب في بلد كشمال السودان حيث يتوخي أهلونا البساطة في جميع أمور الحياة من تعامل ومعاش، وتقبل الآخر وكأنه منا ولنا، دون فرز.

وقد سبق في ماضي حياتنا حين قدم آباؤنا من الجزيرة العربية بادية عبر البحر الأحمر، بحثًا عن الماء والكلأ، ومن طريق مجري النيل قديمًا وحديثًا، ومن البوابة الغربية أخيرًا وليس آخرًا، عبر رمال الصحراء الكبري، رجالاً في الغالب قدموا دون نساء فارتبطوا بأهل البلد معاشًا ومصاهرة دون سؤال، كما حدث أن تقبلنا الإسلام طواعية ورضا، دون إرغام علي حد سيف وهكذا جئنا مزيجًا فطريًا من التسامح والقبول يجد في ظله الغريب الوافد الناس علي الدوام أهلاً، والدار علي قليلها وكثيرها سهلاً.

بهذا الخصوص يقول الطيب في "ضو البيت" علي لسان مختار يرويه عما سمعه من أبيه حسب الرسول يقول حين رأي الغريب أبيض البشرة يطلع عليه

جريحًا من النهر "أهلاً وسهلاً"، وقلت له: " أهلاً وألف مرحبًا، بالضيف الغريب الجايي من بلاد الله، وصلت محل عشا الضيفان، وجمة الفتران" وكنت قد عدت كما أنا وأكثر، حسب الرسول ود مختار الخمجان، شكال الصريمة ومخلص اليتيمة، ناره ما تنطفي وضيفه ما ينكفي، ونحن يعلم الله حالتنا حال، عندنا عنزة وحداة ترضع، وتور وحيد بدون بقرة، لا حمار ولا سرج، وبيتنا قطية لسع ما بنيناها طين، ومختار ابني طفل رضيع في البيت شوية دخن لا سمن ولا لحم، زارعين القمح ومنتظرين فرج الله، ميمونة أم مختار عملت عصيدة دخن بشوية لبن وكنت أنا أتباطأ في الأكل علشان يأكل الضيف. ديك الأيام ما كنا عرفنا الشاي والبن نشرب الحلبة باللبن والتمر والسمن ونحن ما عندنا لا دا، ولا دا".

ذلك غيض من فيض جعل من الطيب، بما له من قدرات. مبدعًا لصيق الصلة بتراث أهله وبيئته، محبًا له، ومقدرًا لقيمهم في الحياة، مدركًا وملتزمًا بأن عليه دينًا في عنقه، يوجب عليه الوفاء ردًا للجميل.

في حوار أجراه معه في تونس، كل من محيي الدين صبحي وخلدون الشمعة، ورد نصه في كتاب: "الطيب الصالح .. عبقري الرواية العربية" إصدار دار العودة في بيروت، بشأن روايته "عرس الزين"، يقول الطيب: "من حسن الحظ في هذه الرواية بالذات، وهي رواية أحبها وأستطيع شخصيًا قراءتها أحيانًا دون الإحساس بالخجل، ذلك الإحساس الذي يحسه الكاتب تجاه عمله إن مادة الرواية وشخصياتها ساعدتني علي إيجاد هذا الاحتفاء بمجتمع أعرفه وعشت فيه، والشخصيات فيه هي أهلي كما عرفتهم إلي حد كبير بيد أن في العمل طبعًا عنصر الفن المتعمد، أي الدفع بالشخصية إلي أقصي مدي ممكن، أقصي حدود تحملها".

ويقول موضحًا: "كنت أريد أن أكتب بغرض الاحتفال بمجتمع أنا عهدته وأحببته كنت أريد أرد له الجميل بأن أحتفي به في قصة، والقصة كلها قائمة في الواقع علي أساس إيجابي كامل، مع أن الشخصية الأساسية تبدو وكأن إيجابياتها محدودة ثم تنفجر أعتقد من البداية كان اتجاهي أن أختار عمدًا شخصية تبدو كأنها لا تستطيع القيام بدورها كما يبدو وفي نهاية العمل أحاول أن أخلق لها هذا الدور.

وفي الكتاب نفسه أعلاه يتحدث الطيب عن علاقته بالسودان، وذلك في حوار أجرته معه الصحافية اللبنانية هدي الحسيني، يقول: "علاقتي بالسودان علاقة انتماء داخلي عميق مع شيء من العاطفة"، ثم يستطرد قائلاً: "علاقة الكاتب ببلده علاقة تقوم علي الحب المسرف والضيق المسرف، والضيق سببه الحب لأن الإنسان يحب المكان والأرض والذكريات".

وعند سؤال له إن كان حزينًا، يقول الطيب: " في الداخل أجل لكنني لا أدري لماذا؟ كل ما أعرفه أن في داخل النفس، بركة واسعة من الأحزان تثير فيه كوامن الشجن"، ويضيف قائلاً: "لا أدخل في الكتابة باندفاع بل باضطرار".

وأنظر إليه حين يضطر مرغمًا للكتابة، ودافعه بلا شك ألم ممض، مصدره حب أكيد للوطن، ولقيم مجتمعية ووجدانية فيه، يؤمن بها، وظل يذود عنها بكل ما أوتي من قوة ككاتب وما باليد من حيلة أخري سوي الكتابة، وقد حباه الله بالحكمة في حاله ومقاله، وبقدر وفير من مجامع الكلم.

أذكر حين أناخ علي السودان انقلاب عسكري قبل عقد من الزمان، ورأي الطيب ما آلت إليه الحال، وما حاق بأهلنا من ذل وقهر وعذاب، أن قال متسائلاً في عجب: " من أين جاء هؤلاء؟!" كلمة موجزة كان لها دوي رهيب،

وصدي من كل جانب والطيب لا يخشي في قول الحق لومة لائم.

وأذكر كنت أعمل تحت إدارته بالدوحة، حين كان مدير الدائرة الإعلامية في دولة قطر أن جاءنا وزير للخدمة العامة والإصلاح الإداري، في عهد حكم النميري، يستحثنا علي دفع مزيد من ضرائب ومكوس ودقنية بعد أن أرهقوا كاهلنا بالمساهمات الإلزامية، وبالتحويلات المالية الإلزامية أيضًا، ناهيك عن زيادة رسوم الخدمات القنصلية وما إلي ذلك من لي للذراع من حيث يؤلم، تفننوا في ابتداعها كلما أفرغوا خرينة الدولة من مال عام، فحين جاء دور الطيب في الكلام قال: " يا أخي الوزير، حلونا من اللف والدوران زيدوا رسوم استخراج جواز السفر لأي حد إنتوا عاوزينو، وخلصونا حتي نرتاح منكم، بدل ما تجونا ناطين علينا كل يوم والتاني" رد عليه الوزير "حيدر كبسون" وقد كان شابًا فاضلاً بحق: " قروشكم ح نأخدها .. ح نأخدها، لكن برضو بنجيكم"، وكان يضحك مقهقهًا حتي كاد أن يقع من علي ظهر كرسيه علي المنصة فضحك الطيب بدوره وهو يضرب كفًا بكف قائلاً للوزير الغارق في ضحكه: "لا حول ولا قوة .. والله حكاية".

للطيب في أدبه موقف ثابت إزاء الضعيف المغلوب علي أمره تأمله في قصة "نخلة علي الجدول" من مجموعة قصص "دومة ود حامد"، وما جري لشيخ محجوب، الفقير صاحب النخلة التي زرعها حتي أثمرت وجاءه التاجر حسين يراوده علي شرائها منه حين علم بحاجته الماسة إلي ما يكسو به عياله، وحق الخروف، وعيد الأضحية علي الأبواب، ووقوف الطيب إلي جانب الفقير المعدم المؤمن بقضاء الله وقدره، وأن الخالق رازق، ومن ثم صموده في وجه إغراء الحاجة، والحاجة رق، فسد بعزيمته وتوكله واتكاله بابها بقوله للتاجر: "يفتح الله" وعندها جاءه الفرج.

وفي "حفنه تمر" من المجموعة نفسها، نري ما أقدم عليه الحفيد حين أدرك جشع جده، وسوء استغلاله لظروف مسعود المزارع الفقير المغلوب علي أمره يقول الطيب علي لسان الحفيد: " أسرعت العدو كأنني أحمل في داخل صدري سرًا أود أن أتخلص منه، ووصلت إلي حافة النهر قريبًا من منحناه وراء غابة الطلح، ولست أعرف السبب ولكنني أدخلت أصبعي في حلقي وتقيأت التمر الذي أكلت"[٠] وكان ذلك حفنة تمر أعطاه إيها جده، من حصاد نخل أخذه من مزارع معدم سدادًا لدين مستحق عليه، تبقي منه خمسون جنيهًا ما زالت علي رقبته يأمل الجد في حالة عدم تمكنه من سدادها أن يستولي علي بقية أرضه.

أذكر أني حين كنت أقوم بعمل رسوم لتلك المجموعة أن سألت الطيب: " لم لم يترك الحفيد يتقيأ بصورة تلقائية؟ .. فقال: "لابد أن يتم له ذلك بفعل إرادي، تعبيرًا متعمدًا منه لرفض القهر، وسوء استغلال الغني للفقير".

والطيب يولي كثيرًا من اهتمامه لتلك الرابطة المتذبذبة ثلاثية الأبعاد، التي تتأرجح بحسب طبيعة الإنسان وتبلور المجتمعات، بين الماضي والحاضر والمستقل، وذلك في شد وجذب بين طرفي حبل الزمن الممدود. ويرمز إلي تلك الرابطة الأزلية متمثلاً بالصلة القائمة ما بين الجد والأب والحفيد والأب، وهو الحاضر، حائر بين جدوي مرجعية يستند إليها بما مضي وما زال قائمًا من تراث وقيم ثقافية وحضارة، وبين ما هو لا محالة آت، والتي أشار إليها وظل يعالجها في لب قصصه "موسم الهجرة إلي الشمال"، و"ضو البيت"، و"بندر شاه"، "مريود" حيث بلورها في قالب تعاطف حميم، وشوق وحنان كما هي الحال في شعور الحفيد نحو جده، وفي كره وبغض ورفض عنيف، كما جري في نخلة علي

الجدول، وأحيانًا في تضافر وتآمر بين عنصري الجد والحفيد، ضد الرابطة الوسطي وهي الأب، كما يجري في "ضو البيت" و"مريود".

ويكتفي الطيب، تفسيرًا لتلك العلاقة المتذبذبة بقوله لهدي الحسيني في حوارها معه المشار إليه آنفًا: " إن الماضي والمستقبل في تآمر مستمر ضد الحاضر، أو أن الجد "بندر شاه" والحفيد "مريود" في تآمر مستمر ضد الأب، ومريود امتداد لشخصيات تسير في خط طويل لا ينقطع".

والطيب في حقيقته ورغم ما اكتسبه وواكبه معايشة وإدراكًا وتفاعلاً تامًا مع الحضارة الغربية والإنسانية المعاصرة بوجه عام، لا يزال يكتنز بين جوانحه حنينًا شديدًا إلي الماضي وقيم مجتمعه في شمال السودان وتحسرًا علي ما فات بحسب تغير الأحوال وتبدلها بمرور الزمن وما جد عليها من أوضاع غريبة شيئًا ما، مما ألفه الناس واعتادوه منذ أمد بعيد، كقيم إنسانية راسخة ما زال لها الكثير من الفاعلية والأثر، لا يريد لها تبديلاً ولا تحويرًا فتراه يركز علي تلك الجوانب، والأمر كما يبدو قد انقلب رأسًا علي عقب، والزمن غلاَّب، وقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

فاختلط الأمر، كما يصوره الطيب علي محيميد "بين صوت جده، ووجه بندر شاه وحفيده مريود الجالس عن يمين جده، نسخة أخري منه، تتشابهان حتي كأنك تنظرإلي أصل واحد، لكن ما إن يستقر بك اليقين حتي تغرق في بحر من الضلال" ويقوم الحفيد بجلد أعمامه الأحد عشر (أبناء بندر شاه) وجده الجالس علي العرش يسمع ويري يبتسم في رضا ويشير بيده إذا شاء حتي يكف عن الضرب أو يستمر.

نلمس هذا التغيير الذي حدث في بيئة محافظة يصوره الطيب في "ضوء البيت" كصراع للأجيال إذا يقول سعيد صاحب المتجر في القرية لرفاقه في جلستهم المسائية المعتادة أمام دكانه: " حكاية غريبة حصلت ما عرفنا أولها من آخرها أولادنا أصبحوا ضدنا المدارس فتحناها بالعرق والتعب والجري هنا وهناك طلعت أولاد بقوا يتفاحصوا علينا. البلد أتاريها اتلخبطت تحت رجلينا ونحن نايمين نوم العوافي".

كان ذلك يوم انتصار أولاد بكري علي خالهم محجوب، وفوزهم بمناصب الجمعية التعاونية تولي سعيد عشا البايتات، الذي كانوا يلقبونه في الماضي بسعيد البوم الرد علي سعيد التاجر، إقرارًا بواقع مستجد "جملة الإيمان البلد حاصل فيها خير، البلد ماشية علي خير"، ويقول عن محجوب الرئيس السابق للجمعية، ومن أسماهم بعصابته: " إنتو ناس إما تبقوا حكام، أو تقولوا البلد خربت".

ومع نيل البلاد استقالها، وما جد عليها من أوضاع سياسية وإدارية استمع إلي الطيب وهو يقول علي لسان الطاهر ود الرواسي في "ضو البيت" ردًا علي تساؤل محجوب عن صعوبة إيجاد وزارة للطريفي ود بكري الذي صعبت عليه حتي إدارة الجمعية التعاونية، التي استحوذ عليها مع جماعته في البلدة، بعد أن تمكنوا من إزاحة خاله محجوب عنها يقول الطاهر: "أنت تفتكر الحكاية بالكفاءة الموضوع كله أونطة المهم تبقي فصيح لسان وقليل إحسان بس كتر من يحيا ويعيش. شوف الحزب القوي أدخل فيه. شي خطب وشي عوازيم وشي براطيل شويتين شويتين تلقي نفسك بقيت نائب في البرلمان بعد داك أرقد قفا".

ويقول في رده علي محيميد: " إذا ما عملوني وزير جملة الإيمان أعمل عليهم انقلاب" .. " وبعدين كما شنو؟ ما خلاص أرقد قفا أي حاجة عاوزها

اضرب الجرس، ادخل يا فلان، وامرق يا فلان فلان عينتك مدير فلان حكمدار فلان سويتك باشمفتش فلان حكايتك بايظة معاي، دخلتك السجن· فلان ما توريني خلقتك فلان حبابك عشرة· وقتين أمرق بالعربية الشفرليت وسط البلد، تهتف: يعيش الطاهر ود الرواسي، يحيا الطاهر ود الرواسي· خلاص بقيت حاكم عام".

ما يشير إليه الطيب صالح في أدبه، والذي يبدو كأنه وضع طريف من نسج خيال قصصي هو في حقيقة الأمر واقع معاش، نشكو منه اليوم لا في سوداننا فحسب، بل في كثير من بلدان عالمنا الثالث، والثاني، ولربما الأول كذلك إلي حد ما، وذلك بحسب ما نشاهد ونري علي شاشات التلفزة من حين إلي آخر.

والطيب شخص ذو حدس دقيق وبصيرة نافذة وكأنه ينظر بعين المستقبل· لن أنسي نصحه لي في لندن عام ١٩٧٢، حين استدعيت إلي السودان في مهمة رسمية إبان حكم النميري، بدعوي إنشاء مصلحة للثقافة ورعاية المجلس القومي للآداب والفنون، قال لي يومها: "يا زول خذ حذرك من الجماعة ديل· خليك معانا هنا، أحسن ليك" فقلت له: " يا أخي الطيب هذا داعي الوطن، ولابد من الإجابة، ولو ما عملنا لبلدنا من سيعمل له". فقال لي بهدوئه المعهود: " غايته أنت طبعًا مخير، لكن أنا نصحتك وأنت حر"· وقد كان .. ما تذكرت نصحه إلا بعد أن وقعت الواقعة، وأنا بضيافة الدولة في سجن "كوبر" دون ذنب جنيته، ولمدة ستة أشهر وثمانية أيام حسومًا، اليوم فيها بمعدل سنة بحالها، ومن هول القهر والمذلة والمهانة.

ظل الطيب، خلال تلك الفترة، وهو نعم الصديق الوفي· يسعي جاهدًا للإفراج عني وفك ضائقتي حتي تكلل مسعاه بالنجاح بدعوتي للعمل معه في دولة قطر أذكر أني قبل مغادرتي السودان متوجهًا إلي الدوحة جاءني من يقول لي من قبل جهة لا أدري كنهها "يا زول ما تسافر .. الريس مفكر في تعديل وزاري قريب، وعاوز يعملك وزير"، فتذكرت نصيحة الطيب لي، وقوله "يفتح الله" علي لسان سعود في قصة "نخلة علي الجدول" فهرولت إلي المطار علي عجل والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ما يورده في أدبه من مفارقات عجيبة هي الواقع بعينه ومن يكذب فليجرب وذنبه في عظم رقبته ويا للعجب إذا لا عذر لمن أنذر.

يقول الطيب لسان الراوي محيميد في "ضو البيت" ردًا علي استفسار صديقه الطاهر ود الرواسي عن أسباب تقاعده المبكر: "أحالوني علي التقاعد لأني لا أصلي الفجر في الجامع، عندنا في الخرطوم حكومة متدينة رئيس الوزراء يصلي الفجر حاضرًا، وفي الجامع كل يوم وإذا كنت لا تصلي، أو تصلي وحدك في دارك فسيتهمونك بعدم الحماس للحكومة· أن تحال علي المعاش كرم منهم.

ثم يستطرد قائلاً: "بعد عام أو عامين أو خمسة ستجيئنا حكومة مختلفة· لعلها غير متدينة وقد تكون ملحدة· إذا كنت تصلي في دارك أو في الجامع فإنهم سيحيلونك للتقاعد، بتهمة التواطؤ مع الحكومة السابقة".

واستمتع إلي دقة وصفه الساخر في موسم الهجرة إلي الشمال وهو يقارن بما صار إليه الحال، وما ألم بالقارة بأكملها عقب نيل الاستقلال، وما أصاب قادتها من تدهور وقصور واهتمام فارغ بالمظهر لا الجوهر.

يقول الطيب علي لسان محيميد، واصفًا لمحجوب رفيق صباه ما دار في المؤتمر الذي حضره مؤخرًا في موقع ما بأفريقيا: "لن تصدق أن سادة أفريقيا

الجدد، ملس الوجوه، أفواههم كأفواه الذئاب، تلمع في أيديهم ختم من الحجارة الثمينة، وتوفح نواصيهم برائحة العطر، في أزياء بيضاء وزرقاء، وسوداء وخضراء من الموهير الفاخر والحرير الغالي تنزلق علي أكتافهم كجلود القطط السيامية، والأحذية تعكس أضواء الشمعدنات تصر صريرًا علي الرخام".

ويضيف: "لن يصدق محجوب أنهم تدارسوا تسعة أيام مصير التعليم في أفريقيا في (قاعة الاستقلال) التي بينت لهذا الغرض وكلفت أكثر مليوني جنيه، صرح من الحجر والأسمنت والرخام والزجاج مستديرة كاملة الاستدارة، وضع تصميمها في لندن ، ردهاتها من رخام أبيض جلب من إيطاليا، وزجاج النوافذ ملون قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك، أرضية القاعة مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة والسقف علي شكل قبة مطلية بماء الذهب تتدلي علي جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم".

هذا وصف لاذع أبدع الطيب في نصه، لا يبعد في حقيقته قيد أنملة عن واقع الحال، يعكس بصدق ما وقع لدينا، ولدي الجار وإلي سابع جار، إذا الوضع في معظم الأحيان واحد وإن اختلفت السحن والأسماء والأعلام إنه واقع لا خيال قصصي، وما أمره من واقع مر معاش، اهتممنا فيه بالقشور من دون اللباب أوصلتنا إلي متاهات الضلال والضياع، كدنا معها أن نفقد فيها هويتنا، أو أننا قد فقدناها فعلاً ضمن ما كنا، ولا ندري من نكون.

أدب الطيب صالح يتكامل أصلاً بالبحث عن الذات، ذات الإنسان البشرية استجلاء للحقيقة واستخلاصا منها للحكمة، من واقع إدراك تجارب الفرد والجماعة في حياتنا العامة والخاصة· والكاتب المبدع ذكرًا كان أم أنثي قد حظي بتلك النظرة الثاقبة التي تستشف بقراتها الفردية ما وراء حجب المجتمع، لتصل إلي ما هو أصيل وثابت علمًا بأن كل ما هو مرئي وملاحظ غير دائم، إذ

الجسد سيبلي، والعقل سيهرم ويفني، وما حولنا مآله إلي الاندثار لا محالة، ولن يبقي علي صعيد الحياة الدنيا سوي الوعي المدرك في حاضر الذات، والدوام لوجه الحي الذي لا يموت.

وحقيقة أصالة الفنان الكاتب صاغها جلال العشري في مطلع مقالة له بعنوان "زوربا السوداني"، نشرت في كتاب "الطيب صالح" المشار إليه آنفًا. إذ يقول: " الأديب أي أديب يكون أصيلاً بمقدار ما يتمثل بيئته. ويكون معاصرًا بمقدار ما يعبر عن روح عصره. وهاتان القيمتان الأصالة والمعاصرة هما الركيزتان اللتان يدور حولهما أدب هذا الأديب الطيب صالح". وهو مدخل صادق في تحديد عنصري أصالة ومعاصرة الطيب صالح، من حيث إنه أي الطيب صالح، يستند أساسًا إلي نبع يدرك، لنهه ويلم إلمامًا تامًا بجميع أبعاده وأحداثه ودقيق ألفاظه ومعانيه نبع ثر ومعين لا ينضب نهل منه طوال حياة عاشها وظل يعايشها أمد الله في عمره علق منها في صميم وجدانه قيم قديمها التليد وزخم حاضرها وأحب أناسها حبًا خالصًا لا يشوبه غرض، دافعه الانتماء بصدق وإدارك فأحبه كل من عرفه إن كان قريبًا، وعلي البعد. أناس، ظل يسعي وهو في الغربة علي رد الجميل إليهم.

ومن جانب آخر فهو يستند كذلك إلي دعامة أخري، قد تكون غريبة شيئًا ما عن دعامة بيئته الأولي، ألفها بعد أن تجول متفحصًا في ربوعها، وتزود منها بذخيرة حية من علم وتجارب إنسانية عبر تاريخها وحاضرها، فواكبها دراسة وعملاً وإبداعًا، مرتكزًا علي ما بحوزته من إرث ثقافي مختزن وزخم تحضر عالمي معاصر اكتسبه بعرق جبينه، ومنعة عضده، وجهده الفكري النير.
وكتابه "موسم الهجرة إلي الشمال"، إن لم يكن جميع ما كتب من قصص وروايات ومقالات وأفكار، يقوم دليلاً واضحًا وبينة كبري علي نبوغه وعبقريته،

نسج موسمه بأسلوب ناضج وفريد، عالج به موضوع القلق الإنساني الباحث عن تحقيق أقصي ما تطوله النفس البشرية من آمال وطموحات، حيث تتجاوز بحد جرأتها، وبحسب نضج قدراتها وتجربتها الفردية، نطاق ثقافتها وبيئتها المحلية، تعبره إلي آفاق بعيدة .. كثيرة التحدي متقبة، تكاد لا تستقر علي حال فتضارع أهل تلك الآفاق، مقتحمة عليهم أبواب ما ظنوا أنهم وحدهم القادرون عليه، وأن الغير ليس بند لهم فأقاموا في وجهه قلاع الكبر والحصون والعزل.

ثم يتخذ الطيب منحي خاصًا بانتقاء ساحة معينة من ساحات النزال ميدانًا دراميًا لمعركة أزلية تدور رحي حربها بين عنصري الذكر والأنثي. اختارها بعناية فائقة ودقيقة للغاية ليصور فيها روح التباين والتمرد وانقلاب الأوضاع بعد النصر والقبول، ويدور في الساحة صراع عنيف مدمر للطرفين تتداخل في أرجائه الآمال والظنون والأشواق والأوهام والأكاذيب المختلفة ودفين الرغبات المكبوتة وكسر القيود والمحظورات .. ساحة الكل فيها هالك.

يقول مصطفي سعيد عن آن همند، إحدي خليلاته: "كانت عكسي تحن إلي مناخات استوائية، وشموس قاسية، وآفاق أرجوانية كنت في عينيها رمزًا لكل هذا الحين وأنا جنوب يحن إلي الشمال والصقيع تقول لي إنها تري في عيني لمح السراب في الصحاري الحارة، وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات وأقول لها إنني أري في زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل.

ويستطرد: "وفي لندن أدخلتها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة التي بنيتها عن عمد، أكذوبة أكذوبة، الصندل والند وريش النعام تماثيل العاج والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخل علي شطان النيل وقوارب علي أشرعتها كأجحنة

الحمام وشموس تغرب علي جبال البحر الأحمر وقوافل من الجمال تخب السير علي كثبان الرمل علي حدود اليمن أشجار التبلدي في كردفان وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنوسير والشلك حقول الموز والبن في خط الاستواء والمعابد القديمة في منطقة النوبة، الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق، السجاجيد العجمية والستائر الوردية والمرايا الكبيرة علي الجدران والأضواء الملونة في الأركان.

ووصف الطيب صالح هنا، لما يحمله صدر القادم من الجنوب في مسيرته نحو الشمال، وصف دقيق ومعبر يجري في النفس من مجمل الذكريات، كانت واقعًا فصارت خيالاً ظله عالق بالذهن، ويتمثل صداه المسترجع ويتجسد فيما يجمعه ويحمله المهاجر معه من أشياء، طنافس وأغراض هي بمثابة الرمز الذي كان أو كان، متخيلاً لا حقيقة في عالم الواقع، ومصطفي سعيد في تقديري ما هو إلا تشخيص لما هو علي درجات متفاوتة في نفس كل منا، ألحظ أجزاء منه في بيت كل مغترب عن وطنه.

ويقول الطيب بهذا الخصوص في حوار له مع محيي الدين صبحي، نشر ضمن كتاب "الطيب صالح .. عبقري الرواية العربية" المشار إليه آنفًا: "الشرق والبخور والعطور مجرد أوهام" و "لقد تجاوزنا هذه المرحلة، وبدأت مرحلة ارتطام حقيقي وعنيف" و "إننا الآن نحطم الأوهام".

وتحضرني في تلك المناسبة حادثة طريفة حينما كنت أعمل مساعدًا للملحق الثقافي بسفارة السودان في لندن، وقد شحنت من السودان صندوقًا سحارة سبق أن أشتريتها في نيويورك قبل ذلك بأعوام عند انتهاء فترة إقامتي في أمريكا، وضعت في داخلها قبل مغادرة أم درمان بعض ما استعين به في ديكور

شقة استأجرتها لي السفارة بميدان برامهام جاردنز في حي إيرلز مورت وصدف يوم وصول السحارة أن زارني علي موعد كل من الصديقين الطيب صالح والشاعر سيد أحمد الحردلو، للتسامر وطرق مواضيع شتي أوصلتنا بطبيعة الحال، ونحن في الغربة إلي شخصية مصطفي سعيد، والتي كان الطيب شتي بإطلاقها علي كل منا بقدر، كلما لحظ فينا ملمحًا يشير إلي مصطفي سعيد.

وحانت من الطيب في تلك الأمسية التفاتة إلي سحارتي الحديد الضخمة التي تركها الحمالون في وسط الردهة عند مدخل الشقة· فقال لي: "شن فيها سحارتك دي يا زول؟"وما كدت أفتحها حتي غمرتي موجة من الضحك، شمل الآخرين ما إن أطلا علي ما فيها من عكش، وطنافس وبخور، وعطور، ومصنوعات يدوية من أنحاء السودان كافة، أسهب الطيب سلفًا في وصف مثيل لها في "موسم الهجرة"فقال لي عنده "هذا والله يا زول هو صندوق مصطفي سعيد بعينه" وأنا أحاول جاهدًا نفي التهمة عن نفسي، علي اعتبار أن ما حواه صندوقي ما هو إلا ديكورات شعبية وطنية، لا تقدم ولا تؤخر في الأمر شيئًا، ولا دخل لها بمصطفي سعيد لا من قريب أو بعيد.

هذا وقد ظل مصطفي سعيد كما يروي الطيب صالح، يواصل غزواته، غير عابئ بمصير ضحاياه، إلي أن جاءته يومًا تلك الأنثي التي أدركت بفطرتها غوره، فأغرته بما يطمح إليه حتي تحققت من رغبته فيها فخانته وأحطت من قدره، وأذلت كبرياءه كانت له بمثابة سوط عذاب يؤرق مضجعه دون أن تمنحه ذرة مما كان يتوق إليه· وقد استحكمت الحلقات.

فيقول مصطفي سعيد: "كنت صيادًا فأصبحت فريسة"· ويقرر مشيرًا في يأس إلي جين مورس "هذه المرأة هي قدري وفيها هلاكي ولكن الدنيا كلها لا

تساوي عندي حبة خردل في سبيلها· أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيًا، أنا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك، ولكني لا أبالي".

بينما تتفنن جين مورس في تعذيبه، وإشعال نار رغبته فيها، وإحباطه، ولم ترضخ له وهي الزوجة، إلا يوم قوي علي قتل الرغبة المشتعلة تجاهها في نفسه يومها أقدم علي ذبحها قربانًا لعذابه، ليعود آخر الأمر إلي بلده، عاريًا صفر اليدين مما اكتسب، ما في جعبته سوي قصاصات من ذكريات عفا عليها الزمن، ليبقي مزارعًا عاديًا يفلح أرضًا في قرية نائية إلي يوم ابتلعه النيل، ولم يبق منه سوي ذكري غامضة، مغلقًا عليها في غرفة مظلمة، أورثها من سار علي الدرب وعاد.

يتساءل كثير من الناس عما إذا كان في قصص الطيب شيء من الواقع تجاربه الشخصية، أي قلب الواقع وبلورته إلي خيال· ويسأله سيد فرغلي مستفسرًا بهذا الخصوص، في حوار أجرا مع الطيب، نشر في كتاب "الطيب صالح .." المشار إليه آنفًا، قائلاً له: " يقال إن شخصية بطلك المعروف مصطفي سعيد فيها ملامح كثيرة منك .. فما رأيك؟".. رد عليه الطيب قائلاً: " لا أظن أنني أكتب لأقص للناس قصة حياتي، وهي علي كل حال حياة عادية لا تصلح قصة، أظن أنني أحاول أن أعبر عن آراء مهما تكن، في قالب فني متعمد، وشخصيات هذه القصص لا صلة لها بالواقع إلا بقدر ما يكون الفن مشابهًا للواقع" ويردف قائلاً: "يا ليت لي ذكاء مصطفي سعيد وفحولته وإصراره".

والطيب لمن يعرفه عن قرب، شخص كثير الاعتدال في حياته، طيب إلي أبعد حدود الطيبة، قنوع غير منافس، لا يطمع فيما في يد الغير، شهم كريم هادئ الطبع جواد ما بيده يطلقه كالريح المرسلة سعيد في حياته الزوجية وقد اقترن بسيدة بريطانية فاضلة، رزق منها بثلاث فتيات هن قرة عينيه، قد أشرف علي السبعين، ولا يزال حفظه الله، شابًا، والعين عليه باردة.

وحسب معرفتي فصحيح ما قاله بشأن شخصية مصطفي في "موسم الهجرة إلي الشمال"، ألا صلة لها بواقعة الشخصي لا من قريب أو بعيد، بل هي محض خيال، صاغها ليدلل بها علي وضع وصراع معين، استلزام خلقها ليربط بها بين عالمين متباينين، يختلفان أصلاً، ويلتقيان أحيانًا علي قدم المساواة.

أما فيما يتعلق بشخصياته الأخري فهناك كثير من أوجه الشبه يكاد أن يصل بها إلي التطابق مع أفراد من أهل قريته في شمال السودان، وقد سبق لي أن زرتها خلال النصف الأول من السبعينيات، أيام فرض علي المخرج السينمائي الكويتي، خالد الصديق أن أقوم بتمثيل شخصية " الشيخ الحنين"، في فيلم "عرس الزين" وقد أشار الطيب مؤكدًا ذلك في حديثه مع محيي الدين صبحي الذي ورد ذكره آنفًا إذ يقول الطيب عن أشخاصه في رواية "عرس الزين": "إن مادة الرواية وشخصياتها ساعدتني علي إيجاد هذا الاحتفاء بمجتمع أعرفه وعشت فيه، والشخصيات فيه هي أهلي كما عرفتهم إلي حد كبير".

والميزة هنا تكمن فيما بلوره الطيب لتلك الشخصيات بإعطائها الأدوار التي تناسب أوضاعها في قالب فني متماسك ومتوازن.

وإلي جانب هذا وذاك، هناك ما يمت إلي الطيب بصورة شخصية بحتة، يورده الطيب في أدبه ضمن نسيج الخيال. أحس معه أحيانًا بأن في وجدانه

خيال أنثي مبهمة، طويلة أبعاد الوجه، كبيرة الأنف، واسعة الفم، خيالاً ظل يؤرقه، ولعل قلبه يهفو إليه، والله أعلم، إذ لحظت أنه كان يبدي إعجابه، ولكن دون ملاحقة أو متابعة كلما رأي أنثي كبيرة الأنف، كبعض نساء الخليج، وبلاد فارس، والشرق الأوسط والسودان، يقول في زفرة حري فيها شيء من الشوق "هااااا" ويغض الطرف.

يستفسره بهذا الخصوص جلال العشري في حواره المشار إليه سابقًا، إن كانت حسنة بنت محمود، أرملة مصطفي سعيد، هي الأنثي التي يبحث عنها الطيب صالح في واقع الأمر، أي امرأة سودانية بحتة مثل حسنة، التي اختصها الطيب في وصفه لها بمزيد من حنان ولوعة وحرقة حرمان.

تكرر وصف الطيب لتلك الأنثي التي تستثير خياله، ويستعذب مرآها، إذ يقول في موسم الهجرة علي لسان محيميد وهو يتأمل اللوحة التي رسمها مصطفي سعيد لجين مورس، ووضعها أعلي المدفأة في الغرفة المغلقة التي تركها وأورث ما فيها لمحيميد: "جين مورس، هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير· نظرت إلي الوجه بإعجاب· وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما، الأنف يميل إلي الكبر· والفم يميل إلي الاتساع والتعبير علي الوجه شيء صعب وصفه في كلمات تعبير رهيب، محير، الشفتان الرقيقتان كطبقتان كأنها تعض أسنانها والفك مائل إلي الأمام في كبرياء، هل التعبير في العينين غضب أم ابتسام؟ وثمة شيء شهواني يرف علي الوجه كله· هذه هي إذن العنقاء التي افترست الغول".

ذاك وصف رسام مصور ساحر، يستشف من خلال معالم الوجه دفين النفس البشرية، وما تثيره وتوحي به من أفكار ورغبات، تترك في النفس علي صفحة الوجدان أثرًا كالجرح، لا يشفي منه صاحبه ولا يندمل.

وفي موقع آخر، في كتاب آخر يرد وصف لتلك الأنثي، إذ يقول الطيب علي لسان الراوي في قصة "هكذا يا سادتي": " هذه الفتاة لم تبتسم لي؟" ألأنني أجنبي لأن أنفها كبير وفمها واسع وعينيها زرقاوان؟ أهل هذا البلد يحبون المرأة دقيقة الأنف صغيرة الفم، دعجاء العينين" ويسترسل "تذكرت الأنف الكبير، غيري كانوا يحسبونه قبيحًا، وكنت أراه جميلاً .. جميلاً .." و "رأيت فمًا واسعًا"و "مضي علي هذا عامان، وما زال الجرح ينفر في قلبي، ولا تزال تتراءي لي عند منعطف كل طريق هذه المرأة .. "

سألته هدي الحسيني في حوارها معه، المشار إليه آنفًا عن ماهية أفكاره الخفية، فرد عليها الطيب بقوله: " سيمضي زمن طويل قبل أن أبوح بها. هنالك أسرار لم أدركها بعد، وعملية الاكتشاف هي في الواقع إدراك الأشياء الموجودة ونحن لا نعرف أنها خفية".

ولقد مضي بالفعل زمن طويل، وقد بدأ الطيب، والقلب في حال صفاء برفع الأستار، والبوح بدءًا بما أورده من رؤي في "الرجل القبرصي"، وما سيتلوه، إن شاء ربي، وسمح الزمان، كثير وكبير. ويعجبني قوله علي لسان أحد أشخاصه، ولعله الطاهر ود الرواسي، في موقع ما من مدي العمر.

موسم الهجرة إلي الشمال

أحمد عبد المعطي حجازي

لا يفصل بيني وبين الطيب صالح في العمر إلا ست سنوات• هـو ولـد فـي آخـر العشـرينيات، وأنـا ولـدت فـي منتصـف الثلاثينيات، فنحن شقيقان في جيل واحد، هو من بواكيره وأنا من خواتيمه، ومع هذا فقد تأخر لقاؤنا الأول، فلم يتم إلا في أوائل الثمانينيات في باريس التي قَدِم إليها من إحدي إمارات

الخليج، حيث كان يشغل منصبًا مرموقًا، ليعمل في منظمة اليونيسكو، في الوقت الذي كنت أعمل فيه في جامعة باريس.

ولست أذكر أين التقينا أول مرة، والظاهر أن اللقاء الأول كان عابرًا، فلم يلبث أن غامت صورته في نفسي، واختلطت بصور اللقاءات التي تتالت بعده بصحبة أصدقاء آخرين، منهم أحمد البديني، وعبد الرشيد الصادق، ونهاد سالم، ومحمد بن عيسي، وتحولت إلي جلسات وسهرات طويلة انعقد بعضها في عددٍ من المقاهي وبعضها في منزله أو منزلي أو منازل الآخرين، إذ كانت تتخذ في أحيان أخري طابع الزيارات العائلية.

ومن المنطقي أن تكون هجرة الطيب صالح المبكرة إلي إنجلترا للدراسة، ومن ثم للعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، سببًا لتأخر هذا اللقاء الذي لم يتحقق إلا بعد أن اضطررت أنا كذلك للهجرة إلي فرنسا غير أن البُعد الجغرافي ليس هو السبب الوحيد، أو فل أقل بعبارة أوضح إنه لم يكن جغرافيًا فحسب، بل كان بُعدًا نفسيًا شكّلته الظروف السياسية التي سادت مصر والبلاد العربية الأخري في الستينيات، والخصومات العنيفة التي شبّت بينها وبين الدول الغربية، لاسيما بريطانيا وقد باعدت هذه الخصومات بيننا وبين زملائنا من الكتّاب العرب الذين قُدّر لهم أن يقيموا ويعملوا في أوروبا الغربية خلال تلك السنوات· هذا البُعد النفسي هو الذي حال بيني وبين قراءة الأعمال الأولي للطيب صالح، وفي مقدمتها روايته البديعة "موسم الهجرة إلي الشمال"، إذ نُشرت أولاً عام ١٩٦٦ في مجلة "حوار" التي صدرت في بيروت، وشاع في أوساط المثقفين المصريين والعرب أن جهات أمريكية تموّلها وتستخدمها· وقد كنت أنا شخصيًا من بين

الذين قاطعوها واتخذوا منها موقفًا سلبيًا إن لم أقل عدائيًا أدي إلي منعها من دخول مصر قبل أن تتوقف عن الصدور.

في تلك المرحلة راجعت بقدر معقول من المنهجية والتركيز ثقافتنا الحديثة كلها، بداية من إرهاصاتها في النصف الأخير من القرن الثامن عشر علي أيدي الشبراوي، والزبيدي، والجبرتي، والعطار، وتلاميذهم وفي المقدمة منهم رفاعة رافع الطهطاوي، إلي أن دخلت مرحلة النضج والإبداع خلال النصف الأول من القرن العشرين علي أيدي محمد عبده، وشوقي، وطه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، وسلامة موسي، ومصطفي مشرفة، وسيد درويش، ومحمود مختار.

كما كان لابد لمسألة الشرق والغرب أن تنعكس علي شعري بطرق مختلفة شكلاً ومضمونًا، خصوصًا بعد أن أصبحت ترجمته إلي اللغات الأوروبية مسألة مطروحة، فما الذي يبقي من الأدب عامة ومن الشعر خاصة إذا تفلّت من لغته الأصلية ودخل في لغة أخري؟ وهل تتمثل خصائص الفن التي تعرف بها شخصيته وملامحه التي تنمّيه وتنسبه إلي ثقافة أمة بالذات. هل تتمثل هذه الخصائص في معانيه، أم تتمثل في لغته قبل أي شيء آخر؟ أريد أن أقول إن أكثر من دافعٍ في تلك المرحلة -أواخر السبعينيات- كان يدفعني إلي قراءة "موسم الهجرة إلي الشمال" ولقد قرأت الرواية، فكانت بالنسبة لي مفاجأة.

الطيب صالح كاتب عربي وسوداني بالذات. و"موسم الهجرة إلي الشمال" هي محاولته الأولي أو الثانية في فن الرواية. والرواية فن حديث في الآداب الإنسانية بصفة عامة، لأنها فن المدينة أو الطبقة الوسطي التي لم تظهر علي مسرح التاريخ إلا منذ قرنين. فالطيب صالح بأدواته الموروثة والمكتسبة من ثقافته

القومية خاصة، والأجنبية عامة كاتب مبتدئ محدود القدرات، لكنه فاجأنا في "موسم الهجرة إلي الشمال" بعمل مكتمل.

كان هذا هو انطباعي الذي بقي في نفسي طيلة السنوات العشرين الماضية، وإن كانت الرواية نفسها، أحداثها وشخصياتها، قد طارت شعاعًا من ذاكرتي، وتبددت تمامًا حتي وجدت نفسي محتاجًا إلي إعادة قراءتها، لأفهم سرّ افتناني بها، هذا الافتنان المقيم· في هذه المراجعة التي قمت بها للرواية خلال الأيام الماضية.

لم أكن أقرأ للاستمتاع كنت أريد أن أفهم انفعالي بهذا النص، وأن أفسّره وأبرّره وأكشف عن حياة النص الداخلية، لأري كيف تعمل أجهزته منفردة، وكيف تعمل في تكامل وانتظام، ليس لأني مطالب بهذا الكشف، فأنا لست ناقدًا، وإنما وجدت نفسي أمام عمل يمتّع القارئ بقدر ما يحاول الإفلات منه، كأنه الغانية التي تريك شيئًا وتخفي عنك أشياء· ولهذا لم تكن قراءتي هذه المرة ركضًا أو تدفقًا أو استعجالاً للوصول إلي النهاية.

وإنما كنت أتريث وأتلكأ، وأتصنع اللامبالاة، وأقرأ الصفحة مرات، وأعود إلي البداية من جديد، أتذكر واقعه أو أستعيد عبارة أو تشبيهًا، أو أتصور شخصية، ثم أجد نفسي محتاجًا لأكرر هذا مرات لأتمثل الرواية في تركيبها الحي أو في حركتها المنتظمة المنسجمة، كأنما هي أسرة يلتئم أفرادها ويفترقون أو منظومة من الكواكب والأقمار تدور كلها حول كوكب أصلي، ويدور كل منها حول نفسه، فيشرق ويغرب، ويقترب منا ويبتعد عنا محتفظًا بالمسافات التي تفصله عن أشقائه، وفيًا في الوقت ذاته للقرابة الحميمة التي تشدّه إليهم.

إنها رواية مزدحمة بالمعاني والدلالات والمقابلات، المقابلة أو المطابقة بالمعني الذي يقال عنه في الموسيقي CONTREPOINT، وهو وجود خط لحني أو أكثر في موازاة اللحن الأساسي يصاحبه أفقيًا، ويتآلف معه محتفظًا بمساره المنفصل وإيقاعه الخاص، فالرواية من حيث الشكل مغرية بقراءة متأنية.

وهي كذلك من حيث الموضوع، لأنها حلقة من سلسلة الأعمال الروائية التي تدور حول مسألة الشرق والغرب، التي نظر إليها المؤلف من زاويته الخاصة، فوجدها مسألة الجنوب والشمال وربما نظر أيضًا إلي عنوان رواية نجيب محفوظ "السمان والخريف" التي تدور حول موضوع آخر، لكن الاستعارة في العنوانين واحدة، وهي مستوحاة من هجرة طيور الشمال إلي جنوب البحر المتوسط، وهذا ما يشير إليه عنوان نجيب محفوظ وقد ذهب الطيب صالح إلي العكس، فجعل طيور الجنوب، وهو واحد منها، تهاجر إلي الشمال.

غير أن الخلاف بسيط ومسألة الجنوب والشمال تتضمن مسألة الشرق والغرب التي يشير إليها عنوان توفيق الحكيم الذي سبق الجميع إلي استعارة الطيور المهاجرة في روايته "عصفور من الشرق" وسواء أكانت المسألة شرقًا وغربًا أم جنوبًا وشمالاً، فهي في الحالين علاقتنا بالحضارة الأوروبية التي أعتبرها مادة التشكيل الأولي في الرواية العربية أو عنصرها الخالق المصور. فالرواية فن أوروبي غربي لا بطبيعتها، فالحياة الإنسانية لا تعرف الطبائع الثابتة أو العقليات المتمايزة، وإنما بوصفها شكلاً أدبيًا تاريخ يرتبط بتاريخ المجتمعات الغربية المتقدمة. فإذا كان تاريخنا الحديث يبدأ من بداية سعينا للحاق بالمجتمعات الأوروبية، فالدعوة لكتابة القصة والرواية كانت في جوهرها دعوة للاتصال بأوروبا والاقتباس من الحضارة الأوروبية، والنجاح الذي حققه الروائيون العرب وجه من وجوه النجاح الذي حققناه في دخول العصور الحديثة وفي هذا يقول إبراهيم المصري،

وكان من أكثر الكتّاب المصريين حماسةً لهذا الفن:"وإذا كان الأوروبيون قد بدأوا بقصص بوكاشيو وأضرابها، فقد بدأنا نحن بقصص ألف ليلة· ولكنهم تقدموا وتحضروا وتثقفوا وتخلفنا نحن في الطريق· ولما اهتدوا إلي أسرار العلم تبدلت نظرتهم إلي القصة وأودعوها الروح العلمية أي ملاحظة الواقع وتصويره وتحليله، وهذه الروح العلمية الممثلة في مجموع الجهود الثقافية التي قامت بها أوروبا، والتي يضطلع بها اليوم معظم أدبائنا، آخذة في تبديل نظرتهم إلي الأدب عامة، ولسوف تمكّنهم، ولا شك من ابتداع فن قصصي مصري وإنساني يسير مع الأدب القصصي الأوروبي جنبًا إلي جنب".

من هنا احتلّ موضوع الشرق والغرب في الرواية العربية المكان الذي احتله المديح في القصيدة العربية الكلاسيكية، كما وضع نظريتها ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"، وإن كان بين الموضوعين فرق شاسع· فالقصيدة الكلاسيكية عامة وقصيدة المديح خاصة ، تتغنّي بقيم وأعراف ثابتة تعبّر عنها بصِيَغ وتقاليد ثابتة· أما الرواية فهي تعبير عن الروح الفردية التي تميز الطبقة الوسطي وتميز ثقافتها، وهي بالتالي شكل أدبي مغامر يرفض الخضوع للتقاليد ويبحث عن التفرد· إلا أن الشعر بطبيعته هو فن التكثيف والتجريد والتعميم، أما الرواية، والنثر عامة، فهي الفن الذي يحفل بالتفاصيل والجزئيات والملامح المحددة والشخصيات الفردية.

فإذا كان هناك موضوع بالذات قد فرض نفسه علي الرواية العربية، وهو موضوع الشرق والغرب، فهو يعالج في كل رواية معالجة خاصة يستفيد فيها الكاتب بتجربته الحية المتميزة مدركًا أن نجاحه في كتابة روايته يتوقف علي تحرره من أي تصور تقليدي وتجاوزه لأي كتابة نمطية.

ومقابلة الشرق بالغرب أو الغرب بالشرق في الرواية العربية ليست مقابلة بين مكانين أو جهتين من الجهات الأربع، وإنما هي مقابلة بين تاريخين أو طورين من أطوار التقدم أو شرطين من شروط قيام الحضارة وبناء الشخصية· من هنا كان عنوان كتاب محمد المويلحي "حديث عيسي بن هشام أو فترة من الزمن"، الذي يعدّ إرهاصًا في الرواية العربية الحديثة· فهو رحلة في العصور الحديثة يقوم بها دفين ينهض من مدفنه متخذًا الكاتب الراوي دليلاً يقوده في شوارع القاهرة المعاصرة وشوارع باريس، كأنه الشاعر الروماني فرجيل يقود دانتي في طرق العالم الآخر رحلة تعاكس الأولي في كل شيء. فبطل "الكوميديا الإلهية" شاعر من أبناء الدنيا يرحل في الآخرة يقوده شاعر من أبناء الخلود، أما المنيكلي باشا بطل رواية المويلحي، فدفين يرحل في الدنيا أو يعود إليها حيًا، لأن الدنيا أصبحت تهمّ القارئ الحديث، كما كانت الأخري تهمّ أبناء العصور الوسطي.

الرواية إذًا فن علماني في مقابل الملحمة التي ارتبطت بالثقافة الدينية· وليس غريبًا أن يبدأ المسرح العربي الحديث بقصة مشابهة لقصة المويلحي التي ينهض فيها "أهل الكهف" من نومهم الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون.

نستطيع إذًا أن نعتبر "موسم الهجرة إلي الشمال" تجسيدًا لتلك العلاقة المتوترة بيننا وبين الغرب· هذا التوتر الذي يمكن التغلب عليه عند بعض الروائيين من خلال الاتصال الثقافي أو بانتصار النوازع الإنسانية المشتركة كالحب مثلاً، ويستحيل التغلب عليه عند البعض الآخر، لأن الشرق شرق والغرب غرب، أو لأن تاريخ العلاقة بينهما هو تاريخ العنف الدموي الذي لا ينتهي إلا بأن يقهر أحدهما الآخر، كما نري في "موسم الهجرة إلي الشمال".

تبدأ رواية الطيب صالح بداية هادئة، لكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة· فقد عاد الراوي من بعثته في لندن، حيث درس الشعر الإنجليزي، ونال درجة الدكتوراه، ووجد كل شيء علي حاله في قريته التي تركها في أحضان النيل جنوب الخرطوم، الأهل، والشمس، والنهر، وشجرة الطلح، والجدّ الذي اقترب من التسعين برائحته الغريبة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع· وصديق الطفولة محجوب المزارع· والشيخ طه ود الريس صديق جده الذي بلغ السبعين، وتزوج خمس نساء، وصار لأحفاده أولاد، وما زال قوي الهمّة يبحث عن أرملة أو ثيب وبنت مجذوب، وهي امرأة طويلة تقارب السبعين ولا تزال فيها بقايا جمال، وكانت تدخن السجائر وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق، كأنها رجل فيتسابق الرجال والنساء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرّج هؤلاء وسواهم من أهل القرية توافدوا يرحّبون بالابن العائد، ويسألونه عن أوروبا والأوروبيين: هل المعيشة غالية أم رخيصة؟ وهل النساء حقًا سافرات يرقصن علانية مع الرجال؟ فيقول لهم: إن الأوروبيين، إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلهم تمامًا، يتزوجون ويربّون أولادهم بحسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عمومًا قوم طيبون فتقول بنت مجذوب ضاحكة: خفنا أن تعود إلينا بنصرانية غلفاء! لكن الراوي يري بين مستقبليه رجلاً لم يعرفه ربعة، في نحو الخمسين، ليست له لحية، وشاربه أصغر قليلاً من شوارب الرجال في البلد· رجل وسيم ويسأل الراوي والده عنه فيجيبه: هذا مصطفي، غريب جاء منذ خمسة أعوام· اشتري مزرعة وبني بيتًا وتزوج حُسنة بنت محمود· رجل في حاله، لا يعرف الناس عنه إلا القليل.

هذا هو مصطفي سعيد، رسول العاصفة، وبطل الرواية أو بطلها الآخر، أو بطل الرواية الأخري، فـ"موسم الهجرة إلي الشمال" روايتان أو حكايتان في

رواية واحدة· وقد بدأت الرواية بحكاية الراوي التي ما كادت تبدأ حتي انقطعت فجأة، لتبدأ حكاية هذا الغريب المهاجر الذي أثار فضول الراوي، وحمله وحملنا معه إلي تاريخه الضبابي البعيد، ننقّب في أوراقه وصوره، ونقلّب في ذكرياته الأليمة الدامية.

إنه رجل غامض حتي بالنسبة إلي نفسه، لا يعرف عن أبيه الذي مات قبل أن يولد إلا أنه كان يتاجر في الإبل، ولم يكن له إخوة، فعاش وحيدًا يتيمًا في ضواحي الخرطوم مع أمه التي كانت بعيدة عنه كامرأة غريبة: "حين أرجع بذاكرتي أراها بوضوح شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم، وعلي وجهها شيء مثل القناعلا أدري قناع كثيف كان وجهها صفحة بحر لم نكن نتحدث كثيرًا وكنت، ولعلك تعجب، أحس إحساسًا دافئًا بأني حر، بأنه ليس ثمة مخلوق أبًا أو أمًا يربطني كالوتد إلي بقعة معينة ومحيط معين".

لهذا استجاب للرجل الذي جاء علي فَرَسٍ في زي رسمي والقبعة علي رأسه، يعرض عليه أن يذهب معه إلي المدرسة· ففي ذلك الوقت –أوائل القرن العشرين– كانت سلطات الاحتلال البريطاني في حاجة إلي موظفين متعلمين من أهل البلاد الذين كانوا يسيئون الظن في هذه السلطات وفي مدارسها، فلا يستجيبون لمثل هذه العروض لكن مصطفي سعيد كان يشعر بأنه حر، رغم أنه كان طفلاً ولا يزال، فقرر أن يمضي مع الرجل الذي أردفه علي الفَرَس خلفه وكان قراره هذا أول خطوة يخطوها في الطريق التي رسمها لنفسه.

كانت له مقدرة عجيبة علي الحفظ والاستيعاب والفهم، فطوي سنوات الدراسة الأولي في الخرطوم، وأصبح يتحدث الإنجليزية بطلاقة أهّلته للحصول علي منحة واصل بها دراسته الثانوية في القاهرة، ثم حصل علي منحة أخري

ليكمـل دراسـته في جامعـة لنـدن، آخـر محطـة في طريقـه إلي الشـمال، حيـث انعقدت خيوط المأساة.

رجل بلا تاريخ كأنه فكرة مجردة بقدر ما هو شخصية مفعمة بحياة قوية صاخبة: لم يرَ أباه، ولا تربطه صلة بأمه، ولا إخوه له، ولا ذكريات تشده إلي مسقط رأسه، ولا منزل له في الخرطوم، ولا أصدقاء: وها هو دون العشرين، شاب وسيم، متوقّد الذهن، يدرس الاقتصاد السياسي في جامعة أكسفورد، ثم يتخرّج ليعيّن محاضرًا في جامعة لندن، وهو في الرابعة والعشرين.

ليس مصطفي سعيد وطنيًا متعصبًا، ولا ثوريًا متطرفًا، بل هو رجل منكبّ علي عمله، ينهل من ثقافة الإنجليز، وينغمس في حياتهم يتردد علي حانات تشلسي، وأندية هامبستد، ومنتديات بلومزبري يقرأ الشعر الإنجليزي ويتحدث في الدين والفلسفة، وينقد الرسم، ويتكلم في روحانيات الشرق: يفعل كل شيء حتي يدخل المرأة في فراشه، ثم يسير إلي صيد آخر.

لقد جلب إلي فراشه فتيات من جيش الخلاص، وجمعيات الكويكرز، ومجتمعات الفابيين كان ينتظر أن يجتمع حزب الأحرار، أو العمال، أوالمحافظين، أو الشيوعيين ليسرج بعيره ويذهب ليلتقط رزقه من بين المناضلات المتحمسات!

في قاعة المحكمة الكبري في لندن، حيث وقف متهمًا بقتل زوجته جين مورس، واجهه الادّعاء بأنه في الفترة بين أكتوبر ٢٢وفبراير ١٩٢٣ كان يعيش مع خمس فتيات في وقت واحد، وكان يَعِد كلاً منهن بالزواج، وينتحل مع كل منهن اسمًا زائفًا، فهو حسن، وتشارلز، وأمين، وريتشارد: كأن تنكّره اعتراف بحقيقة يستشعرها أو خطر يتهدده، فما الذي بقي له من شخصيته القومية إلا اسمه ولونه؟ أو كأن نفيه لهذه الشخصية هو الثمن الذي يجب أن يدفعه لتقوم

العلاقة بينه والنساء الإنجليزيات· وهو شرط حاول أن يجعله متبادلاً ويطبّقه علي الطرف الآخر، فكان يحب من بعض عشيقاته أن يتقمصن معه دور شهرزاد، يركعن أمامه، ويغسلن أقدامه، ويرضين بأن يعاملهن معاملة السيد العربي القديم لحريمه وجواريه.

لكن مصطفي سعيد لم يحبّ أيًا من عشيقاته، لأنه كان يعلم علم اليقين أنه قادم من عالم آخر، وأن بينه وبينهن عصورًا من العنف الذي صنعه الأوروبيون بينه وبينهن المستعمرون والغزاة الرومان، والصليبيون، والإنجليز، والفرنسيون الذين اغتصبوا ثروات الشرق، ودمروا حضارته.

كان مصطفي سعيد إذًا ممزقًا بين عالمين: الجنوب الذي يحمله في دمه، والشمال الذي يمارس فيه حياته.

ولقد أعلن هذا التمزق عن نفسه بعنف صارخ يوم رأي جين مورس، وهي المرأة الوحيدة التي أحبها، وهي أيضًا المرأة الوحيدة التي أذلّته واحتقرته ورفضت أن تستجيب لإغراءاته، حتي إذا أمعن في مطاردتها طلبت منه أن يتزوجها فتزوجها، لكنها ظلّت تتهرب منه، ثم أصبح يشك فيها· فواجهها، وإذا بها تقول له: افرض أنني أخونك! قال إنه سيقتلها قالت وهي تبتسم ساخرة: أنت فقط تقول، لكنك لن تفعل!

وتمضي حياتهما علي هذه الوتيرة حتي يعود إلي منزله ذات مساء بارد داكن مكفهر، فيجدها في السرير مستلقية عارية وعلي وجهها شيء من الحزن، في حالة تأهب عظيم.

جلس علي حافة السرير ونظر في عينيها فنظرت في عينيه، وإذا هي لأول مرة مسلوبة الإرادة تتحرك بحسب مشيئته· رفع الخنجر ببطء فتابعت حدّه

بنظراتها، واتسعت حدقاتها بخليط من الدهشة والخوف والشبق ثم أمسكت الخنجر وقبلته بلهفة، وتأوهلت وقالت: أرجوك أنا مستعدة الآن وضع حدّ الخنجر بين نهديها، وشبكت هي رجليها حول ظهره ضغط ببطء حتي غاب كله في صدرها، وأحسّ بدمها الحار يتفجر، وهي تصرخ متوسلة: تعال معي! "وقالت لي: أحبك، فصدّقتها· وقلت لها: أحبك· وكنت صادقًا"· المرأة الوحيدة التي أحبها، قتلها· لكنه سيدفع الثمن، لا في هذه المحاكمة التي استطاع فيها المحامون والشهود أن ينقذوه من حبل المشنقة، بل في السودان بعد أن يقضي في السجن سبع سنوات، ثم يغادره ليتشرد في أصقاع الأرض، وأخيرًا يعود إلي بلاده يبحث عن مكان ينسي فيه ماضيه، فيشدّه قدره إلي تلك القرية التي رأينا أهلها في أول الرواية يستقبلون ابنهم العائد من إنجلترا، وبينهم هذا الرجل الغريب مصطفي سعيد الذي يثير فضول الراوي فيظل يطارده حتي يعرف حقيقته وفجأة، في ليلة قائظة من ليالي يوليو، وقد فاض النيل يرتفع الصراخ من بيت مصطفي سعيد الذي اختفي فلم يُعثَر له علي أثر. لقد مات غريقًا أو منتحرًا بعد أن ترك مع زوجته الجميلة وصية يكلف فيها الراوي بأن يقوم بعده علي تربية ولديه.

هنا يستأنف الراوي حكايته التي توقّفت بعد البداية بقليل، ليقدم لنا مصطفي سعيد وحكايته المثيرة وكان الراوي قد تسلّم وظيفته في وزارة المعارف، وأخذ يتردد علي القرية بين الحين والحين يزور أهله، وينفّذ وصية الرجل الذي ائتمنه علي أسرته ويفاجأ بالشيخ ود الريس يتقدم للزواج من حسنة أرملة مصطفي سعيد التي ترفض بإصرار، وتطلب من الراوي الوصي أن ينقذها من هذا الزواج الذي سيرغمها أهلها علي قبوله، بأن يعقد عليها هو، لكنه لا يفعل لأنه متزوج بالفعل، فيتمّ الزواج الذي ينتهي بمأساة عنيفة· فقد ظلت حسنة

تقاوم الشيخ المزواج الذي استبد به الهياج رغم شيخوخته حتي مزّق جسدها العاري بمخالبه، وانهالت هي أيضًا علي جسده فمزقته بالسكين

وهنا فقط نكتشف أن الراوي قد وقع في غرام الأرملة الضحية، فقد نزل عليه النبأ نزول الصاعقة، وها هو لا يجد إلا النيل يطفئ فيه حزنه وغضبه، حتي يتوقف في المنتصف بين الضفتين لا يدري إلي أيهما يتجه، إلي الجنوب أم إلي الشمال؟!

وفي اعتقادي أن الراوي ليس إلا الوجه المكشوف لمصطفي سعيد، كما أن هذا هو الوجه المستور للراوي، وفي الرواية أكثر من دليل علي ذلك، فهما يتبادلان الظهور علي مسرح الأحداث وقد هاجر كل منهما إلي الشمال وعاد، وأحب كل منهما المرأة ذاتها وانتهيا معًا في النيل كل علي طريقته.

وقد رسم الطيب صالح بطله في رجلين، وجعل روايته حكايتين ليسلط أحدهما علي الآخر، ويجعل الأولي بحثًا عن الثانية، وبهذا يشوّقنا، ويثير انفعالاتنا، ويرضي حاجاتنا للمتعة بما نقرأ ونتخيل ونتوقع؛ فإذا كان الرجلان مع هذا مختلفين بعض الشيء، فهذا شرط من شروط البناء المحكم الذي يزداد جمالاً وصلابة بتعدّد الاحتمالات ووجاهتها كلها في الوقت ذاته.

وربما رأينا بالمثل أن الجنوب والشمال في هذه الرواية وجهان لحقيقة واحدة؛ فالإنجليز كما قال الراوي "مثلنا تمامًا، يتزوجون ويربون أولادهم، وهم عمومًا قوم طيّبون"؛ وإذا كانت جين مورس –وهي ترمز في نظر البعض إلي أوروبا– قد قتلت بيد مصطفي سعيد الذي يرمز إلي الجنوب، فهي المرأة الوحيدة التي أحبها، فإن كان قد تزوج بعدها حسنة بنت محمود، فقد لقّنها ما تعلمه في

الشمال، وهو ألا تساق المرأة كأنها دابة إلي فراش رجل لا تحبه.

الجنوب والشمال، أو الشرق والغرب في هذه الرواية يختلفان عنهما في كثير من الأعمال التي عالجت هذا الموضوع من قبل إن المواجهة هنا شاملة عنيفة، والتناقض مع ذلك ليس جوهريًا!

والعنف الذي نجده في الرواية ليس مجرد فعل، وإنما هو فكر قبل أي شيء آخر ونحن نعلم أن الطيب صالح كتب "موسم الهجرة إلي الشمال" وهو يقيم في إنجلترا في أوائل الستينيات، أي في الوقت الذي ازدهرت فيه فكرة الزنوجة، بوجهيها الثقافي والسياسي علي أيدي ليوبولد سنجور، وإيمي سيزار، وفرانز فانون وسواهم من الشعراء والمفكرين والزعماء الأفارقة. في تلك السنوات كانت الثورة الجزائرية قد انتصرت وامتد تأثيرها إلي أفريقيا كلها، وتشكّل في الوقت ذاته حزب "النمر الأسود" في الولايات المتحدة وكان عالم النفس ولهلم رايش المنشقّ علي فرويد يدعو إلي التحرر الجنسي وكان الفيلسوف هربرت ماركوز في الولايات المتحدة ينقد نظام الزواج، ويعلن في كتابه "العشق والحضارة" أن الكبت الجنسي صورة من صور القهر السياسي، ويدعو الشباب إلي مقاومته، لأنه إن كان قد أدي في العصور الماضية إلي التسامي بالغريزة وإفراغ الطاقة الجنسية في النشاط الأدبي والفني، فالتحرر الآن ضرورة لصنع الحضارة، وإلا فالكبت يولّد الانفجار!

في رواية الطيب صالح إذًا بطلان رئيسيان: الراوي، ومصطفي سعيد ومع أن مشاركة الراوي في الأحداث بنفسه محدودة، ويكاد دوره في الرواية يكون مقصورًا علي حلّ لغز مصطفي سعيد واقتفاء آثاره والكشف عن حقيقته مع هذا فالراوي ليس قليل الأهمية في الرواية، بل هو بطلها الآخر إلي جانب البطل الأول، أو أنهما في الحقيقة وجهان لرجل واحد.

ونحن قد نهمل شخصية الراوي الذي يقصّ علينا القصة، ويروي أحداثها ويصف أبطالها، معتقدين أنه ليس إلا ناقلاً متطفلاً أو شاهدًا محايدًا والحقيقة ليست كذلك فالبون شاسع بين أن تقف أمام القاضي لتدلي بأقوالك في واقعة حقيقية، وأن تلعب هذا الدور في رواية.

أنت أمام القاضي مطالب بأن تكون صادقًا، وألا تقدّم إلا الحقيقة المجردة من الهوي والميل· أما في الرواية فأنت تنشئ عالمًا من عناصر شتي ومواد مختلفة، بعضها مما رأيت وسمعت، وبعضها مما تتخيله، أو تخشي وقوعه، أو تتمناه وفي هذا كله تقدّم نفسك، وتعبّر عن أفكارك وعواطفك، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وعلي نحو مؤثر تريد به أن تدخل القارئ عالمك، ليشاركك عواطفك، ويحكم من وجهة نظرك علي الأشخاص والأفعال والأقوال هناك فرق هائل بين التقرير الذي كتبه ضابط المباحث أو وكيل النائب العام عن سعيد مهران بطل "اللص والكلاب"، وبين ما كتبه نجيب محفوظ عن هذه الشخصية.

قد نظنّ أن الراوي هو الكاتب· فما دامت "موسم الهجرة إلي الشمال" تبدأ بهذه الجملة "عدت إلي أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة"، فالمتحدث أوالراوي ليس إلا صديقنا الطيب صالح، وليست الرواية بالتالي، أي رواية، إلا سيرة ذاتية، حتي لو لم يستخدم الكاتب ضمير المتكلم، وحتي لو انسحب من مسرح الأحداث انسحابًا تامًا، قد نظنّ أن الراوي هو الكاتب· فما دامت "موسم الهجرة إلي الشمال" تبدأ بهذه الجملة "عدت إلي أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة"، فالمتحدث أو الراوي ليس إلا صديقنا الطيب صالح، وليست الرواية بالتالي، أي رواية، إلا سيرة ذاتية، حتي لو لم يستخدم الكاتب ضمير المتكلم، وحتي لو انسحب من مسرح الأحداث انسحابًا تامًا، وقدّم ما يجري

كأنه مجرد عين سحرية نعاين من خلالها الأحداث، ونري الأبطال ونسمعهم ونتبع حركتهم من البداية إلي النهاية.

وفي "موسم الهجرة إلي الشمال" ما يغري بأن نظن هذا الظن فالراوي شاب سوداني، في الثلاثين من عمره أو تجاوزها بسنوات أكمل دراسته في إنجلترا، وحصل علي الدكتوراه في الشعر الإنجليزي، وهو ذاته شاعر ينظُم بالعربية وعاد من إنجلترا ليشغل وظيفة في وزارة المعارف السودانية وهذه صفات ومؤهلات قريبة مما نعرفه عن الطيب صالح، خصوصًا في الفترة التي كتب فيها روايته في أواسط الستينيات.

آنذاك أنهي الطيب دراسته في "كنجز كولدج" بجامعة لندن وكان في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره وكان قد بدأ طريقه في كتابة الرواية بعد محاولات لا بأس بها في كتابة الشعر الذي ما زال يعتبره أرفع الفنون الأدبية علي الإطلاق، ولا يزال يحفظ منه ويتمثّل به ويرويه. وربما كان الطيب صالح واحدًا من حفّاظ الشعر العربي المعدودين في هذا العصر الذي نعيش فيه. وبإمكان القارئ أن يجد في رواياته أدلّة قوية علي ما أقول. إنه في "موسم الهجرة" يجعل بطل الرواية مصطفي سعيد يقرأ لآن همند، إحدي صديقاته، قصائد لأبي نواس وهو يشرب معها خمر التفاح. وفي السهرة التي قضاها الراوي مع مصطفي سعيد في منزل محجوب شرب الثاني حتي انطلق لسانه بقصيدة إنجليزية من القصائد التي كُتبت عن الحرب العالمية الأولي:

ينتظرن الضائعين

وفي أوراق مصطفي سعيد الخاصة التي جلس الراوي يفحصها بعد انتحار صاحبها أو غرقه، وجد محاولة من محاولاته في كتابه الشعر يقول في مطلعها:

عربدت في الصدر آهات الحزين ودموع القلب فاضت من تباريح السنين

والحقيقة أنها إحدي محاولات الطيب صالح الذي جعل بطل الرواية، كما جعل الراوي شبيهًا له غير أن الراوي سواء في رواية الطيب صالح أو في روايات غيره ليس الكاتب، مهما يكن من وجوه الشبه بينهما.

الراوي شخصية من شخصيات الراوية التي يخلقها الكاتب مستفيدًا من تجربته الشخصية التي نجدها متناثرة في مختلف شخصياته موزّعة علي الجميع لا محصورة في شخصية واحدة. فالراوي إذًا شخصية روائية يرسمها الكاتب ويلوّنها كما يريد، ويحدّد لها دورها وطريقتها في التعبير عن نفسها وتمثيل غيرها من الشخصيات.

ولقد رأي الراوي أو رأي له الطيب صالح أن يكون إلي جانب دوره كراوٍ، وجهًا آخر لبطل الرواية مصطفي سعيد الذي وضع لنفسه خلال السنوات التي عاشها في إنجلترا هدفين مقدسين: أن يتفوق علميًا علي الإنجليز أنفسهم حتي ينتزع منهم المكان الذي عيّن فيه محاضرًا في جامعة لندن، وأن يتقّلب بين أحضان نسائهم حتي لا تمر ليلة دون أن يملأ فراشه منهن بجسد فاتن. وقد نجح مصطفي سعيد في تحقيق الهدفين حتي انتهي إلي المرأة التي استعصت عليه، فتزوجها ثم قتلها.

والراوي لا يقول لنا صراحة إنه الوجه الآخر لمصطفي سعيد، بل هو يقول لنا صراحة إنه رجل آخر عاد إلي قريته فرأي فيها رجلاً غريبًا هو مصطفي سعيد الذي قرر الراوي أن يحلّ لغزه ويكشف عن شخصيته· لكن إنكار الراوي لصلته بمصطفي سعيد ربما كان مجرد حيلة، احتالها الطيب صالح ليُحكم بناء الرواية ويحبُك أحداثها· وهناك أكثر من شاهد علي الصلة العضوية التي تجعل الراوي شبيهًا بالبطل أو وجهًا آخر له.

كل منهما بدأ دراسته في السودان، وأكمل تعليمه في إنجلترا، ثم عاد إلي بلده في النهاية وكل منهما يحب الشعر ويرويه باللغتين العربية والإنجليزية· وقد اختار مصطفي سعيد الراوي وصيًا علي ولديه وقد كاد الراوي أن يقع في حب أرملة مصطفي سعيد أو وقع بالفعل وإذا كان مصطفي سعيد قد مات غريقًا في النيل، فقد انتهت الرواية والراوي يغالب الموج بين الضفتين.

ونحن نعرف حاضر الراوي في السودان ولا نعرف ماضيه في إنجلترا، أما مصطفي سعيد الذي سيكشف لنا الراوي عن ماضيه فنحن لا نعرف الكثير عن حاضره، وبوسعنا أن نقول إن الراوي هو حاضر مصطفي سعيد أو وجهه المكشوف، وإن مصطفي سعيد هو ماضي الراوي أو وجهه المستور.

لقد غرق مصطفي سعيد في النيل أو انتحر، لكن الذي غرق في الحقيقة هو ماضيه، أما حاضره فباقٍ متحقق في الراوي الذي قرر أن يختار الحياة "وإذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسي .. وبكل ما بقي لي من طاقة صرخت، وكأنني ممثل هزلي يصيح في مسرح: النجدة· النجدة!".
لماذا قسّم الكاتب بطل الرواية في رجلين؟

أولاً: لتكون الرواية التي تدور حول مأساة مصطفي سعيد حلاً للّغز وتنقيبًا عن أسراره، ولو أن بطل الرواية كان شخصًا واحدًا يتحدث عن نفسه، أو يتحدث عنه الراوي لكانت مجرّد سرد أو حكاية مسطحة لكن الطيب صالح جعل البطل في شخصين يطارد أحدهما الآخر منقبًا عن حاضره وماضيه، وبهذا حوّل الحكاية إلي رواية غنية بالعناصر المتصارعة.

هذا تفسير فني أو جمالي. وهناك تفسير اجتماعي، وهو أن الكاتب السوداني الذي يعلم أن بعض قرائه ربما اعتبروه هو نفسه بطلاً لروايته، ووحّدوا بينه وبين مصطفي سعيد الذي يشبهه إلي حد ما، قد فضّل أن يخلق بطلاً آخر عاش أيضًا في إنجلترا دون أن يقع في الأخطاء التي وقع فيها مصطفي سعيد أو دون أن نعلم عن أخطائه شيئًا، وأسند إليه رواية الأحداث، ليخلط القراء، إذا أرادوا، بين الطيب، وهذا الراوي حَسَن السمعة، بدلاً من أن يخلطوا بينه وبين مصطفي سعيد القاتل العربيد!

الحقيقة محيّرة، والناس جميعًا متشابهون بقدر ما هم مختلفون وهذا لا ينطبق علي الراوي ومصطفي سعيد فحسب، بل ينطبق حتي علي مصطفي سعيد وجين مورس، علي الزوج الأسود القاتل وزوجته القتيلة – البيضاء، عطيل وديدمونة، الجنوب والشمال. كانت تحتقره، نعم لكنه كان يريدها جارية أو سبية "أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيًا أنا الملاّح القرصان، وجين مورس هي ساحل الهلاك ولكنني لا أبالي".

وإذا كانت آن همند – هذه الفتاة التي لم تبلغ العشرين وكانت تدرس اللغات الشرقية في جامعة لندن – قد أهدت مصطفي سعيد صورتها بالعباءة

العربية والعقال، وكتبت تحت الصورة بخط عربي مهتزّ "من جاريتك سوسن"، فقد كان مصطفي سعيد يسمي نفسه أحيانًا تشارلز وريتشارد، يخفي بذلك شخصه أو يموّه علي صديقاته، لكنه كان في الوقت ذاته يعبّر عن افتنانه بأوروبا والأوربيين: "ثلاثون عامًا· كان شجر الصفصاف يبيضّ ويخضرّ ويصفرّ في الحدائق· وطير الوقواق يغني للربيع كل عام· ثلاثون عامًا وقاعة ألبرت تغصّ كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ والمطابع تُخرج آلاف الكتب في الفن والفكر مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت. كانت إيدث ستويل تغرد بالشعر، ومسرح البرنس أوف ويلز يفيض بالشباب والألق البحر في مدّه وجزره في بورنمث وبرايتن، ومنطقة البحيرات تزدهر عامًا بعد عام· الجزيرة مثل لحن عذب، سعيد حزين، في تحوّل سرابي مع تحوّل الفصول· ثلاثون عامًا وأنا جزء من كل هذا، أعيش فيه، ولا أحسّ جماله الحقيقي، ولا يعنيني منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة"!

كان مصطفي سعيد يقول: "أنا جنوب يحن إلي الشمال"· وكان الراوي يجيب أهل قريته وهم يسألونه عن أوروبا وأهلها، فيقول: إنهم مثلنا تمامًا ونحن مثلهم ليسوا أقل منا إنسانية، ولسنا أقل منهم عنفًا وشهوانية.

يقول ود الريس وهو شيخ في السبعين لبنت مجذوب وهي في مثل سنّه: "هل يعرف أحد حلاوة هذا الشيء أكثر منك يا بنت مجذوب؟ إنك دفنت ثمانية أزواج، والآن وأنت عجوز كركبة لو وجدتية لما قلت لا". ويقول جد الراوي الذي قارب التسعين: "سمعنا أن غند بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل"· وأشعلت بنت مجذوب سيجارة، وقالت: "علي الطلاق يا حاج أحمد كنت حين

يرقد زوجي بين فخذي، أصرخ صراخًا تجفل منه البهائم المربوطة في مراحها في الساقية"!

أما ود الريس الذي يقول الراوي إنه يغيّر زوجاته كما يغير حميره، فقد قرر أن يعقد علي أرملة مصطفي سعيد التي تصغره بأربعين سنة، غير مبالٍ بالقرار الذي اتخذته، وهو ألا تدخل علي رجل بعد مصطفي سعيد، أما "إذا أجبروني علي الزواج، فإنني سأقتله وأقتل نفسي".

وقد برّت بوعدها ففي الليلة الخامسة عشرة بعد دخولها مرغمة بيت ود الريس انطلقت صرخاتها في العتمة بعد العشاء، ودخل الناس ليجدوها عارية مخدوشة مخموشة تنزف منها الدماء، وقد عضّ الشيخ المجنون حلمة نهدها حتي قطعها وكان هو إلي جانبها قد لفظ أنفاسه مطعونًا عشر طعنات!

ليس هذا المشهد إلا تكرارًا جنوبيًا لمشهد مصطفي سعيد ينفذ خنجره بين نهدي جين مورس، وهما في الفراش والمصير الإنساني هو هو لا فرق فيه بين لون ولون أو بين جنوب وشمال وتلك هي الكلمة التي يوجهها لنا الطيب صالح، وهي جديرة بكل فهم وتقدير.

ابن قرية من شمال السودان تودعه كرمكول

بشير محمد صالح ..
صحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٩/٢/٢٥

رحلة الطيب الأخيرة كانت إلي مقابر السيد البكري بأم درمان. لقد كان الطيب كثير الأسفار، له في كل بلد أصحاب وأصدقاء وخلان.
كان عشقه الأول مصر، يشد إليها الرحال كل شتاء علي موعد مع عبد الرحيم الرفاعي صديق عمره، يأتي إليها الطيب من لندن التي اتخذها مقراً ويؤوب إليها عبد الرحيم من سويسرا أوبة غريب الدار إلي وطنه.

وفي مصر استقر رفيق صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته صلاح أحمد محمد صالح الأديب الأريب الشاعر الفحل الذي تغني بالسودان من علي البعد ومن علي القرب، وكذلك كان والده أستاذ الأجيال أحمد محمد صالح.
وفي مصر كان رجاء النقاش رحمه الله أول من نوّه بأدب الطيب، وفيها صديقه محمو سالم مؤلف كتب الأطفال المعروف أطال الله عمره، وغيرهم كثير التقيت بعضهم وسمعت عن الآخرين.

كان الطيب يعَرِّجُ علي في الدوحة ومن بعدها في البحرين وهو في طريقه لمصر، وعندها يتحول منزلي إلى ملتقي ثقافي، فالطيب لين الجانب موطأ الأكناف وحلقته محضورة، مظهره بسيط، وطعامه بسيط، ويؤمن أن طعام الاثنين يكفي لثلاثة.

وفي آخر مرة زارني فيها بالبحرين، مكث أطول مما كان يفعل، حيث حضر عيد الأضحي، وقد أظهرت فحوصات أجريت له بالمستشفي الدولي بالبحرين علي إثر وعكة ألمت به بوادر المرض الذي أُكّدَ في لندن. وكنا كثيراً ما نقضي جزءاً كبيراً من الليل في تذكر ناس البلد ممن هم علي قيد الحياة ومن انتقل.

وقد خططنا لإصلاح المنزل الذي طال غيابنا عنه ونشط لذلك نشاطاً كبيراً، غير أننا انشغلنا بمرضه عن ذلك وفي ليل يوم الثلاثاء السابع عشر من فبراير عام تسعة بعد الألفين أتاني صوت سارة متهدجاً حزيناً يخبرني بأن حالة أبيها حرجة وهبطت أرض لندن في الصباح الباكر من اليوم التالي، وحالما سمح للتليفونات بالعمل، وبينما أُمَنِّي نفسي بلقائه أتاني صوت من يخبرني أن صاحب الأمانة قد استرد أمانته.

مادت بي الأرض واختلطت علي الرؤي غير أن هاتفاً أتاني أن تحمل وتصبر "وشد حيلك وابقي راجل" واعمل علي مواراة جثمان أخيك حيث يجب أن يواري في ثري بلده الذي لم يتخل عن حمل جنسيته طوال عمره وظل يشيد بذكره في كل المحافل.

استقبلني صديقه الوفي محمود صالح عثمان وابنه أسامة وأخذاني إلي منزل أسامة القريب من المطار، وعندما فَجَّ الفجّاج واستبانت الأشياء هرعا بي لداره برينس بارك لأستأذن زوجته وبناته في نقله للسودان، فأنكرتني الدار وأنكرتها إذ كان صاحبها يرقد مسجي في أحد المستشفيات بلندن، صاحبها الذي كان يهَشُ للقائي ويأخذني في أحضانه معانقاً إياي معانقة الأب لابنه الذي آب من سفر بعيد: والدار لوكلمتنا ذات أخبار فوا أسفي عليك يا طيب القوم فأذنت بذلك جولي رفيقة دربه وصاحبته في سرائه وضرائه.

وهكذا .. وري جثمانه في ثري السودان في مقابر البكري بأم درمان بعد أن صلي عليه خَلق كثير.

والسيد البكري صاحب المقبرة -للذين لا يعرفون- هو نجل الشيخ إسماعيل الولي الكردفاني صاحب الطريقة الإسماعيلية دفين القبة المشهورة بالأبيض ووالد السيد المكي الذي نوه بذكره خليفة المهدي قائلا: "لا خليفة إلا خليفة المهدي ولا سيد إلا السيد المكي"، ووثق شاعر الطريقة ذلك بقوله: "السلطان قال ما في سيد إلا دا المكي المؤيد"، والسيد المكي هو المسمي باسمه الحي المعروف بأم درمان حيث تجمع فيه أتباع الطريقة الإسماعيلية.

وأهل كرمكول ودبة الفقراء كلهم إسماعيلية، وكان جدنا صالح أحد خلفائها، ولا أزال أذكركيف كنت أقرب له حمارته في يوم العيد بعد أن أضع عليها السرج والفروة ويمتطيها لابساً عباءته السوداء ومرخياً عزبته علي كتفه الأيسر، رجل أبيض اللون ذو سمت ومهابة.

وفي العراء الواقع خارج البلد تقام صلاة العيد أمام قبة الشيخ ودبوبة حيث يؤم الناس الخليفة بكري ابن الخليفة محجوب، وبعدها يقرأ خطبة العيد من أوراق توارثها أبا عن جد حتي كادت أن تتفتت من القدم، وقد كلفني ذات مرة بنقلها إلي كراسة جديدة خوفا عليها من الضياع ففعلت.

وكأني أسمع صوته وهو يقرأ منها: "ولا مكسورة القرن ولا مشقوقة الأذن ولا العرجاء ولا العجفاء ولا المريضة" هذا عن البهيمة التي لا تجزي كأضحية وبعد الصلاة تقام حلقة الذكر أمام قبة الشيخ ود بوبة علي أنغام النوبة والطبل والخلاف والباز ويرتع القوم علي صوت المنشد:

أقول أنا إسماعيل بالحمد أبدأ

وينتهي الذكر بعد عدة طبقات حيث يجلس القوم يستمعون إلي صوت المنشد:

حلقة الذكر روضة من جنان	وبهم حفت الملائك فيها
هكذا في حديث عالي الجناب	يرتع الذاكرون رتع نعيم
يا له من جزيل خير عميم	مصطفي كل حادث وقديم

ثم يذهبون بسفينتهم إلي قباب الشيخ محمد ود دوليب وأبنائه السبعة حيث يقيمون حلقة ذكر أخري، ثم حلقة ذكر ثالثة أمام قبة الخليفة صالح وينتهون في الجامع الكبير بدبة الفقراء.

وفي مقبرة الشيخ ود دوليب دفن جدنا صالح بعد أن أربي علي المئة سنة بكثير، ودفن فيها والدنا وإخوانه إمام وأحمد وعبد الدائم وحمزة وكان آخرهم موتاً الذي عمر أيضا كأبيه.

أما بقية أبنائه فقد دفن سيد بالخرطوم ودفن علوب ببورتسودان ودفنت ابنته الوحيدة رحمة ببورتسودان، ولم يبق من أبنائه علي قيد الحياة إلا عمنا عباس أطال الله عمره، ذلك الرجل الكفيف الذي رآه الناس أيام العزاء يبكي بحرقة، جاء من بورتسودان حيث تقيم تقوده ابنته.

ولقد رأيت أن يدفن الطيب بأم درمان بدلا من أن يرقد جنب أبيه بكرمكول لأنني أري ويري الكثيرون أن أم درمان هي السودان متجمعاً في بلدة، اختارها الثائر محمد أحمد المهدي كبقعة عسكر فيها جيشه الذي واجه جوردون وهزمه، وبعده صارت قبلة لكل ثائر وملاذاً لكل حر، وسكنها رجال أفذاذ، وهي عش الصالحين ومأوي الكتاب والأدباء والمثقفين، وهي بذلك نعم المرقد

الأخير للطيب، وهل كان الطيب إلا للسودان عاشقاً ولأهله محباً، لقد قال عنه صديقه الحميم السفير الشاعر سيد أحمد الحردلو -مَنَّ الله عليه بالعافية- في قصيدة من عيون الشعر: "اسمك صار وطناً".

وأنا في طريقي عائداً من المقابر بعد أن ووري جثمان الطيب الثري حزيناً، مهيضاً، مكسور الخاطر عنَّ لي ما كان يقوله عمنا محمد مندور وهو رجل خبر الدنيا ومرت عليه فيها أيام ثراء وبطر.

ثم عدت عليه الأيام وذهب المال وبقي ذلك الشموخ الذي عُرف به أهلنا في كل تقلبات الزمان يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

كان يقول:عندما قيل لأحدهم أخوك مات صرخ قائلاً: "آخ يا ضراعي إلا تقطع".

وهكذا كانت حالي، كنت كمن قطعت يمينه وهو يتحسس مكانها آملا أن تكون لاتزال هناك، إذ لم يكن الطيب أخي فحسب بل كان أبي بعد رحيل أبي، وكان صديقي الصدوق .. لقد كان ضوء القبيلة وزينة الحي لا لأنه صار أديباً .. فلا أحسب أن أهلنا كانوا يأبهون لما كان يكتب بل لأنه كان ذلك الولد الهدي الرضي حلو الشمائل جَبَّار الخواطر.

الطيب ولد بكرمكول في فريق المشاوين ليس في هذا المنزل الذي نقلت صوره القنوات الفضائية ولكن في منزل آخر هدمه البحر في فيضان ١٩٤٨، وكان جدنا صالح يعرف بمشاوي لأنه -كما حدثني- سار علي قدميه من كرمكول إلي سيدي عكاشة بمصر مخترقاً أرض الدناقلة والمحس والحلفاويين، وكان يحكي عن رحلته تلك نوادر كثيرة، لذا كان أولاده يعرفون بأولاد مشاوي.

كان جدنا يحفظ شجرة نسبه ويرددها علي مسامعنا، وكان يقول: نحن شوافعة يعود نسبنا للإمام الشافعي، وكان والدهم رجلاً ثرياً له أطيان ونخيل بقرية عَبسة بالقرب من قرية قشابي.

وقد تزوج ريا أخت الفضل عظيم البديرية النافعاب، فولدت له صالح وإخوانه رمضان وأحمد وإمام والبنات زينب وعائشة وحسنة، وعندما كثرت القلاقل في أواخر حكم الخليفة التعايشي أتوا إلي كرمكول بعد موت أبيهم حيث انضموا إلي خالهم·· وأهملوا أراضي عَبسة، وزوج والدهم أختهم زينب للفقير الركابي أحمد محمد زكريا ساكن العفاض وقشابي، وقبة جدهم حبيب نسي ظاهرة تزار حتي يوم الناس هذا، قال عنه ود ضيف الله صاحب الطبقات: "حبيب نسي الركابي مسكنه في ضنقلة قشابي من أولياء الركابية الكبار وله كرامات كثيرة"، وكان أهل دنقلة إذا تمني أحدهم يقول: "اللهم أرزقني كرامات حبيب نسي وعبادة دوليب نسي وعلم ولد عيسي".

وقد ولدت زينب عدداً من الأولاد والبنات كانت صغراهن والدتنا عائشة أحمد زكريا التي مات والدها وأمها حبلي بها، وقد تزوجها والدنا وهو دون العشرين وهي دون الرابعة عشرة.

وقد أصاب أولاد مشاوي، كما كانوا يعرفون، ثراءً في بورتسودان علي يد كبيرهم أحمد جعلهم قبلة الأنظار، ثم دار عليهم الزمان فذهبت الثروة وعادوا فقراء.

كان الطيب قد سبقني لبورتسودان حيث انتظم في المدارس النظامية إذ هو يكبرني بعشر سنوات، وعندما أخذت لبورتسودان، كان الطيب قد التحق بمدرسة وادي سيدنا الثانوية، ثم التحق بالمدارس العليا التي صارت جامعة الخرطوم الحالية، وكنت التقيه في البلد وفي بورتسودان أثناء الإجازات الدراسية.

وفي الخمسينيات من القرن الماضي، كان يراسلني وأنا بمدرسة بورتسودان الوسطي من لندن بخطابات كان يصف لي فيها لندن وعجائبها، وقد احتفظت بتلك الخطابات مع كتبي في منزلنا بكرمكول وامتدت إليها الأيدي وعرضت في القنوات الفضائية دون استئذان.

وفي حياة الطيب شخصيتان عظيمتان لا يعرفهما الناس أثرتا فيه، إما وراثة أو معايشة: أولاهما والده محمد صالح أحمد الذي يكني بأبي الطيب وبه كان فرحاً فخوراً، وكان إذا افتخر يقول "أنا أبو الطيب".

أبانا هذا كان محباً للعلم والعلماء لأنه ابتدأ الدراسة في مدرسة دبة الفقراء ثم انقطع عنها وكان لذلك أسفاً أشد الأسف، وكان محباً للصالحين، وكان يفتخر بأن الفقيه بخيت الذي يعتكف في غار بدبة الفقراء لم يخرج إلا لزيارته في كرمكول، وكان محباً للعابد السائح محمد عبد الحفيظ الملقب بالحنين، ومازلت أذكر كيف كان يأتي من لا مكان إلي منزلنا القديم وسبحته الألفية اللالوب في عنقه وركوته وشعبته في يده.

دفع والدنا بالطيب للمدارس في وقت كان ناس بلدنا لا ينشطون للتعليم، إذ كانوا يحبون العاجلة من حوالات شهرية من عمل الأولاد المبكر شعارهم في ذلك "يوماً يشيلك صباك ويوماً يشيلك جناك"، والدنا صبر علي الطيب كما صبر علي من بعده رغم فقره حتي قطع كل المراحل التعليمية، وفيما بعد عندما عرف الناس قيمة التعليم كان هو الذي يتصدي للجان لإدخال أبناء إخوانه وأقربائه وناس البلد للمدارس، ومازلت أذكر قوله لمن سأله من أعضاء إحدي اللجان: "أنت يا شيخ محمد عندكم ولد" ديل أولاد السودان يتعلموا ينفعوا البلد، لقد كان رجلاً طيب القلب، محباً لإخوانه ولمن يمت له بصلة.

كان يحب الطيب ويفضله، وفي أخريات أيامه أوصاني قائلا: "خلي بالك من أخوك"٠

الشخصية الثانية التي تركت بصماتها علي الطيب هي والدتنا عائشة بنت أحمد زكريا، لقد كانت تقول الشعر في كل المناسبات وتحفظ مدائح ود سعيد وحاج الماحي وترددها بصوتها الشجي:

قال لك ود سعيد النفسه عاجبالُ   للربا والعجب شال نومه مع بالُ

ربنـــا يـــا كـــريم للعبـــد حـــوالُ   حـــول حالـــه لأحســـن الحالـــة

وزوجـــة مـــن حســـان الجنـــة أمثـــال   أو العبيـــــــد البُـــــــوم الفـــــــدن

نفســــه خاينــــه تحــــب الشــــتم   حــــين مرضــــت قعــــدت تهــــم

يعفاهـــــــــــــا وتـــــــــــــــــترحم   وفي هواهـــــا تقـــــوم تــــــتلخم"

وكانت قصَّاصة ماهرة تحكي الأساطير وتحول شخصياتها لرجال ونساء يمشون بين الناس٠

وكان الكبار قبل الصغار يلتفون حولها لسماع قصصها في ليالي بلدنا المقمرة٠ وكم كان للقمر من سحر في كرمكول٠ كان النساء يبكين مع فاطمة التي تبحث عن أبيها الذي غاب في سفر فقتل عمها أخها بسبب تافه:

مـــا شـــفتو أبـــوي يـــا جلابـــة   عمـــي أخـــي أبـــوي يـــا جلابـــة

عشـــان فـــرد قنـــدول يـــا جـــلاب   أخضـــر وطويـــل يـــا جلابـــة

قتـــل محمـــد أخـــوي ياجلابـــة   بيـــاكلو الـــزرزور يـــا جلابـــة

كانت تغني ذلك بصوت شجي حزين يبكي السامعين، وكانت تبتدئ قصصها بقولها:

قالوا وقالوا: الله يكفينا شر قلنا وقالوا

غير أن عمتنا ستنة التي عاشت بمصر زماناً وصارت تعرف بستنة بنت الريف كانت تبدأ قصصها بقولها:

كان يا ما كان، ما يحلو المقال إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام، وكان علي الحاضرين أن يرددوا الصلاة علي النبي صلي الله عليه وسلم.

كرمكول قرية عادية علي حَدَبَة النيل ليس بها شيء يلفت النظر، شريط من الأرض تكسوه أشجار النخيل مع مساحات ضيقة لزراعة المحاصيل قَلَّ من كان يعتمد عليها اعتماداً كاملاً في معيشته، كانوا يعتمدون علي المبالغ التي ترسل إليهم كل شهر من الأزواج والأبناء بالبريد أحيانا وباليد مع القادمين في أغلب الأحيان.

اللافت للنظر في كرمكول هو أهلها، ولأنهم كانوا بعيدين عن الحكومات وما كانت الحكومة تأبه بهم فقدكونوا مجتمعاً مستقلاً قائماً بذاته معتمداً علي نفسه في أحواله الدينية والاجتماعية والصحية والتعليمية، فهنالك النساج والحداد والطهار والبصير ومعلم القرآن والقابلة.

كانت حكومتهم هي العمدة وكاتبه والشيخ والجراي وكانوا يحلون المشاكل بالتراضي وبالتي هي أحسن.

المرأة في مجتمع كرمكول كانت معززة مكرمة، وكانت عاملة في كل أطوار الزراعة من سليك ورمي للتيراب ومتيق وجابيق وتذرية للحبوب بعد النوريق.

وكان من أكبر العيوب أن يضرب الرجل امرأته لأنه عليه أن يشكوها إن أخطأت لأوليائها من أب أو أخ أو عم، فإن ثبت عليه الخطأ كان عليه أن يسترضيها برضوة من حلي أوعود تمر.

وكان من العيب أن يذكر الرجل للناس السبب الذي من أجله طلق امرأته فإن سأله متطفل يجيب: "أكلنا عيشنا" أو "العيش انقطع" فإنها في النهاية عرضه وغالباً ما كانت تمت له بقرابة قريبة، وشعارهم في الزواج: "إن كان ماعونك فاتح ما تغطي ماعون الناس".

ومن شخصيات كرمكول التي كانت مميزة ومعروفة علي نطاق السودان والمقربين من والدنا العمدة سعيد ميرغني فضل، كان هذا الرجل ذكياً لماحاً ونسابة لا يجاري، وفوق ذلك كان أول من يخفف للعزاء ومن يشارك في الأفراح، وكان كريماً ومضيافاً وأخا إخوان، وكان محباً للمتعلمين من أبناء البلد، وفاز بمقعد في مجلس الشيوخ في العهد الديمقراطي.

ولم أر مجتمعاً متسامحاً كمجتمع كرمكول يتعايش فيه حملة القرآن مع بقية الناس دون تكبر أو ترفع، ولا يسأل أحد أحداً عن خصوصياته.

لقد أحب أهل البلد الطيب لا لأنه كان أديباً أو ذا شهرة، فليس ذلك من اهتماماتهم فالرجل عندهم إن طار وإن قعد فهو ولد فلانة وولد فلان، وإياك أن تتحذلق أمامهم فقد يلصقون بك اسما لن يفارقك حتي الممات.

أحب أهل البلد الطيب لأنه كان ذلك الولد الودود الذي يسايرهم في كلامهم جبراً لخواطرهم، وعندما صار كاسباً يصرف الماهية كان يجود عليهم ببعض ماله، وكان الطيب يعود للبلد من لندن فيجد أمي قد سَمَّنت له خروفاً يعرفه أهلنا بخروف الطيب، وكان أول من يحمل لها بشارة عودته تنفخه بجنيه كامل، وأذكر أن امرأة من أهلنا رأتني أنزل من اللوري في إحدي إجازات الجامعة وظنتني الطيب فصارت تصيح من بعيد لتضمن البشارة: واجيدلك يا عائشة واجيدلك، وعندما تأكدت أنني لست هو قالت: إي بس– دا بشير وقالت

أخري تريد أن تستأثر بالبشارة: لا تجري تقطعي نفسك دا بشير، هذا لأنني كنت طالباً ما عندي ما أعطيه وفوق ذلك كنت أذهب للبلد في كل إجازات الجامعة وما أكثرها.

والآن وقد أتي ذكر المحاسن بعد انتقال المحسن أشهد بأن الطيب كان يرسل لي مبلغاً معتبراً أقوم بتوزيعه علي ذوي الأرحام، وكان ذلك يتم في صمت وتكتم عرفت به.

قال عمنا طلب السيد للطيب وقد ساعده في حفر بئره: "والله أهلك الكان ما سموك الطيب ما كان عرفوا لك اسم"، ولقد كان الطيب في ذلك الوقت طالباً في الثانوي.

رحمك الله يا طيب الأخلاق والمروءة والعشرة وعفا عنك، كيف تأتي لك أن تذهب وتتركني هكذا وحيداً أحمل العبء وحدي بعد أن وهن العظم واشتعل الرأس شيباً. إن قابلت شيخك وشيخي وأنت إن شاء الله مقابله في جنات النعيم فأقرئه مني السلام وقل له إن أخي عمل بالوصية.

ومن غيرك أحق بقول من قال:

أمـــا القبـــور فـــإنهن أوانـــس ... بجـــوار قـــبرك والـــديار قبـــور

عمـــت مصـــيبته فعـــم هلاكـــه ... فالنـــاس فيـــه كلهـــم مـــأجور

ردّت صـــنائعه عليـــه حياتـــه ... فكأنـــه مـــن نشـــرها منشـــور

وسلام عليك ما غردت القماري علي نخيلات بكرمكول، وما فاض النيل هادئاً أم غضباناً، وعلي مثلك فالتبك البواكي.

الطيب صالح ، شأنه شأن أبي الطيب بالمتنبي

د. حسن أبشر الطيب

الروائي العالمي المبدع الطيب صالح، شأنه شأن شاعره الأثير أبي الطيب أحمد بن الحسن الملقب بالمتنبي، ملأ الدنيا وشغل الناس وتوطدت مكانته في الآفاق العربية والأعجمية· ومن آيات ذلك أن الكثرة الغالبة من النقاد رأت في أعماله الروائية فتحاً جديداً في عالم الرواية العالمية· وستلمس شاهداً علي هذه المكانة الرفيعة التي تبوأها بجدارة، وهذا الصيت الرحب الواسع الذي حققه باقتدار، يعلمك أن أعماله الروائية نشرت وقرئت في عشرين لغة حية.

إلي جانب اللغة العربية ترجمت أعماله إلي تسع عشرة لغة تشمل: الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الصينية، اليابانية، التشيكية، المجرية، الإسبانية، الإيطالية، الهولندية، التركية، البولندية، النرويجية، البلغارية، السلافية، التشيكية، المجرية، الدانماركية، الكورية والعبرية واحتفت بأعماله الروائية المبدعة الدوائر الأدبية، العربية والأعجمية، فجعلت من هذه الأعمال الثرية مادة للعرض والدراسة والتحليل في عدد وافر من الكتب والمقالات التي نشرت في الحوليات والدوريات كما كانت هذه الأعمال الروائية مادة للدراسة والأطروحات الجامعية لدرجات الماجستير والدكتوراه، التي بلغ عددها ثماني أطروحات لدرجة الماجستير وعشر أطروحات لدرجة الدكتوراه أما أطروحات الماجستير فقد شملت: أطروحتين باللغة العربية، وواحدة بالإنجليزية، وثلاثاً بالفرنسية، وواحدة بالألمانية،

وواحدة بالعربية بينما شملت أطروحات الدكتوراه: ثلاثاً باللغة العربية، وخمساً بالإنجليزية، وواحدة بالفرنسية، وواحدة بالمجرية وبذلك استطاع هذا الروائي العبقري أن يعبر بفنه الروائي الأصيل إلي هذا الكم الهائل من لغات الأمم الأخري.

الأستاذ الطيب صالح جدير بهذا الاحتفاء، وأكثر، وبهذه المكانة الرفيعة التي تسنمها بحق وجدارة، فأنت تقرأ أعماله الروائية وغير الروائية فتلمس هذه القدرة علي التأليف الأدبي الإبداعي المتكامل الذي يعني بالشكل والمضمون في آن واحد· إنك تعيش في كل أعماله هذا الفيض الزاخر من الأفكار والأطروحات المبتكرة المتجددة، وتطرب في الوقت ذاته لعذوبة لغته الشاعرة التي تتسم بالقدرة الباهرة علي التشكيل اللغوي الموحي، والنسيج الشعري الشجي المرهف الذي يكتسي وهجاً وفناً صادقاً أخاداً، وقدرة عالية علي الإيحاء· وهو في كل ذلك يعبر عن قدر وافر من التجارب، احتضنها وتأملها واستكشف معانيها، وصاغها عملاً جديداً مبدعاً بأي حال من الأحوال إنه واقع أرحب وأعمق وأكثر تعبيراً عما يعتمل في نفس المؤلف من أفكار ومشاعر.

إن القارئ المتأمل لكل من أعمال الطيب صالح الروائية، لا جدال، سيعيش هذا الثراء الفكري والفني المبني علي أصالة الفكر، وثراء التجربة الإنسانية، واستقراء وتحليل واستجلاء واستنباط دقائق الحياة، ورحابة الخيال وحب الاستبصار، والتعبير عن كل ذلك بلغة شاعرة تتميز بالرصانة والجزالة والوجدانية المتفردة الموحية.

لقد امتلك أدوات فنه الروائي المبدع، فأنت من جهة تشهد له علي هذه القدرة المتميزة علي الحكي وبلورة الفكرة رويداً رويداً ليشيد باستدعاء التفاصيل

ونسج العلاقات بين الأطراف المتجانسة حيناً، المتنازعة أحياناً أخري، هذا البناء المتكامل الذي يتداخل فيه الواقع والخيال، وتتمازج فيه الأحلام مع الواقع الماثل، وتتناغم فيه كل المشاعر علي اختلاف منباعها وتوجهاتها· ويستند في كل ذلك إلي مخزون ثري من التجارب، وإلي تداعيات لا متناهية من الخيال، وعلي افتتان باللغة العربية، يؤكده إتقانه لها، وعلمه بأسرارها، وسعيه الدءوب لإظهار جمالياتها· يضاف إلي كل ذلك قدرته الخاصة والممييزة علي توظيف كل حواسه توظيفاً يقظاً ومبدعاً لاستشراف والتقاط كل المدركات السمعية والبصرية لتكثيف وتجسيد المشهد والموقف، والتعبير الدقيق والموحي بما وراء المدركات من خلجات دفينة تتفاعل في صدور ودواخل شخوص رواياته فتعطيها شيئاً من خصوصيتها وذاتيتها ولغتها وطابعها المتفرد في الحركة والسكون وذلك من الرسم الإيحائي بالكلمات الوارفة المعطاءة، يمنح هذا الفكر والفن الروائي تفرداً وجدة وقدرة هائلة علي التواصل مع القراء هلاّ ذكرت مثالاً من تشبيهاته الأولي: "وتفتح جمالها فجأة كما تنتعش النخلة الصبية حين يأتيها الماء بعد الظمأ·كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبل الحصاد"، وإنك لتكاد تسمع أصوات الفرح وتشهد عن قرب وجداني حميم زواج ضوّ البيت وأنت مشدود إلي وصفه بهذه اللغة الشاعرة: " اليلة كل شيء حي، فاح العبير وتمّ السرور وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار، كل غصن تثني، وكل نهد ارتعش، وكل طرف كحيل وكل خدّ أسيل، وكل فم عسيل، وكل خصر نحيل، وكل فعل جميل .. وكل الناس ضوّ البيت".

ويظل حديث الطيب صالح عن صديقه "منسي" عملاً رائداً، ما هو بالعمل الروائي، وما هو بالصور القلمية، وما هو بالمقالات التحليلية، وما هو بالسيرة الخاصة بصديق ما هو بشيء من هذا أو ذاك، بل هو كل ذلك في هيئة

واحـدة وفي تنـاغـم فريـد قـرأ النـاس هـذا العمـل المبـدع عنـدما نشـره في حلقـات متتابعة في مجلة "المجلة"، وأعجبوا به، وتناقلوا خبره، وظل الكل يترقب نشره في كتاب، غير أن الطيب صالح كعادته ظل يرجئ النشر من عام إلي آخر أملاً في أن يجد متسعاً من الوقت يعينه علي إدخال شيء من المراجعة والتعديل إن هذا العمـل المتميـز يمثـل في اعتقـادي طـوراً جديـداً مـن التـأليف الإبـداعي، سيكون للمؤلـف فيـه قصـب السـبق، وسيشـهد القـراء عنـدما يقرأونـه متكـاملاً بـين دفـتي كتـاب أنـه عمـل إبـداعي رائـد جـدير بالاحتفـاء وقـد كـان "منسـي"، علـي كـل حال، كما يحدثنا المؤلف: " لم يكـن مهمـاً بموازين الـدنيا، ولكنـه كـان مهمـاً في عـرف نـاس قليلـين، مثلي، قبلوه علي عواهنه، وأحبـوه علـي علاتـه· رجـل قطـع رحلـة الحيـاة القصـيرة وثبـاً وشـغل مسـاحة أكـبر ممـا كـان متاحـاً لـه، وأحـدث في حـدود العـالم الـذي تحـرك فيـه ضوضـاء عظيمـة وحمـل عـدة أسمـاء، أحمـد منسـي يوسف، ومنسي يوسف بسطاوروس، ومايكل جوزيف ومثل علي مسرح أعمـال ومهرجاً ولـد علي ملة ومـات علي ملة· ترك مزرعـة من مـائتي فـدان مـن أجـود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا أجنحة، وحمام سباحة، واستطبلات خيـل، وسيارات وخلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية فرجينيا، بالولايات المتحدة الأمريكية، وبيتاً في واشنطن، ومطعماً، وشركة سياحية".

ما كان منسي شخصية أسطورية، لكنه صاحب قدرات خارقة قادرة علي النهـوض بكـل هـذه الأدوار علي تعـددها وتنوعهـا وتعارضـها في معظـم الأحيـان وكان من حسن حظنا أن يكون الطيب صالح له صديقاً فيمنحنا الفرصة بفضل قدراتـه الخلاقـة أن نعيش مـع "منسـي" في كـل أدواره، ونتفاعـل سـلباً وإيجابـاً مـع

أفكاره ومشاعره، وقد يشتهي بعضنا أن يعيش شيئاً من حياة منسي بمقدار فتأمل!!

تقول العرب: لكل من اسمه نصيب، والطيب صالح جمع بين الطيبة والصلاح، وهو حقيقة كذلك، هنيئاً له· تجلله هذه الطيبة المتناهية، والنزاهة الأخلاقية الرفيعة المتمثلة في تعففه وإبائه وسخائه وتسامحه وسعيه المتصل في طلب الخير للآخرين· من يعرفه عن قرب يجد فيه هذا النقاء اللامحدود، وهذا الإخلاص الفطري، وهذه البشاشة والبساطة غير المتكلفة في كل شيء: لغة وهيئة وحركة· وهذه النظرة المتفائلة المستبشرة بأن الغد سيلد خيراً كثيراً وهو من بعد ومن قبل يتمتع بروح متفتحة، متفهمة ذات قدرة نافذة علي الإنصات، وعلي تلمس مواطن الخير، وعلي التفاعل الإيجابي، وعلي التواصل والألفة بالقدر الذي مكنه من تنمية علاقات إنسانية حميمة مع قاعدة عريضة من الأصدقاء، والمريدين والقراء· لكل هذه السجايا الرفيعة ظل للطيب صالح ألقه الدائم، وعطاؤه الصادق الثري المتجدد ولا جدال أن القارئ سيجد ما يعضد هذا الذي أجملت في شهادات أصدقائه التي يحفل بها هذا الكتاب، ونقلت صوراً حية من سجاياه الفريدة المتسقة مع نتاجه الروائي المتفرد سيحدثونك في هذه الشهادات عن نبل خلقه ورقة شمائله، وتعاطفه الحاني، وفضله ونقاء سريرته.

وتجدر الإشارة بشكل خاص إلي نشأته القروية، فهي دائماً المرجعية الجوهرية لما ظل يمثله من قيم، وما يحمله من عطاء ثابت، وما يدعو له من أفكار، وما يعبر عنه من مشاعر صادقة وخيرة ومحبة لكل أوجه الخير· يقول: "كنت أطوي ضلوعي علي هذه القرية الصغيرة، أراها بعين خيالي أينما التفت، وأتذكرها أحياناً في المنطقة الفاصلة بين ديار الشايقية والدناقلة أهلي من قبيلتي

البديرية والركابية، وربما كانت أنسابهم قد اختلطت بقبائل أخري، لكن معظمهم من الركابية وديارنا توجد في قشابي والعفاض والدبة، وهي التي توجد فيها كرمكول .. الدبة حيث ولدت وترعرت، وكانت بلد علم وعلماء منذ قديم الزمان .. نشأت في هذه المنطقة المفعمة بتاريخها، والزاخرة بعاداتها وتقاليدها المتسامحة، وداخل مجتمع متساكن ومندمج، في أواخر الثلاثينيات والأربعينيات كانت قران مكتفية بذاتها مثل جميع قري شمال السودان، والناس تأكل من الأرض التي تزرعها بالقمح والذرة والدخن والذرة الشامية والخضراوات كانت تلك البيئة تصنع ثقافتها بنفسها، أتذكر عندما يجيء المداحون إلي بلدتنا للتغني بفارغ الصبر، وفور وصولهم تذبح الذبائح ويتجمع الناس ليلاً في دائرة، رجالاً ونساء وأطفالاً، يستمعون بانتباه ونشوة لتلك القصائد".

إن القارئ لأعماله الروائية وغيرها من ألوان التأليف الأخري، ليلمس هذا الانتماء الحميم وهذا العشق البين، وهذا الانحياز بوجد وموضوعية إلي قضايا وطنه وأمته لا يفتعل ذلك افتعال من ينشدون الخطابة والوجاهة السياسية، لكنه يعبر تعبيراً صادقاً عما يختلج في دواخله من أفراح وأحزان، ومن آمال وطموحات ومن إحباطات ولأن كل ذلك ناتج عن انتماء صادق وفيض غامر من المحبة فإنه ينفذ من قلبه وعقله إلي قلب وعقول مريديه.

يقول: " أما السودان، فأنا أحمله بين جوانحي، وحيثما ذهبت وحيثما أذهب. هذا هو الوجع الأول، الوجع البدائي واللانهائي، السودان بلد مليء بالثراء النفسي والروحي، فيه طاقات ومواهب، فيه نساء ورجال إبداع .. كان من الممكن أن يكون السودان أحسن صورة.. السودان حاضرة في مخيلتي أكثر".

ولم يكن انحيازه السياسي لقضايا وطنه وأمته مبنياً علي انحياز حزبي ضيق فقد ظل دوماً معبراً عن فكره ورويته ومشاعره كما تمليها عليه مواقفه من دون شرط أو قيد من حزب أو جماعة وكأني به يتمثل قول الشاعر الأستاذ أحمد محمد صالح في قصيدته الرائعة "فينوس":

هرعـــــوا إليـــــك جماعــــــة	وبقيـــت مثـــل السـيف وحـــدي
هـــــذي اليراعــــة في يـــــدي	لـــو شـئت كانـــت ذات حـــد
لـــو شـــئت ســـالت علقمـــاً	سمـــاً يـــري عنـــد التحـــدي
فـــــإذا رضـــــيت فإنهـــــا	شـــــهد مصـــــفي أي شـــــهد
لي مـــــــن بيـــــــاني صـــــارم	وكتائـــــب العزمـــات جنـــدي

والأستاذ الطيب صالح، إلي ذلك مثقف بأعظم ما يحمل هذا المصطلح من معان ولعل السير دوجلاس نيوبولد، صاحب المحاضرة الشهيرة " الوجه الإنساني للثقافة"، التي قدمها في حفل افتتاح دار الثقافة بالخرطوم في ٣٠ مايو ١٩٤٠، لو عاش، لوجد ذلك النموذج الرفيع للمثقف الذي تحدث عنه في الطيب صالح.

يقول نيوبولد: " إن أهم المكونات الضرورية لشخصية الإنسان المثقف هي صفة "الإنسانية" إذ لا أستطيع أن أصف إنساناً بأنه مثقف لو لم تكن لديه هذه الصفة. والإنسانية تتمثل في أربع صفات: رحابة الخيال، والتسامح، والبساطة، وروح الدعابة.

فالخيال هو الصفة التي يضيفها الإنسان الذكي إلي ما يقرأ أو ما يكتب لكي يزداد فهماً له، ولكي يجعله أقرب إلي الحياة والواقع. أما التسامح فإن المثقف يري أن الحقيقة أمر نسبي، وأن الجمال يشبه قوس قزح في تعدد ألوانه، وأن الموسيقي موالفة بين نغمات مختلفة، وأن العالم أخلاط شتي من البشر.

كما أن التباين في الحياة والطبيعة يولد فيه إحساساً بالنشوة وليس بالضيق أو الضجر ومن المسلمات أن البساطة في العيش والتفكير هي أصوب المثاليات التي تنشرها الحضارة والثقافة، لأن الحضارة حين تفقد البساطة لا يمكن إلا أن تضمحل وترتبك وتعتريها حالة من التخبط والضياع· وثمة تناقض وحقيقة في الوقت ذاته في أن البساطة هي العلامة الخارجية والرمز الظاهر لعمق الفكر· وهي تكاد تكون أصعب شيء يمكن تحقيقه سواء في التحصيل الدراسي أو في الكتابة والتأليف أما الصفة الرابعة وهي الدعابة فلها وظيفة كيميائية، فهي تحدث تحولاً في النسيج الأساسي لفكرنا وتجاربنا· فالدعابة تقترن بالضرورة بالمنطق السليم بروح العقلانية، إلي جانب القوة الذهنية الماكرة القادرة علي الكشف عن التناقضات والحماقات والمنطق الفاسد، وتلك هي أسمى صورة للذكاء البشري وهكذا نجد "المثقف" ينظر إلي كل شيء باهتمام عقلاني ذكي، وتسامح مقترن بروح الدعابة، وخيال رحيب ، وهكذا لا يكتسب الحكمة فحسب، وإنما يفوز أيضاً بما يفوز به الفيلسوف الحق من سعادة متصلة لا تنقطع".

هذه السجايا الإيجابية الحميدة التي تجسد صورة حية لـ "المثقف" في أجمل صوره، تتوافر أدق وأكمل معانيها في الطيب صالح· وقد منحته هذه الصفات الإيجابية القدرة علي الإطلالة والتواصل مع قاعدة عريضة من القراء باللغة العربية وغيرها من اللغات الحية، الذين سحروا بهذا الأدب الروائي الباذخ السهل الممتع في آن والطيب صالح مفكر موسوعي الثقافة، يمثل مرجعاً وافر المعرفة في غير حقل وموضوع يقرأ بنهم ووعي وتفهم في الأدب والسياسة والاجتماع والتاريخ، وهو مفتون بدرجة من الدرجات بعلم المستقبليات الذي ينضوي علي دائرة واسعة من العلوم المعاصرة ولكل هذا فإن إسهاماته المتميزة في العديد من المنتديات الفكرية تمثل إضافة حقيقية في استكشاف محاور وأبعاد الموضوع مثار الحديث.

صديق الطيب

صلاح أحمد محمد صالح

علاقتي بالطيب صالح ليس لها في مخيلتي تاريخ معين ولا تصنيف محدد، فقد تعمّقت جذورها مع الزمن والعشرة الطويلة وتجارب الحياة غير العادية في الغربة، فأصبحت الدروب موحدة والأحلام مشتركة والطموحات متشابهة، وأصبح بالتالي الخيط رفيعًا جدًا بين صفة الصديق الصدوق والأخ الفرد في العائلة، وهو إلي الأخيرة أقرب بالنسبة إلي· وكثيرًا ما كنت أسائل نفسي: كيف كانت ستتشكل جوانب عدة من حياتنا لو لم يلق القدر بكل منا في طريق الآخر؟

ومن عجب أن هذه العلاقة أتت في بدايتها بصورة مغايرة تمامًا لما انتهت إليه في يوم من أوائل شهر فبراير عام ١٩٥٣، كنت أقف أمام الصندوق (الكاشير) في مطعم "هيئة الإذاعة البريطانية" بلندن (حيث كنت أعمل) عندما مالت نحوي "المس بيرتون" السيدة الإنجليزية الفاضلة التي كانت تدير شئون الموظفين في ذلك الوقت، وقالت تبشرني: لقد تم تعيين زميل جديد من مواطنيك السودانيين .. وسوف يصل إلي لندن قريبًا .. سألتها عن اسمه فقالت إنه لا يحضرها ولكن اسمه قريب من اسمي، ووعدت بأن توافيني به عندما تصعد إلي مكتبها .. فألححت عليها ألا تنسي لأنني متلهّف لمعرفة من هو هذا القادم الجديد من السودان.س

كان اهتمامي الشديد بمعرفة اسمه ينبع من حقيقة أنه في ذلك الزمان كانت إذاعة لندن العربية أقوي الإذاعات بالنسبة إلي العالم العربي وأوسعها انتشارًا .. وكان المذيعون العرب فيها نخبة محدودة، ومعروفين جيدًا وعلي نطاق واسع بين المستمعين في كل أنحاء العالم العربي لذلك كانوا يتبارون ويتنافسون ويجودون· كل له جمهوره ومعجبوه .. مثل نجوم السينما في ذلك الزمان .. وما هو أهم ومع وحدة المشاعر العربية القومية أن كل واحد منهم كان يعتبر نفسه سفيرًا لبلاده من خلال ذلك الجهاز الخطير، وكأنه يحمل سمعتها علي كتفيه.

لذلك كان حرصي المتزايد علي معرفة زميلي الجديد وما هي خلفيته الإذاعية والفنية والكفاية التي أهلته للوصول إلي هذا المكان المميز .. وهل سيكون في المستوي المناسب الذي آمله ليمثل السودان ويشرفه؟ .. وهل سيكون صديقًا وأخًا "أشد به أزري"؟ وقد كنت السوداني الوحيد في تلك المؤسسة .. فعلا هاتفتني المس بيرتون لتخبرني باسم الزميل الجديد "الطيب محمد صالح".. الاسم ليس غريبا عليَّ، ولكن أين؟ ورحت أضغط علي الذاكرة أن تسعفني .. ومازلت بها حتي عادت بي إلي أيام الدراسة في أواخر الأربعينيات من القرن (الذي مضي الآن) .. في السنة النهائية بمدرسة "وادي سيدنا" القريبة من أم درمان .. وارتسم أمام عيني وجه تلميذ من أبناء قري شمال السودان .. لكني قلت لنفسي للوهلة الأولي: لا، لا يمكن أن يكون هذا هو .. وحاولت أن أصرف النظر عنه تمامًا، لكن الذاكرة تعود فترسم أمامي ذلك الوجه من جديد .. وهكذا، إلي أن استسلمت وأكدت لنفسي·· لا فائدة .. إنه هو بذاته.

كنت أصادفه من حين إلي آخر بين الفصول أو في ميادين المدرسة وقاعات الطعام وعندما كنت أزور بعض الأصدقاء المشتركين في داخلية

"نيوبولد" التي تسكنها أكثرية من الطلبة أبناء شمال السودان، وكان هو واحدًا منهم.

وفي كل مرة نلتقي لم يكن بيننا غير تحية عابرة إن لم تكن فاترة.. التفاعل الكيميائي بيننا لم يكن علي ما يرام .. وكنت أحس أن عنده لي قدرًا من عدم الاستلطاف في مجتمع المدرسة؛ بقدر ما كان هو هادئًا ذا نزعة اعتبرتها انعزالية وغير ودية، يعزف عن "دوشة" التجمعات والشلل الطلابية، كنت أنا علي العكس من ذلك تمامًا؛ ضجيجًا متحركًا لا يهدأ في كل أركان المدرسة .. في الداخلية والجمعيات وميادين الرياضة والمسرح .. إلخ .. وقد اعترف لي الطيب، فيما بعد أنه كان يعتبرني مهرجًا، واعترفت له أنني كنت أظن أنه "متخلف"! وفي الحقيقة كان لهؤلاء الفتية من خارج العاصمة رأي سلبي مسبق في أولاد "العاصمة" وأم درمان علي الخصوص، وأنا من أم درمان .. يسموننا "أولاد الأفندية" المتعلمين المتعالين دون مبرر، حلوقهم وحناجرهم أكبر من عقولهم؛ أو كما ذكر الطيب في ذكرياته ما معناه أنهم كانوا يملأون الدنيا ضجيجًا وجعجعة خارج الفصول .. ويلزمون الصمت في داخلها حيث يحتل المسرح أبناء الأقاليم المساكين "الشطار".

علي هذه الخلفية افترقنا في وادي سيدنا، وكان الطيب صالح في ذاكرتي طيفًا ضبابيًا ما لبث أن تبخر ولم أتوقع أن نلتقي مرة أخري؛ لكن "حمدًا لله" أن ساعي البريد دائمًا يقرع الجرس مرتين، كما تقول الرواية الغربية.

ظللت قلقًا قبل وصول الطيب إلي لندن، وأتساءل: ما لهذا الفتي "القروي" الخام والإذاعة والإعلام والفنون الحديثة؟ صحيح أنهم كانوا يقولون عنه

إنه طالب نجيب ومتقدم في فصله .. لكني لم أعرف له، وما توقعت، اهتمامات بعالم الإذاعة والإعلام .. لا شخصيته ولا سلوكه (الوجه الذي رأيته لهما فيه) يوحيان بأن هذا هو مجاله .. وحسبت أننا مقبلون علي مشكلة.

وحضر الطيب إلي لندن وتعارفنا من جديد، علي أسس جديدة، ففي الغربة تزول الحواجز وتتلاشي التصنيفات، فنغدو سودانيين وحسب وكان التقليد في الإذاعة أن يتولي مذيع قديم تعريف الزميل الجديد بنوعية ومتطلبات العمل، كأن يصطحبه معه إلي الاستوديو ليجلس ويراقب ويتدرب إذا كان جديدًا علي المهنة٠ وبعد فترة يمنحه الفرصة ليقرأ بعض الأسطر علي الهواء أو يترجم بعض المواد، وهكذا .. وكان من نصيبي وحسن حظي أن أتولي هذه المهمة بالنسبة للطيب، خاصة أنني السوداني الوحيد في القسم (كي يطمئن قلبه).

هذه المهمة زادت من التقارب واللقاءات بيننا، خصوصًا أن بعضها كان في النوبات الليلية حتي الفجر حيث نقضي الليل بطوله معًا وسرنا في درب الصداقة والتقارب وسرعان ما اكتشفت أنني كمن يزيل الطبقات تدريجيًا عن كنز ثمين.

ولأن لندن كانت جديدة وغريبة عليه، وكان هو بطبعه آنذاك حييًا خجولا يتحسس طريقه بحذر .. ولأنني كنت قد عرفت الطريق قبله، فكنت أستحثه وأشجعه علي الخروج والتعرف إلي الناس والمجتمع من حولنا٠ ودرجت علي تقديمه إلي أصدقائي ومعارفي علي أنه صديقي، لذلك كانوا يعرفونه بأنه "صديق صلاح" فلما تكررت هذه الصفة "وزادت حبتين" وسط الأصدقاء يبدو أن الطيب انزعج وضاق بها وفي يوم قال لي (بلهجة مزاح فيها خلطة من جد) ما معناه: أصحابك ديل ما عندهم لي اسم غير "صديق صلاح".. لكن ما

رأيك سيأتي يوم يسمونك أنت "صديق الطيب"؛ فرددت عليه مازحًا: "لا بأس .. احلم يا صديقي .. الأحلام ليس عليها ضريبة".

ودخل الطيب مجال الإذاعة لأول مرة .. من أوسع أبوابها وأشهرها في ذلك الزمان (هيئة الإذاعة البريطانية) وسرعان ما تفجرت مواهبه وإبداعاته.

الشاب الذي كنت "قلقًا بشأنه" خائفًا علي سمعة السودان أن تمس؟ أخذ يثير دهشتي وإعجابي كل يوم بجديد فقد حقق الطيب في إذاعة لندن ما لم يبلغه سوي قلة من النوابغ، فكان المذيع اللامع ذا الصوت العميق الدافئ الودود، الذي يشد الآذان والقلب معًا حين يقرأ حديثًا تشعر كأنك تستمع إلي صديق تأنس إليه يحدثك من مقعد مريح مقابل وأنتما تجلسان حول مدفأة .. وحين يدير حوارًا يسحر ضيفه بقدر ما يسحر المستمع! وحين يقرأ الشعر يكاد جهاز الراديو أن ينقلب إلي تلفزيون ينقل خيالات الشاعر صورًا تتراقص أمام عينيك!

أصبح الطيب أيضًا المخرج الإذاعي القدير الذي قدم روائع الفن العربي والعالمي، ثم صار رئيسًا لدائرة الدراما والمنوعات في القسم العربي التي حققت قفزات مشهودة في عهده؛ بل إن هذا الفتي، الذي لم تكن الإذاعة في باله حتي وقت قريب، أصبح من النخبة المختارة التي تحاضر في الفن الإذاعي بمدرسة الإذاعة التابعة لهيئة الإذاعة البريطانية التي يدرس بها إذاعيون من مختلف أقسام الهيئة العالمية ومن مختلف أرجاء العالم وارتقي الطيب سلم الأداء الإذاعي الرائع بخطوات سريعة فلم تكن قد مضت سوي بضعة أشهر علي التحاقه بهذا العالم الجديد عليه حين اختارته هيئة الإذاعة البريطانية من بين الصفوة من مذيعيها الذين نقلوا للعالم مراسم تتويج الملكة إليزابيث الثانية في اليوم الثاني من شهر يونيو ١٩٥٣وكان موقعه أهم المواقع في قلب كنيسة وستمنستر حيث يوضع

التاج علي رأس الملكة· وإلي وقت قريب كنت أحتفظ بصورة له وهو يرتدي "البونجور" والقبعة العالية التي كانت مفروضة عليه في تلك المناسبة ومن الطريف أنه اضطر بعد ختام الحفل أن يستقل "المترو" ثم يركض وراء الباص وهو علي تلك الهيئة في ذلك اليوم غزير المطر!

نال الطيب مكانة اجتماعية وأدبية سامية في مجتمع الإذاعة وأروقتها ومنتدياتها أذكر أننا اعتدنا أن نجلس بعد ساعات العمل (في كافيتيريا) الإذاعة، وكان يدور نقاش جدي يتناول مواضيع سياسية وأدبية شتي يشارك فيه عرب من جنسيات مختلفة وبريطانيون وآخرون· وكان أكثر ما يبهرني وأنا أستمع إلي الطيب وهو يسهم في ذلك النقاش، فضلا عن بلاغته وتمكنه من الكلمة، عربية كانت أم إنجليزية، عمق ثقافته وسعة إطلاعه أسمعه يحاور البريطانيين في أدب شكسبير وتنيسون ولورد بايرون وفيتزجرالد وازبورن، ويحاور العرب بالعمق والتمكن ذاتهما، في الأدب العربي من عصور المتنبي وأبي نواس وابن الرومي وذي الرمة، مرورًا بشوقي وحافظ وطه حسين إلي عصر نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونزار قباني وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي، ويطوف معهم في بساتين بيرم التونسي وصلاح جاهين وفؤاد حداد، والحردلو والعبادي والرضي (من أمراء الزجل السوداني) ويحفظ من أقوال كل هؤلاء وأشعارهم الكثير.

وكنت إذ أشعر بزهو وفخر وأنا أصغي إليه، أسائل نفسي: متي تسني لهذا الشاب، وكان في النصف الأول من عشريناته، أن يكون هذه الثروة الثقافية الضخمة والمتنوعة، وقد عاش ردحًا من تلك الفترة القصيرة ما بين تخرجه في السودان ووصوله إلي لندن، في أماكن نائية من بلادنا؟

وثمة تجربة أخري مشتركة في لندن مع الطيب· فقد التحقنا سويًا عام ١٩٥٦ بمعهد الشئون الدولية بجامعة لندن· وكان الفصل يضم، غير البريطانيين، عددًا من الطلاب من مختلف الجنسيات من بينهم دبلوماسيون محترفون أوفدتهم بلادهم لمزيد من التخصص وقد احتل الطيب في هذا الفصل ما أعاد إلي ذهني الأحاديث التي كان يرويها عنه زملاء الدراسة في السودان حيث كان عبقري الفصل الذي يقوم أحيانًا بوظيفة الأستاذ حين يغيب الأستاذ وينيبه عنه في لندن وإن لم يصل بالطبع إلي حد القيام بوظيفة الأستاذ الغائب إلا أن مداخلاته ومحاوراته مع دهاقنة الشئون الدولية والاقتصاد في ذلك المعهد (وبينهم نابغة السياسة الدولية شوازنبرجر وزميلاه غريد وشيخ الصين وعالم التاريخ المرموق البروفيسور كيتون) كانت تبهر الطلاب والأساتذة معًا.

بالنسبة إلي شخصيًا كان وصول الطيب إلي لندن محطة رئيسية في تشكيل كثير من جوانب حياتي في الغربة وما بعدها· تقاسمنا فيها الحياة والزمن ولقمة العيش ولم نكن نفترق إلا فترات قصيرة جدًا، ودائمًا كنا نلتقي آخر الليل لنمارس نقاشًا طويلا يستمر إلي الساعات الأولي من الصباح وقد تعلمت منه الكثير في مجال الأدب والفكر، وعلمت عنه بعضًا من كثير.

وشهدت رفقتنا في تلك الأيام إضافة جميلة بوصول عبد الرحيم الرفاعي (الضلع الثالث في المثلث) .. مصري صميم من نبلاء المنصورة .. ما أطيب عشرته.

ثم تشاركنا الطيب وأنا السكن، فأصبحنا كما يقولون "في وجه بعض" ليل نهار وهذا وضع يحتاج إلي قدر كبير من التسامح والتنازل وطول البال وأعترف أنني كنت الأسعد حظًا إذ لم أعرف في حياتي قط شخصًا في مثل طول بال الطيب صالح وتسامحه ومروءته رجل لا يغضب ولا يُغضب .. وبقدر ما يكون

الشخص أمامه "ثقيلا"! يكون هو متسامحًا واسع الصدر، لا تستطيع أن تستفزه وإن حاولت .. يجرّدك بردودة فعله الهادئة من كل أسلحة ومسببات اللوم والغضب ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يوقع أحد بين الطيب وبين صديق أو معرفة فهو لا ينصت للنميمة، ويوجد لتصرفات الآخرين وإن أساءوا إليه، ويدير دفة الحديث إلي جوانب الخير في الإنسان. وبقدر ما كان تسامحه يفوق الحدود، كان كرمه وأريحيته وعطاؤه للآخرين، وفي بعض المناسبات كان يحيرني كرمه وعطاؤه (المبالغ فيه) وأنا أعرف أن إمكاناته المالية كانت محدودة وقد لا تفي في ذلك الوقت تحديدًا لسد حاجاته الشخصية الضرورية.

لم يكن يهتم كثيرًا بالمال وتكديسه كان راتبه يتبخر قبل انقضاء الثلث الأول من الشهر وتسأله كيف سيدير أموره؟ فيردد جملته المشهورة "الله كريم".. ولو أردت أن أضرب أمثلة لكل ما ذكرت من صفات لضاقت هذه الصفحات.

في داخل الشقة لم يكن يطالبني بأي عمل، يقوم هو عن طواعية وسماحة نفس بعمل كل شيء .. يطبخ وينظف وينظم الدار، فإن شاركته في جزء من ذلك كان به وإلا فإنه لا يهتم وهذا جانب من جوانب فضيلة التواضع التي كانت من أبرز صفاته. فقد كان يعاملني كالأخ الأكبر علي رغم أننا ولدنا خلال شهر واحد (بل إنه يكبرني بكذا وعشرين يومًا).

ذات مساء ونحن في الشقة ألقي الطيب أمامي بحزمة أوراق وطلب مني أن أقرأ ما بها وأعطيه رأيي .. وغادر إلي دوامه الليلي في الإذاعة وبقيت أنا في الشقة. وبدأت أقرأ .. قصة "نخلة علي الجدول". ووقف شعر رأسي كما يقولون وأعدت القراءة مرتين وثلاثًا وأنا مبهور بما أقرأ. ولما استيقظ الطيب في ساعة متأخرة من النهار جاء يسألني بصوت كسول: "ما رأيك يا شيخ صلاح في هذا

الكلام ... ينفع؟". ولم يكن لي رأي سوي أني اكتشفت أني كنت أعيش طوال هذه المدة في شقة واحدة مع عبقري دون أن أدري!

بعد سنوات تجاوزت ربع القرن، وكنت وقتها أعمل بسفارة السودان في لاهاي أرسل إلي ناشر هولندي نسخًا من "موسم الهجرة إلي الشمال" مترجمة إلي اللغة الهولندية .. ولعل ذلك الجنتلمان الهولندي لم يكن يقدر عظيم الهدية التي أرسلها إلي ومدي ما تملكني من سعادة وفخر عند استلامها.

رحت أقلب الصفحات واحدة بعد أخري مرات عدة كمن يقرأها وأنا لا أعرف من اللغة الهولندية سوي اسمها· ثم بقيت تلك النسخة فوق مكتبي مطوية علي غلافها الأخير وعليه صورة شاب للمؤلف: الطيب صالح، أتأملها من حين إلي آخر· ولا أدري لماذا يقفز في ذهني كل مرة ذلك التعبير السريالي DEJA VU (ديجا فو)!

ذات مساء في مطلع الثمانينيات (من القرن الماضي أيضًا) دعيت لمشاهدة فيلم "عرس الزين" في قاعة الصداقة في الخرطوم وكان ضيف الشرف ونجم الحفل ومحط الأنظار هو مؤلف الرواية الطيب صالح ودعي إلي الحفل الوزراء والسفراء و"كبارات" البلد من مختلف الدروب .. ولسبب أو لآخر أجلسوني مباشرة علي يمين الطيب.

وخلال الحفل مال الطيب نحوي وهمس بما معناه: يا شيخ صلاح، تذكر زمان قلت لك إنه سيأتي يوم يسمونك أنت "صديق الطيب"؟ أدركت مقصده فقلت مازحًا "لا أذكر" فأضاف متسائلا بلهجته البطيئة: "يعني تفتكر إنت مدعو الليلة بصفتك شنو؟" ولحسن الحظ بدأ العرض وانقطع الحديث!
كان هذا كلامًا ومزاحًا في الهواء ولكن اليوم وقد أصبح الحديث علي الورق

ونحن نكرم صديقنا الأعز وكاتبنا العبقري الفذ، الذي أنعم الله عليّ بعلاقة معه أثرت حياتي وعمرت قلبي بالمحبة والود وكل ما هو جميل.

اليوم أقول: يا سادتي "كم أنا سعيد وفخور بأن أكون فقط .. صديق الطيب.. ".

سيبقي الطيب صالح أمة في كاتب وكاتباً في أمة

طلحة جبريل .
صحيفة "الأحداث" ٢٠ /٢٠٠٩/٢

غادر الطيب صالح الخرطوم في شتاء عام ١٩٥٣ في رحلة ستمتد أزيد من نصف قرن، وكان ذلك في فبراير من تلك السنة، ويتوقع أن يعود الطيب صالح إلي السودان فجر غد الجمعة من شهر فبراير، جثماناً يرافقه شقيقه بشير محمد صالح وصديقه محمود عثمان صالح، ليدفن في مقابر البكري في أم درمان، هذه المدينة التي قال عنها: "هي المدينة التي ترنو إليها باقي بلاد السودان ..

كان كل واحد منا يجد أن لديه أقارب أو أهلاً في أم درمان .. مكاناً ميكروكوزم .. لقد بدأت أم درمان تتكون بكيفية طبيعية لكننا كسرناها لسوء الحظ".

في آخر حديث هاتفي بيننا تحدثنا عن أم درمان، وأحسست بفرح غامر عندما قلت له إنني ربما أعود إليها عودة عاطفية هذه المرة، ولم يكن يدور بخلد أحد منا أن الطيب نفسه سيعود إلي أم درمان ليواري الثرى في المدينة التي درس خلالها المرحلة الثانوية في واحدة من أهم ثلاث مدارس ثانوية في أربعينيات القرن الماضي.

الطيب صالح تلخص شخصيته عبارة كتبها هو نفسه يصف فيها أحد الكتاب: "هو من طراز مبدعين يظهرون في حياة الأمم خلال فترات متباعدة كان كاتباً في أمة أحبها وأحبه كثيرون .. وكان أمة في كاتب".

كان الطيب صالح هو السودان، وكان السودان هو الطيب صالح، لأنه جمع في كتاباته بين قدرات كاتب عملاق، ومبدع مرهف الإحساس، ومفكر عميق الفكر، وإنساناً قل أن يجود الزمان بمثيل له.

وعلي الرغم من أن روايته "موسم الهجرة إلي الشمال" اختيرت ضمن أفضل مائة عمل في تاريخ الإنسانية، يقول الطيب بتواضعه الجم: "أقول لك صادقاً ليس لدي أي إحساس بأهمية ما كتبت، ولا أحس أنني مهم، هذا ليس تواضعاً لكنها الحقيقة، إذا اعتقد الناس أن ما كتبته مهم فهذا شأنهم لكنني قطرة في بحر، قصيدة واحدة للمتنبي تساوي كل ما كتبته وأكثر".

هذا هو الطيب صالح في حقيقته، تلخصه كلمة واحدة "التواضع" ولعل من مفارقات لعبة التواريخ في حياة الطيب صالح، أنه ولد عام ١٩٢٩، واحتفظ برقم تسعة أيضا وهو يغادر.

أطلقت والدته عائشة أحمد زكريا عليه اسم "الطيب" بعد أن فقدت اثنين من أشقائه قبل أن يأتي الطيب، وكان الناس في قري شمال السودان، يعتقدون أن "الطيب" اسم تحل به البركة إذا كانت الأسرة تفتقد مواليدها، والده محمد صالح أحمد، وأهله يتوزعون ما بين "الدبة" و"العفاض" وهي من قري منطقة مروي، عاش الطيب مثل أهله حياة المزارعين، لذلك يعتقد الطيب صالح أن بيئة القرية في المجتمع المتساكن والمندمج هي التي ستحفزه بعد ذلك بسنوات طويلة علي

الكتابة: "كتبت حتي أقيم جسراً بيني وبين بيئة افتقدتها ولن أعود إليها مرة أخري".

عاش الطيب صالح في قريته كما يعيش أهلها، وهو يقول بحنين يبدو جارفاً عن تلك الفترة: "في هذه البيئة بدأت مسيرة حياتي، ورغم أنني تعرجت في الزمان والمكان بعد ذلك لكن أثر البيئة لا يزال راسخاً في أعماقي، وأعتقد أن الشخص الذي يطلق عليه لفظ كاتب أو مبدع يوجد طفل قابع في أعماقه، والإبداع نفسه في البحث عن الطفولة الضائعة، حين كبرت ودخلت في تعقيدات الحياة كان عالم الطفولة بالنسبة لي فردوساً عشت خلاله متحرراً من الهموم، أسرح وأمرح كما شاء لي الله، وأعتقد أنه كان عالماً جميلاً"، "ذلك هو العالم الوحيد الذي أحببته دون تحفظ، وأحسست فيه بسعادة كاملة وما حدث لي لاحقا كان كله مشوباً بالتوتر".

ويكشف الطيب صالح النقاب عن مسألة في غاية الأهمية: "لقد كانت قريتي مختلفة تماماً عن الأمكنة والمدن الأخري التي عشت فيها، ولاشك أن هذه المنطقة هي التي خلقت عالمي الروائي".

انتقل الطيب صالح إلي دراسة المرحلة الوسطي"المتوسطة" في مدينة بورتسودان علي البحر الأحمر، بيد أنه ظل مشدوداً إلي قريته: "في بورتسودان بدأ يراودني إحساس بأن هذا الشيء الجميل الذي تركته خلفي سيضيع".

في المرحلة الوسطي ستبدأ علاقة الطيب صالح مع اللغة الإنجليزية: "حين بدأت تعلم اللغة الإنجليزية اكتشفت مدي حبي لها .. والواضح أن سبب تفوقي في اللغة الإنجليزية كان مرده حبي لهذه اللغة".

بعد المرحلة الوسطي، سينتقل إلي أم درمان، حيث سيتابع دراسته الثانوية في مدرسة "وادي سيدنا" ولا يخفي الطيب صالح إعجابه بتلك المدرسة "كانت مدرسة وادي سيدنا مدرسة فاخرة، بناها الإنجليز بناء باذخاً علي غرار أعظم المدارس في إنجلترا، وكنا ندرس تماما كما يدرس الإنجليز في مدارس الأرستقراطيين في أيتون وهارو".

كان طموح الطيب صالح أن يدرس في كلية الزراعة بعد المرحلة الثانوية، ولعله في ذلك بدا متأثراً وشديد الانجذاب إلي بيئته الزراعية، بيد أن الميولات الأدبية أيضا كانت حاضرة وهو يفكر في دراسته الجامعية: "كنت أفكر في دراسة الأدب، حتي مستر لانج، ناظر مدرسة وادي سيدنا الثانوية، شجعني علي دخول كلية الآداب، لكن كانت تستهويني دراسة الزراعة إذ بدت لي مسألة رومانتيكية".

بيد أن الطيب صالح الذي التحق بكلية الخرطوم الجامعية "جامعة الخرطوم" عام ١٩٤٩، سيقرر ترك الجامعة برمتها عندما وجد أن السنة الأولي في كلية العلوم التي ستقوده بعد ذلك إلي دراسة الزراعة تتطلب منه تشريح الصراصير والفئران، ونفر من هذه الأمور وقرر قطع دراسته الجامعية حيث التحق بالتدريس، ليدرّس اللغة الإنجليزية في مدينة رفاعة في وسط السودان.
وعلي الرغم من أن الطيب صالح كان يود العودة إلي الجامعة من جديد لاستكمال دراسته الجامعية في كلية الآداب، بيد أن إعلاناً من هيئة الإذاعة البريطانية "بي. بي. سي" يطلب مذيعين ومحررين ومترجمين سودانيين، قلب حياته رأساً علي عقب، وهذه التجربة القاسية لشاب عمره ٢٤ سنة فقط، هي التي ستمحنا كاتباً وروائياً عالمياً، لأن الطيب كتب: "فقط لأقيم جسراً بيني وبين بيئة افتقدتها بدون سبب".

بيد أن الطيب لم يكن سعيداً علي الإطلاق في هجرته إلي لندن: "جئت إلي بلد لم أكن أرغب فيه لأعمل عملا هو كذلك ليست لي رغبة فيه.. تركت الأهل والأحباب والدور الفسحة والتواصل الاجتماعي لأجد نفسي داخل غرفة صغيرة برودتها لا تطاق في بلد غريب بين قوم غرباء".

اهتم الطيب صالح خلال سنواته الأولي في بريطانيا بالمسرح، وقرأ كتباً كثيرة في الأدب والفن والتاريخ والاجتماع، وفي السياسة وجد نفسه ميالاً للاشتراكية العمالية، واندمج في حياة لندن وتزوج من زوجته جولي "بريطانية"، ورزق منها بناته زينب وسارة وسميرة.

بدأت علاقة الطيب صالح مع الكتابة في وقت مبكر عكس ما هو رائج، إذ كتب أول قصة قصيرة عام ١٩٥٣، بعنوان "نخلة علي الجدول" ستنشر لاحقاً ضمن المجموعة القصصية "دومة ود.حامد". يقول عنها الطيب صالح: "قصة بسيطة كتبتها ببساطة شديدة جداً .. كانت القصة تعبيراً عن حنين للبيئة ومحاولة لاستحضار تلك البيئة".

وبعد "نخلة علي الجدول" لم يكتب الطيب صالح علي مدي سبع سنوات حرفاً واحداً، ثم كتب "حفنة تمر" ثم"دومة ود.حامد" ونشرتها مجلة "إنكونتر" الأدبية الإنجليزية التي كانت آنذاك زوبعة ثقافية، واعتبر نشر تلك المجلة لقصة الطيب صالح، هو بمثابة الميلاد الحقيقي لأديب عالمي، وفي عام ١٩٦٤ كتب الطيب صالح روايته الأولي "عرس الزين"، وفي عام ١٩٦٦ كتب روايته ذائعة الصيت "موسم الهجرة إلي الشمال".

كثيرون يعتقدون أن مصطفي سعيد بطل "موسم الهجرة إلي الشمال" فيه بعض ملامح الطيب صالح نفسه، وفي هذا السياق يقول الطيب: "الذي يطرح

أفكاره علي الناس علناً عليه أن يتحمل تبعات ذلك، لذلك لا يزعجني أحياناً حين يسألني بعض الناس هل مصطي سعيد يشكل جزءاً من سيرتي الذاتية؟"، ويضيف الطيب: "يبدو لي أحيانا أن البشرية تائهة وأنا تائه معها، لذلك لا أطالب الناس بأن تفهمني كما أريد، الكاتب نفسه لا يعرف ماذا يقول وماذا يكتب".

قبل أن يرقد الطيب صالح رقدته الأبدية تحت سماء السودان الصافية التي تعج بالنجوم، سيقول المشيعون "جنازة رجل" قبل الصلاة عليه، لكن، أي رجل سيواري الثري، الرجل الذي جعلنا نقول باعتزار: "نحن من بلد الطيب صالح".

أما أنا شخصيا الذي اعتقدت دائما أن مجرد وجود الطيب صالح في هذه الدنيا يجعلها خيرة، وفي هذه اللحظة التي تطفح بالمشاعر أقول صادقاً إن أحزاني فاضت وفاضت، وعندما قال لي شقيقه بشير: وهو يعتقد أنك أفضل من ستكتب عنه، بقيت ساعات في حالة ذهول وفجيعة، وسط دموع رجوت أن أغلبها ولا تغلبني، ما أوسع الحزن وما أضيق الكلمات، كان الطيب صالح في حياته أكبر من الحياة وسيظل الطيب صالح في موته أكبر من الموت.

لعبة الموت مع الطيب صالح

د. محمد إبراهيم الشوشي ..
مجلة "المجلة" ٢٠٠٩/٣/٧

شاء لي القدر أن أكون أقرب الناس وألصقهم بالطيب صالح كان ذلك حتي قبل أيام قليلة .. نعمة الدهر ومنحة القدر انتزعها بقسوة وشراسة .. ذاك الصباح الحزين يوم الجمعة ٢٠ فبراير ٢٠٠٩ بمقابر البكري، ولو كنت أعلم أن مآل تلك الصداقة الحميمة هذه الهجمة الشرسة علي قلبي وكياني ما سعيت لها ولا رحبت بها.

وقد صدق المتنبي حين قال:

لو دري العاشق منتهي عشق الذي سباه لم يسبه

كان يكبرني ببضعة أعوام ومع ذلك لازمته بصلة القربي والدم صديقاً ورفيقاً في درب الحياة، لا نفترق حتي إن بعدت بيننا المسافات.

في لندن سنا في شقة واحدة وكنت أقضي الوقت معه في صالة البي بي سي أكثر مما أقضيها في صالة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن، وفي كل بلاد الدنيا كنا نلتقي باتفاق وبغير اتفاق، في الدوحة كنا نعمل سوياً ونعيش سوياً، ولولاه ما نجحت "مجلة الدوحة" كانت له اليد الطولي في نشأتها ورعايتها وفي واشنطن، كنا نلتقي سوياً في شقة صديقنا الفاتح إبراهيم، نسمع أشعار السودان وأغانيه ومدائحه وتغمرنا روحه ونضحك كثيراً ونبكي أحياناً، يشفنا الوجد وتضنينا الغربة، وقد دفعنا الحنين يوما إلي أن غنينا أغنية

سودانية في المركز العربي بواشنطن، وعجب الناس أن يروا مؤلف "موسم الهجرة إلي الشمال" يغني بصوت منطلق وفي محبة غامرة وقد نسي نفسه والعالم حوله حتي لقد وقف الناس يهللون ويصفقون.

وكنا نلتقي بصفة دائمة في الجنادرية السعودية وفي أصيلة في المغرب ثم .. ثم .. دهمه المرض، جاء خلسة ثم استوطن ثم تمكن وعلي الرغم استسلامه لمحبيه الكثر لالتماس العلاج في كل مظانه، واستعداد المئات الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم لبذل المال بلا حساب، ومنهم امراء وشيوخ ومسئولون وكبار ومعجبون فقد ظل المرض يراوغ، ثم يطعن من الخلف، تارة في الصدر وتارة في العنق وتارة في شرايين القلب، وكلما اقترب الأمل تصدي له المرض وأبعده، كان المرض اللعين مصراً علي أن يقفل علينا كل النوافذ والأبواب، لا نفتح باباً حتي غلقه في مكان آخر.

وكان الطيب هو الوحيد الذي يعرف سر هذا الإصرار ومآله، فقد قابل الموت وجهاً لوجه في بيروت ونجا منه بأعجوبة أذهلت الأطباء، وسافر في مهمة إلي قبرص، وهناك كما يحدثنا في آخر رواياته "الرجل القبرصي" قابل مندوب الموت الذي قال له فيما يشبه المداعبة أو التهديد: لقد نجوت من الموت هذه المرة لأن والدك قد افتداك بروحه، وفي المرة المقبلة حين يدهمك الموت لن يفتديك أحد، وبعد ذلك بفترة قصيرة جاءه نبأ وفاة والده الذي وصف موته بأحلي الكلمات وأعذبها في رواية "مريود".

وتابع المئات مرضه الذي أقعده عن أهم شيء كان يعيش به وله: السفر لمقابلة الأصدقاء والأحباب: حكم عليه المرض بالسجن وتنقية دمه الملوث بالمرض عشر ساعات من كل أسبوع.

كان الآخرون يتابعونه من بعد، وكنا - زوجته المكلومة رفيقة خمسين عاما من عمره وبناته الثلاث زينب وسارة وسمير وشقيقه بشير- نعيش المأساة كما لو كان المرض قد انتقل إلينا، وحين اشتد به المرض وبدأ الموت ينتقل فوق جسده في حركة سريعة، أصبحت من شدة الإشفاق عليه أتمني أن يموت.

كفي بك داء أن تري الموت شافياً   وحسب المانيا أن يكون أمانيا

قلت لمحدثي في فضائية "الجزيرة" وكنت لا أزال مذهولاً بهول الصدمة، وقد نسيت معها أنه كان كاتباً وروائياً طبقت شهرته الآلاف واختبرت روايته "موسم الهجرة إلي الشمال" كواحد من أروع مائة عام عمل أنتجته البشرية - وكان مقدم البرنامج قد سألني ما الذي يميز الطيب صالح؟ قلت: لو لم يكن الطيب صالح كاتباً أو روائياً لكان متميزاً كأروع إنسان قابلته ونعمت بصداقته.

كان الطيب صالح إنساناً نادراً لا مثيل له، ولا أقصد بذلك الفحشاء والمنكر وارتكاب الحماقات التي يغرق في بحرها بعض التعساء من الناس، لكني أعني أكثر من ذلك أنه كان يخلو تماما من ذلك النقص البشري الطبيعي الذي ظل يلازم الإنسان منذ أن خلق، وقد وصفه مرة الأستاذ محمد بن عيسي، وزير خارجية المغرب السابق، بأنه طوال معرفته به لم يسمعه يطلب شيئاً لنفسه أو يتحدث بسوء عن أحد، وأن نقاء سريرته شيء لا يوصف، وقال الكثير .. الكثير .. الكثير عنه.

قلت للوزير محمد بن عيسي ذاك المساء إنك تتحدث عن شخص تقابله الفينة بعد الأخري ولبضع ساعات أو أيام، ويمكن لأي إنسان أن يخفي ما بداخله في هذه اللحظات القصار، ولكن ما رأيك أنني عشت معه وبقربه سنوات طويلة، وكان كما ذكرت وأكثر.

وذلك أمر غير طبيعي فقد خلق الإنسان ضعيفاً يستجيب للإغراء ويستسيغ المدح والإطراء ويغضب أحيانا ويسخط أحياناً ولا يبقي علي حال أبدا، إذا مسه الشر جذوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً.

الطيب: بعكس خلق الله جميعاً لا يغضب أبداً ولا يعاتب ولا يلوم ولا يفقد أعصابه مهما لحقه من سوء حتي لقد ثار في وجهه صديقه الحميم الشاعر صلاح أحمد محمد صالح في غضب شديد، وكان الطيب قد تعرّض لما اعتبره صلاح إهانة شخصية وسكت عليها: يا أخوي الطيب بالله عليك متي تغضب؟

والطيب صالح كما يعرفه الجميع يكره أن يمدحه أحد وكان يؤكد أنه كاتب لا نفع فيه لأهله الذين يحتاجون في فاقتهم ومرضهم إلي من يعالجهم ويقوم علي خدمتهم.

كنا في أصيلة نحضر مهرجانها الثقافي السنوي، وكنا في جلسة تحتفي بالطيب صالح، والمتحدثون يتبارون في إبراز ملامح هذه الشخصية وذاك السلوك الملائكي الذي يتصف به الطيب صالح والذي يتنافي مع طبيعة البشر، وحاولت أن أجد لذلك تفسيراً مقنعاً فخطر لي أن الطيب صالح قد نزع عن نفسه كل المشاعر البشرية السالبة ووضعها في شخصيات رواياته.

ومن غرائب الصدف أنني كنت أستمع بعد وفاته إلي شريط مسجل يقول فيه الطيب: إن الكثير من القراء يعتقدون أنه مصطفي سعيد وهو ينكر أن يكون الكاتب نسخة طبق الأصل لشخصيات رواياته وقراءاته، وربما تنسحب عليها بعض ملامح من شخصه وهذا شيء طبيعي، وتساءل الطيب: لماذا لا يشبهونه بـ"الزين" الدرويش "فأنا مثله لا أخلو من دروشة؟".

يريد الطيب أن يقول في شخصه كثيراً من صفقات شخصياته، به شيء من جده في نخلة علي الجدول ومصطفي سعيد في موسم الهجرة، والزين في عرس الزين والرواية في كل أعماله.

ألا رحم الله الطيب صالح فقد كان إنساناً نبيلاً عظيماً.

في صحبة الطيب الإنسان

محمد الحسن أحمد

يلمس المرء في كل إنسان مهما بلغ الانبهار بشمائله القمم، تفاوتاً في نسب سمو ذلك الانبهار باعتبار أن هناك خصالاً تعلو درجات في السمو علي خصال أخر· إلا عزيزنا الحبيب، صديقنا الصدوق الروائي العالمي الطيب صالح فكل خصاله نبيلة وتتدافع في السمو في سباق محمود ومتوازن، مما يضاعف الانبهار والإعجاب والاعتزاز بصحبة شخصيته المتميزة في شتي مناحي الحياة.

وهذا الإنسان الشامل يصعب تناول شخصيته بكل معاني الشمول في مثل هذه المناسبة الخالدة، حتي إن تيسر فليس بوسع فرد مهما كانت رحابة ملكاته في الإحاطة أن يحيط بكل جوانب الطيب صالح.

في البدء أقول، حقاً وصدقاً، وما تعايشت وإنساناً طوال حياتي يصدق عليه وصف "اسم علي مسمي" بكل ما يعني هذا الوصف من دلالات مثل الطيب صالح، فهو طيب إلي منتهي حدود الطيبة، وصالح تتجسد فيه سمات صلاح الشيوخ المتصوفين من عباد الله الصالحين.

ما أطيب الأنس مع الطيب! فالمرء في مجلسه لا يحس أبدا بغربة المكان، ولا بوقع ساعات الزمان· وتواضعه الذي لا نظير له يعطر المكان بلغة غير متكلفة ومحبة موصولة بأنبل العواطف وأصدقها، ويشجع كل الجالسين علي المشاركة في الحديث وإن لمس أن أحدهم لم يشارك تخير لحظة مناسبة ولاطفه

بكلمات ودودة حتي ينخرط في منظومة المشاركين· لا يبدأ الحديث في مجالس الأنس تاركاً للسمار الآخرين أن يتخيروا ما يرومون الخوض فيه، وغالباً ما تأتي مشاركته بعد أن يسأل أو عندما يكون كل واحد قد أدلي بدلوه في معرض ما هو مطروح في المجلس· لا يرفع صوته العميق الساحر الجميل عندما تعلو الأصوات بالضجيج، ولا ينفعل تعصباً لرأي، وإنما يوسع من دائرة البدائل فيما هو مطروح لتكون افتراضات الترجيح أكثر رحابة، وساعتها يجف الضجيج ويعتدل الحديث.

أما إذا انحرف الحديث، ونادراً ما ينحرف إلي ذكر سيئات تنسب إلي بعض الناس، فهو غالباً ما يصوم عن الحديث أو يستغفر الله، ويدرأ بالناس عن الاغتياب بكلمات لطيفة ومهذبة، أو بالانتقال، بصورة تلقائية، بالحديث إلي ما يصرف المتحدثين إلي موضوع آخر· وحيثما دارت أحاديث مجلس الطيب كان هو المنبع الذي لا ينضب معينه، فالأدب هو سيده والتاريخ هو بحره والشعر هوحافظه وراويه ومحلله قديماً وحديثاً، وحتي "الدوبيت" له في قلب ولسان الطيب موقع مؤثر وجميل والمدائح النبوية من البرعي إلي أولاد حاج الماحي وغيرهم بكل طقوسها وروحانياتها لها مسالك عميقة الغور في تصوفه وصلاحه.

إن مثل هذا الوصف البرقي لا يوفي الطيب حقه في أنهاره المتدفقة علماً ومعرفة، ولكن العزاء أننا منذ البداية تواضعنا علي أن هذه الصورة القلمية هي مجرد انطباعات عجلي في مقام كان يستوجب الإطالة في مجلس الأنس. فهو لا يتصدر المجالس، ولا يتصدر المآدب سواءكانت علي شرفه أو هو من أبرز الضيوف يجلس دائماً في الأطراف فذلك يريحه حقاً، ويحقق له في كثير من الأحايين مآرب أخري لا يعلمها إلا من كان لصيقاً به ومنها أن يهب ويخب مسرعاً في المطاعم والفنادق كي يدفع الحساب في كرم مطبوع علي رغم كونه

أحد المدعوين أو أن الحفل علي شرفه هو، ثم يتدفق لطفاً في تقديم الاعتذارات لأنه لم تتوافر له من قبل فرصة لتكريم فلان أو أن علاناً كرمه فاض في مرات سابقة. وإذا مشي مع الأصحاب في الطريق لا يتقدم الصفوف ولا يسرع الخطي، وعند ركوب سيارات الأجرة يكون آخر الراكبين حتي يتمكن من أن يكون أول الخارجين لدفع الأجرة.. إنه بحق إنسان عجيب يجعلك طوال الوقت وأنت إلي جانبه تتأمل في سلوكه وتصرفاته كأنه يلقي عليك من غير استشعار محاضرات في أدب النفس وأدب الدرس أما إذا قدر لك أن تنتقل معه عبر قطارات الأنفاق فأبشر بطول وقوف فإنه لا يجلس قبلك علي الأرائك، وإن وجد بعض المسافرين وقوفاً فهو يتردد في الجلوس ويفضل الاستمرار في الوقوف مما يضطرك للنهوض مؤازراً، لحظتها يضطر للجلوس مكرها ولكن لطفاً بك.

أصدقك القول إنني في كل فرص التلاقي التي أتيحت لنا علي امتداد هذا العقد لم أسمع عزيزنا الطيب يشكو من أحد أو ظرف أو حظ! باختصار ما سمعته يشكو إلا من مرض .. إنه يتعايش مع النفس، والآخرين في تراض مشبع بالقناعة والتعامل النبيل، وتتجلي إنسانيته في قمة تسامحه عندما ينقل إليه أحد رأياً سلبياً كتب عنه أو قيل فيه، فهو لا ينفعل ولا يغضب إنما يحاول أن يجد الأعذار لمن فعل كأنه يعتذر عما سبب له من تكدير إذا جاز التعبير.

والطيب لا يتخلف عن مناسبات المجاملات إذا علم بها خصوصاً زيارة المرضي أو العزاء وكذلك مناسبات الأفراح. وأذكر أنني عندما أخضعت لجراحة كبيرة قبل عامين اعتذر عن السفر للمشاركة في مؤتمر وادي النيل في القاهرة، ثم أمضي شطراً من الليل السابق للجراحة معي في المستشفي، واعتذر لي من أنه لن يكون بوسعه حضور الجراحة في الصباح دون أن يفصح بشيء من دون أن أسأله وهو الذي اعتذر عن السفر لهذا السبب، لأنني أعرف رقته وشافية

عاطفته، لكنه قبل أن يذهب أخرج من جيبه ورقة مكتوبة بخطه الجميل فيها دعاء لله رب العالمين، وأوصاني أن أقرأه وأردده عندما أنقل إلي غرفة العمليات، وقال لي وهو في حالة من التصوف العجيب: أبشر بالسلامة ونجاح الجراحة وغداً ألقاك في أمن وأمان .. انه رجل من عباد الله الصالحين.

وصلاح الطيب عليه شبه إجماع، لأن الله خصه بحب الناس له، فهو شخصية معروفة ومحبوبة علي مستوي العالم· وكل من يذكره يشكره ويثني عليه ويتمني أن يلتقيه، صحيح أن إسهامه المتميز والنادر في عالم الرواية كان له القدح المعلي في هذا الحب والإعجاب والتقدير، لكن هناك سراً آخر يجذب محبة الناس إليه لا أدري علي وجه اليقين معرفة مفاتيح هذا السر، هل هو في وجهه أم في صوته أم سلوكه أم في جماع كل ذلك، فضلاً عن كتاباته·· الله أعلم، كل ما أستطيع أن أقوله هو شيء من الصلاح أودعه الله في ذات الطيب صالح .

ذات مرة كنت في الرباط في مناسبة احتفالية، وفي بهو الفندق تحلق حولي بعض الشباب المغربي يتمنون توقيعي علي مفكراتهم من باب التذكار، ولما أبديت استغرابي أمطروني بآيات الإعجاب بحسباني الطيب صالح، ثم عرفت من الأصدقاء هناك أنه يتمتع بشعبية عظيمة، ولما نقلت له هذه الواقعة رد بعفويته المحببة: إخوتنا المغاربة هؤلاء أفاضل ومن أطيب الناس· أنت الطيب يا أطيب الناس .. ودمت لمحبيك.

الآفاق البعيدة أو "استراحة المحارب"

د. محمد خير عثمان

أذكر فرحة الطيب صالح في أحد لقاءاته الأدبية مع جمهرة من قرائه ومعجبيه في "النادي الثقافي" بمسقط قبل سنوات عدة .. وقع نظره وهو في المنطقة علي الإعلان الضخم الذي كان يحمل عنوان الندوة واسم ضيفها .. ولعلها من المرات النادرة التي يري فيها اسمه –وهو في مرحلة الشهرة الأدبية – يكتب ثلاثياً .. "الطيب محمد صالح".. وواتت الأديب الكبير واحدة من قفشاته الذكية المعهودة في مثل تلك المواقف، فقال مخاطباً الحضور: "عُمان كانت دائماًكريمة معي ولكنها اليوم أكثر كرماً معي مما كانت في أي وقت مضي .. فقد جمعت بيني وبين أبي بعد فراق دام سنوات، وأشار إلي اللوحة.

ضجّ الجمهور بالضحك وأحسست أنا بأني ربما أكون الوحيد الذي أدرك أن في العبارة أكثر مما يبدو في ظاهرها، فقد كنت من الذين عاصروه في فترة الدراسة الثانوية وإن لم أكن من زملائه في المدرسة، وكنا لا نعرفه إلا باسمه الريفي المثلث الكامل "الطيب محمد صالح"، حتي في فترة عمله في هيئة الإذاعة البريطانية عندما اشتهر عالمياً علي المستوي الأدبي، بالاسم الذي ظل يحمله حتي الآن وهو الطيب صالح، ومع ذلك فمازال الطيب محمد صالح يعيش في نفوسنا وبيننا كأنه ما بَرِحَ في كرمكول والدبة.

استرجعت هذه الخاطرة بعد تلك الليلة بأشهر وأنا أتابع السيرة الذاتية التي نشرتها له صحيفة "الحياة" اللندنية. .واستغرقت في خواطري وسجلت يومها ما عنّ لي بها، وأنا أنقل الآن بعض تلك العبارات ببعض التصرفات: "زملاء الصبا والدراسة لا يتحدثون عادة عن الشخص نفسه عندما يخاطبون الطيب صالح بأحد الاسمين من دون الآخر.."، "فالطيب محمد صالح" عندهم هو غير "الطيب صالح" تماماً، الأول وليد البيئة الصغيرة الحميمة والدافئة في جهات الدبة وكرمة وكرمكول، وقري النيل الصغيرة التي يتراقص نخيلها علي الجدول وتتمايل فروعها علي تقاسيم السواقي وألحان النعام آدم وطارات حاج الماحي وود حليب.. "الطيب محمد صالح" هو بطل السيرة الذاتية راويها وموثّق أحداثها ورفيق مسيرتها حيث ما حلّ .. هو تاريخها .. والطيب صالح شخص آخر، فلو كان للروائي والكاتب ملهم كما للشاعر ملهم من بنات الشعر "التي تجود بالنفحات"، أو كان يعينه أحد "توابع" ابن شهيد بدلاً عن "زوابعه"، لكن ملهم الكاتب الطيب صالح هو المواطن "الطيب محمد صالح".

اخترت "الآفاق البعيدة" لسببين:

السبب الأول: أنها ظاهرة ثقافية فريدة ولافتة للنظر، فهي مثلاً تتفرّد عن كل أعمال الكاتب الأخري، "موسم الهجرة إلي الشمال" و"عرس الزين" و"مريود" ومجموعة القصص القصيرة، بخصائص سأشير إليها لاحقاً، ثم إن الآفاق البعيدة فيما يبدو حتي الآن لا تزال حقلاً بكراً من نوعها من العطاء الثقافي في منطقتنا العربية ولم تتناوله بحسب علمي أقلام جادة ومعروفة في مجال النقد الأدبي في المنطقة.

أما السبب الثاني: فيعود إلي رغبة ملحة لازمتني لفترة طويلة لإعادة اكتشاف هذا النبع الثقافي الفريد واستعادة التجربة الرائعة التي سُعدت بها في القراءة الأولي لحلقاته الأسبوعية .. وعندما دُعيت للإسهام في هذا الكتاب عنواناً ووفاء للصديق العزيز الطيب صالح بادرت فعبّرت عن هذه النية للقائمين علي مشروع الكتاب من أصدقاء الطرفين، وزادت سعادتي بتحقيق رغبتي القديمة بإبحار حقيقي في لجة "الآفاق".

ومن بين كل ما قرأت من أدب الطيب فإن "الآفاق البعيدة" تقف"أمة وحدها"٠لا أدّعي أنني الوحيد بين قرائها الذي اكتشف عظمتها أو الذي يستطيع وحده تفسير هذه الحقيقة، ولكني لا أدري إن كان الناس قد أعطوها حقها من الاهتمام الذي هي جديرة به، فـ"الآفاق" ليست أدني أفقاً أو نبلاً في الرسالة، أو تميزاً في التقنية إن لم تكن أعظم في جوانب كثيرة من بعض أعمال الكاتب وأكثرها شيوعاً وشهرة، وتفسيري للظاهرة – وأرجو أن أكون مصيباً – أن الناس في الواقع لم يتجاهلوا "الآفاق" .. علي العكس، فهي من العظمة بحيث تفرض نفسها علي كل حال، إنها تقف في نظري في قمة "أدب المقال" في كل زمان ومكان .. لم يهمل الناس"الآفاق" ولكنها هي التي فاجأتهم بكل شيء: بقضاياها الحية وعفويتها في التناول وأُنسها و"ونسها" معهم، وفي أنها كانت تحاورهم ولا تتحدث إليهم عن بُعد أو من فوق رءوسهم .. فاجأتهم فوقفوا إزاءها في دهشة ثم أخذوا يلهثون وراءها ولا يكادون يدركونها .. تجاوزتهم في سرعتها وفي استمراريتها القياسية وفي وفائها بوعدها الأسبوعي معهم خلال حلقاتها التي بلغ مجموعها الخمسمائة وعشرين حلقة، حسب المجموعة التي بين يدي، كانت بدايتها تاريخياً في الحادي والعشرين من يناير عام ٩٨٩١، ومنذ

ذلك التاريخ كانت "الآفاق" تشرق علي قرائها كل أسبوع كما تشرق الشمس كل يوم.

استراحة المحارب

أحسب أن "الآفاق" كانت ضرورة للطيب صالح عندما قرّر خوض التجربة وبدأ في إنجازها .. فقد كانت أعوام "موسم الهجرة" و"عرس الزين" و"مريود"، وقبلها مجموعة القصص المختلفة، فترة مضنية في حياة هذا الكاتب النشط والملتزم والمجامل إلي أبعد الحدود، فقد أرهقته إنسانيته كما أرهقته عبقريته حيث اعتاد الناس منه الظهور شخصياً في الندوات المباشرة أو من خلال أجهزة الإعلام المختلفة، ولعله كان أول أديب عربي معاصر في شهرته يتيح وقته وفكره وراحته لقرائه بالكامل وفي صورة مباشرة ليتحاور معهم حول إبداعه، يأخذ ويعطي معهم في انفتاح وعفوية وتواضع واحترام تام لإسهاماتهم، حتي صارت تلك اللقاءات المفتوحة تذكرنا باللقاءات الأدبية لشعراء العرب الأقدمين في سوق عكاظ.

وكان التزامه بقضية الأدب هو عين التزامه بقضية الوطن.. "الوطن" في معناه الكامل وفي معناه المجرد للمبدعين المثاليين الأحرار، "الوطن" الذي تتداعي حدوده المادية وتصبح مجرد معنويات تنداح من مساحة إلي مساحة كما تفعل السُّحب في جو السماء، لا تتحرك بإرادة الإنسان بل بإرادة كونية لها منطقها الخاص وغاياتها الخاصة .. وهو يري رسالة الأدب تتجلي في البحث الدائم عن الحلول وليس عن الحل الأخير، لأن قدر الإنسان هو الأزمة الدائمة، ولذلك ينبغي أن تكون رسالة الأدب هي البحث الدائم عن الحلول .. إن الأدب الجاد لا يعرف الإجازة.

وقفات خاصة

الحزن في "الآفاق"

بداية .. لا أدري إن كانت لدينا تعابير عن مفهوم الحزن في اللغة العربية، أما الإنجليز فإنهم يفرقون بين حزن يسمونه SADNESS وبين حزن آخر يمكن أن نطلق عليه "حالات حزن" وهم يسمون هذه MELANCHOLY أو DEJECTION، الأول مباشر وحميد نسبياً، وذلك لإمكان احتوائه بمعرفة أسبابه وهي غالباً ما تكون محددة، ومعروفة.. أما الثانية فمرواغة وغير معروفة الأسباب، ولا يدري الشخص متي وكيف ولماذا تحل به هذه المسألة.

وأكثر من يتعرض لهذا النوع الأخير هم الأكثر إحساساً ومشاركة وجدانية مع الآخرين بين الناس، ومعظم هؤلاء من الفنانين المبدعين، ومن في زمرتهم.

مساء الأربعاء الموافق١٩٨٨/٩/٢١، وفي صالة المغادرين في مطار الخرطوم بدأ الطيب صالح مقالته الأولي في سلسلة "نحو أفق بعيد" لمجلة "المجلة" اللندنية، وقد خصص المقالات الخمس المتتابعة مباشرة بعد الثلاث الأولي ليعبّر بها جميعاً عن أحاسيسه المعقدة نحو الوطن .. إنه يحب الوطن حتي ينقلب حبه له نوعاً من اللعنة! وفي الوقت نفسه يتساءل عن هؤلاء الزعماء النجباء الأذكياء الأغبياء .. ألا يحبون الوطن كما تحبه أنت؟ "يعني نفسه" بلي، إذاً لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه .. ويسعون إلي إعماره وكأنهم مسخّرون لخرابه؟

بدأ منذ المقال الرابع سلسلة من التداعيات الحزينة التي حرّكها في نفسه فيض من الحزن علي فقيد عزيز جاء لتقبل العزاء فيه، يقول:

"إنني أدري لماذا أنا حزين الآن في هذا المكان، لقد وقفت علي قبر إنسان عزيز علي .. أعزّ إنسان عندي، وانقطع أهم خيط يربطني إلي هذه الديار، الحزن يعلو ويخبو، ويمتد عبر زمن طويل، ويأتي علي أشكال عدة، ويهجم عليك من حيث لا تحتسب، لقد صبرت حين كان يتحتم علي أن أبكي، وبكيت حين كان يجمل بي الصبر، لذلك يدهمني الحزن الآن، في هذه الصالة الرثة، في هذا المطار القميء، في هذه المدينة المهملة، في هذا الوطن الحبيب اللعين، وتحول الحزن الخاص إلي حزن عام بسبب هذه اللوحة أمامي في صالة المغادرة، منذ كم ألف عام وضعت هذه اللوحة في هذا المكان؟ومن الذي وضعها؟ وماذا كان يدور في رأسه؟ لوحة بهتت ألوانها واختلطت، كتب عليها باللغة الفرنسية Bon Voyage وباللغة العربية: "رحلة سعيدة".

وبدأ كاتب "الآفاق البعيدة" منذ تلك الساعات التي قضاها في مطار الخرطوم انتظاراً لمغادرة البلاد، ينسج هذه التداعيات والأفكار والهواجس والأحاسيس وكأنه حائك سجاد عبقري من أصفهان، أو كأنه نقشبندي ماهر من سمرقند .. الخيوط تتقاطع بين لحمة النسيج وسداه ألواناً ألواناً، متشابكة في كل الاتجاهات طولاً وعرضاً .. ألواناً من الجزالة والاستعارات والإيماءات والإشارات .. كان وهو داخل صالة المغادرين في المطار يمتد بصره إلي خارج حدودها الجغرافية، ليستعيد النظر إلي طوابير الواقفين أمام محطات الوقود من كرام الرجال وطوابير الخبز من حرائر النساء في عز الهجير، وإلي طوابير أخري تنتظر صابرة أمام السفارات للرحيل خارج حدود الوطن .. وهكذا يفترع الطيب صالح "الآفاق البعيدة" بخمس خرائد من النثر واللانثر .. من الشعر واللاشعر .. خرائد تُدني الوطن من الرثاء وتبعده عنه .. تُدنيه من الحب وتبعده عنه .. تُدنيه من اليأس وتبعده عنه .. وتلتف جميعاً آخر الأمر في دثار من الحزن واللاحزن!

وبهذه القطعة القصيرة المكثفة، والتي تحمل شريطاً من الأحزان المتداعية كل منها يقود إلي الآخر .. بهذه القطعة يكون الكاتب في الحقيقة قد دشّن جو "الآفاق البعيدة" برنة حزن لازمت الكثير من مقالاته، وهو لا يعبأ كثيراً بأن يتعايش النقيضان في نفسه.. الحزن والسعادة .. خصوصاً في علاقته ورؤيته للوطن، فهو كما قلنا يحب الوطن، وطن عظيم في كل شيء يدر العطف ويدعو للرثاء بلا أسباب أو مبررات مفهومة .. وأقسي أنواع الحزن ما اقترن بالرثاء، لاسيما إذا كان موضوع هذا الحزن وهذا الرثاء كائناً عظيماً كبلادنا .. أنهكته أخطاء أبنائه! وهكذا، وكما قال لورد بايرون فإن "أعذب أغانينا هي تلك التي تحكي عن أعمق الأحزان".

المدن والطيب صالح .. علاقة خاصة

إن دخول المدن كالدخول في أعماق الذات!هكذا يقول، والطيب صالح رجل مدينة علي رغم ريفيته، أشرب لبان القرية حتي الثمالة .. ربما يكون اهتمامه ذو الطابع الخاص بالمدينة قد نما بوضوح مؤخراً خلال مرحلته السياحية، لكنه يبدو دائماً وفياً للندن وبعدها لباريس، أما الخرطوم فإن علاقته بها أقرب إلي علاقته بالكتابة .. يذكرها ليلعنها .. حباً وبغضا! وواضح أنه لا يحتاج لأسباب يبرر بها حبه لكل العواصم العربية.

و"الآفاق" مزدحمة بصبواته للقاهرة وبيروت ودمشق ومسقط ونواكشوط والدوحة، والتي استولت معجبه لها، علي وفاء عميق منه .. وهو يحب العواصم العربية باعتبارها "مدناً" كبيرة لوطن واحد، وكذلك أهلها: مجرد "خشوم بيوت" لقبيلة كبري واحدة .. الوحدة العربية عنده ليست مجرد أمل .. إنها واقع معيش .. من هنا كان ضيقه الشديد بتعامل رجال الجمارك مع جواز سفره السوداني

كلما كان في رحلة إلي إحدي هذه العواصم، إنما الذي يعزي في هو أنه سجل لنا نوعاً جديداً من "أدب الجمارك وسيكويولوجية رجال المطارات".. أعتقد أن الوجود العربي كله يتعلق عنده بالمدينة والتمدن الحضري، وكأن الحنين العربي في مجمله حنين للاستقرار إما في حضارة أو في مشارف حضارة أو لإقامة حضارة .. والحق معه، فيبدو أن في القرآن الكريم نفسه استحباباً لسكني المدن .. "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً" وفيه فرحة يوسف عليه السلام بخروجه من السجن ووصول أبويه وإخوته من البدو ليعيشوا معه في مصر المتحضرة، وابن خلدون لا يحبذ عيش المسلم في البادية لأن البادية في رأيه مستثناة من الهجرة، وهذا موضوع يحتاج إلي إعادة نظر في كل حال .. ويشير الطيب صالح إلي أن الشوق العربي إلي الحضارة المدنية مُجابه بكل أنواع التعويق منذ زمن طويل لاسيما في الوقت الحاضر .. ولعل زراعة إسرائيل في قلب الوطن تعتبر أكبر دليل علي تقليص الانتشار الحضاري للعرب حتي في أوطانهم التاريخية، وعلاقة الطيب صالح الفنان بالمدينة دائما علاقة خاصة، وهويتعامل مع المدينة بديناميكية وحرارة غير عادية، أما تجربة دخول مكة المكرمة فلا توازيها عنده تجربة دخول أي مدينة أخري، ذلك "لأنك لا تدخل مدينة بعينها في مكان بعينه، في زمان بعينه، تجيء وكأنك تعود إلي نقطة منطلق الأحداث، وكأنك تدخل مركز الدائرة، وأني لك يا مسكين أن تقوي علي كل ذلك؟" كيف لا، والطيب صالح بجذور الصلاح وبذور الصوفية في أعماقه سحابة يجابه التجربة الإشراقية الجديدة بكل تاريخه الوجداني، ويعبّ من التجربة كما عبّ سلطان العاشقين قبله من كأس الوجد الصوفي!

عاشق التاريخ وصديق المؤرخين

للتاريخ نصيب مهوّل في بلورة الرؤية الإبداعية للطيب صالح، وهو أمر يتعلق في جانب حيوي منه بتصوّره وتعامله مع الزمن عامة في خلقه الروائي .. مادته الروائية مشغولة باكتشاف الذاكرة الجماعية .. لتاريخ الدبة – مثلاً – وتاريخ السودان بصفة عامة، و هو يميل مع ذلك إلي اكتشاف هوية السودان، ليس من طريق التاريخ المجرد من طريق "إخراج التاريخ إبداعياً" .. وهو يتلاعب بالزمن كما يفعل لاعب الشطرنج أمام اللوحة بحجارته التي تؤدي كل منها دوراً محدداً إزاء كل قطعة أخري، وتسهم كل منها في تكامل اللعبة والوصول بها إلي غايتها نصراً أو هزيمة.

وعندما يتناول الطيب صالح الحديث عن المؤرخين الكبار يعبّر بدفء عن حبه وإجلاله لهم .. وأحسب هذا ناشئاً عن اكتشافه لأهمية التاريخ في تطوير موهبته الروائية .. وهو ينوّه بكبار المؤرخين ليس فقط بعبقريته التاريخية ولكن بخروجهم عن النمط في القراءة الرتيبة لحقائق التاريخ، وفي الشجاعة في إبداء الرأي المخالف والوقوف في الدفاع عنه علي رغم كل شيء .. ويترك الطيب صالح عندي إحساساً يميل فيه إلي رأي بالغ الأهمية والقيمة العلمية والإنسانية، ألا وهو أن يري العالم ليس المتخصص في مجاله فحسب بل الذي يعلو علي التفاصيل ويرتفع إلي الإحاطة "والشمول"، أولئك الذين ينطقون في مجالاتهم العلمية بلسان الفلسفة، وفي التاريخ – ربما بأكثر من غيره – رجال وصلوا فيه إلي تخوم الفلسفة ولمسوا أعتاب "المطلق" .. وقد ذكر هو من بينهم من البريطانيين ألن تيلور البريطاني، وفرناند برودل الفرنسي، وأنا أضيف إلي هؤلاء توينبي وعبقري العرب ابن خلدون، ولا ننسي رجالاً من أنفسنا يمثلهم عالمنا

الفحل التجاني الماحي – أول طبيب فيلسوف معاصر – في رأي الكثيرين في علم السلوك الإنساني في هذا العصر.

أصيلة .. منبر الأمل

فاتنة، مضيافة، مغربية الأصل، أفروعربية الانتماء .. واحة من واحات الذين أسماهم الطيب صالح "ملاعبي القوافي والأوتار والأخيلة والألوان".. طبّقت شهرتها الآفاق، خصوصاً خلال العقد الأخير، وهي اليوم أمل المثقفين العرب والأفروعرب، والعرب الأمريكان، يشدون إليها الرحال حينما كانوا، ويضربون إليها أكباد الإبل لممارسة التواصل في حوارات حضارية حتمها عليهم شوق الانتماء إلي جذور ومنابت ومآثر ولسان وعقيدة مشتركة.. والجفوة العربية الأفريقية التي امتدت منذ استقلال أفريقيا بدأت منذ وقت تذوب تحت وهج ودفء جديدين، متنقلة من الصدود السلبي إلي الاهتمام الإيجابي.. وكانت "أصيلة" أول بوتقة للتفاعل الناشئ والترحيب الصادق بالإرادة الجديدة لشباب مثقفي الأقطار الأفروعربية الذين أقنعتهم تجربة العقود الأربعة الماضية بأن هويات مجتمعاتهم الجديدة – شأنها شأن غيرها – لابد أن تنبثق من أسس وثوابت مشتركة وبعيدة في ماضي وتجارب وآلام هذه المجتمعات·· وأكدت "أصيلة" دورها هنا كملتقي للفكر والحوار وطرح الأسئلة المستحيلة وتلقي الأجوبة المتصادمة، حتي جاء وقت أمكن فيه امتصاص الضيق والامتعاض والشكوك بين المتحاورين في منطلقاتهم المتباينة والمتقاطعة، ونجحت "أصيلة" في ابتداع لغة تخاطب مشتركة تتجاوز كل نظريات اللسانيات من عهد سيبويه والخليل بن أحمد "عندنا" إلي عهد بياجيه وشومسكي "عندهم".. إنها لغة "أصيلة" أصواتاً وخطوطاً وألواناً ورؤي وأخيلة، وتراثاً هجيناً في كل جاذبية الهجنة الآسرة

ورواؤها..كانت قناعة الطيب صالح بتجربة "أصيلة" الثقافية عميقة وأمله في اختراقها للواقع الثقافي والاجتماعي القائم كبيراً، فكان واحداً من آبائها المؤسسين وحداتها الرواد¨جاءها بإيمان راسخ بعروبة أفريقيا، وبعزم قويم لمقاومة تيارات التشكيك في انتماء العرب لأفريقيا وفي "أجنبية" اللغة العربية في أفريقيا، والرد علي الهجمة الاستعمارية التي زاد سُعارها بعد حركات تقرير المصير، التي وجدت سندها وسدنتها في الشباب الأفريقي الذي عبَّ من الثقافة الغربية بخلطتها الخطيرة من الأهداف التبشيرية والرواسب الصليبية، وأعاد تمثيلها الخطير في فكره وعواطفه وارتيابه .. ومنذ البداية قاد الطيب صالح ما يمكن أن يسمي "مدرسة" أو اتجاهاً ثقافياً يقوم علي إعادة قراءة التاريخ العربي والأوروبي لأفريقيا، وإعادة تقويمه في إطار ظروفه المعاصرة، ومنسوباً إلي مصادره كتاباً ورواة من المؤرخين الأوروبين أصلاً .. وتآزرت هذه الرؤية الجديدة بفلسفة للطرح الجديد القائم علي "المحاورة" وليس"المناظرة" وعلي منح الإيجابيات نصيبها من الاعتراف بالسلبيات متي ما تبين أنها سلبيات حقيقية .. وطوّرت "أصيلة" تدريجياً نظرة جديدة ومتكاملة لخدمة التفاهم الأفروعربي، وذلك بإفساح المجال للإبداع الثقافي العربي الأفريقي ليلعب دوره في الفهم الجديد للمجتمعات الأفريقية بكل عناصرها وجذورها المتباينة، مع التركيز علي أثر "الهجنة" والتعددية التي تتجلي في الإبداع الذي تطغي فيه أولوية "الكل" علي"الجزء" .. واكتسب مفهوم الهجنة نفسه قبولاً وإيحاءات صحية، ولعل الطيب صالح كان أول من لخّص"الهجنة" بأنها "قابلة التاريخ".

في كل ذلك كانت "آفاق" الطيب صالح، وخلال العقد الذي كانت تصدر فيه واحدة من أهم المراجع الثقافية الموثقة لأنشطة "أصيلة" الثقافية والفكرية، وفي مقالات تعتبر بحق ظاهرة نادرة في الأدب العربي المعاصر.

رجل من كرمكول: شغل الناس كما فعل المتنبي.. فما السر؟

محمد صالح خضر

ملأ الدنيا وشغل الناس تماماً كما فعل المتنبي، ولئن قالوا في أبي الطيب: "كان شاعراً مفلقاً شديد المعارضة، راجح العقل عظيم الذكاء"، وقالوا: " أشهر شعراء العرب، فهم أسرار النفس البشرية وصاغ تجاربه حكماً جرت مجري الأمثال"، فقد صدقوا وحسبك أن تقرأ صفحة من ديوانه فتعلم أنه كذلك وأكثر أما العبقري الآخر فقد قالوا فيه الكثير وما زالوا يكتبون خذ شذرات مما جاء في كتاب " الطيب صالح عبقري الزاوية العربية":

- " رأيت فيه القدرة الخارقة علي الرؤية والاستبصار والنفاذ إلي الأمور. وهذه ملكة الفنان فيه... ".

- "كانت لديه مقدرة علي استخراج اللؤلؤ من أعماق الأدب العربي والجواهر من أعماق الآداب الغربية والإنجليزية منها خاصة، وكانت لديه المقدرة علي فهم روحي الحضارتين والمقارنة الذكية بينهما".

- "كم تختلج وراء هذا الظهر الهادئ براكين فنية!! وكم تختفي وراء هذه البساطة عوالم جياشة، وحيوات محتدمة".

- "كان أن ولد ناضجاً بالغ النضج في نظرته وأسلوبه ومعالجته".

- "... فهو متكامل السمات الأدبية، واضح النماذج منذ القصة الأولي نخلة علي الجدول".

أما ما قاله رجاء النقاش فيعرفه كل السودانيين: " لم أصدق عيني وأنا ألتهم سطور هذه الرواية وأنتقل بين شخصياتها النارية العنيفة النابضة بالحياة، وأتابع مواقفها الحارة المتفجرة وبناءها الفني الأصيل الجديد علي الرواية العربية لم أتصور أنني أقرأ رواية كتبها فنان عربي شاب، ولم أتصور أن هذه الرواية الناضجة الفذة فكراً وفناً هي عمله الأول" وقد أورد د. حسن أبشر الطيب في جريدة " الخرطوم" بتاريخ ٢٣ / ٩ / ١٩٩٩ سطوراً رائعة كتبها د. جلال العشري عن الطيب صالح في المصدر نفسه لا يقلل من شأنها ما كتبه د. الشوش عن العشري في (أدب وأدباء) هذا إضافة لما كتبه د.حسن أبشر نفسه عبر ثلاث حلقات في جريدة " الخرطوم" لخصت كل ما سبق (وتمت الناقصة) بأسلوب فريد دون اللجوء إلي مصطلحات السوسيولوجيا والبنيوية والتفكيكية التي يعجز القارئ العادي من أمثالنا عن استيعابنا.

وهذا هو دأب الدكتور، فقد أصدر كتاباً قبل أكثر من عشرين عاماً، كشفت فيه جوانب الإبداع في شعر محمد المهدي المجذوب ومحمد المكي إبراهيم وقد لاحظت أن الدكتور أورد في حلقاته بجريدة " الخرطوم" حديث الطيب صالح عن زملائه في الـ " بي بي سي" ضمن سلسلة "في تذكر أكرم صالح"، لكنه لم ينشر ذلك الجزء الرائع الخاص بكامل حكيم، فقد كان الحديث عن كامل حكيم بيوغرافية كاملة اختزلها الطيب صالح في نصف صفحة.

بيد أنها كافية وراقية وفي غاية الطرافة، بما تحويه من وصف لذلك الطائر القلق الذي " ألقي بعهدته لناس السكة الحديد فجأة، وهج في بلاد الله الواسعة، وانتهي به المطاف عند الناس الـ "بي بي سي" فاكتشفوا، بعد أن وظفوه، أن وظيفتهم لا تصلح له ولا يصلح هو لها، فأوكلوا إليه مهمة واحدة .. هي أن يردد بين البرامج عبارة واحدة فيقول: هنا لندن".

تقرأ كل ما كتبوه عن الطيب صالح ثم تقرأ "بندر شاه" فتعلم أن الكاتب أعظم مما قالوا وأروع. تقرأ صفحة ٢٢ من "مريود" (الطبعة الثانية لدار العودة بيروت) فتسري فيك رعشة ويجتاحك شعور فجائي بالخوف والدهشة والخشوع، وتحلق في عوالم صوفية تتداخل فيها الأزمنة والأمكنة ويمتزج الوعي فيها بالحلم والغفلة بالانتباه، فتدرك أن هذا الكاتب أضخم مما قالوا (وصف الطيب صالح محمد المهدي المجذوب مرة فقال:" وإنه شاعر ضخم").

ما السر إذاً؟ .. ولماذا شغل الناس فألفوا عنه الكتب وعقدوا الندوات، وأصبح مادة شبه يومية في الصحف والمجلات ؟ ولماذا انتقل الأمر أحياناً من المنابر العامة إلي الجلسات الخاصة؟ ومن (حالة كونه أدباً يصنعه خيال الكاتب) إلي (حالة كونه حدثاً وقع) ؟ قال البعض إن بعض تفاصيل حياة مصطفي سعيد تحمل ملامح حياة "فلان الفلاني" الذي شهد الطيب صالح جزءاً من حياته في لندن. وذهب بعضهم إلي أن "مصطفي سعيد" هو الطيب صالح نفسه، معللين ذلك بأن الراوي في موسم الهجرة هو الروائي نفسه. وأن المرأة في تلك الغرفة كشفت أن الراوي هو مصطفي سعيد: " أعتقد أنني أكون كاتباً رديئاً لو كان هذا صحيحاًومن الواضح أنني لست هذا الإنسان". وفي مكان آخر: " لا أظن أنني أكتب لأقص للناس قصة حياتي، وهي علي أية حال عادية لا تصلح قصة" لماذا استأثر الطيب صالح بكل هذا الزخم والاحتفاء؟ هل هي اللذة الشعرية الموحية (كما يقول د. حسن أبشر)؟ أم الأسلوب الأخاذ؟ أم سلاسة التعبير وحلاوة السبك ورشاقة العرض؟ أم الارتداد بالموهبة إلي ذلك الجزء من المنحني وأخذ الشخوص من هناك؟ أم (كما يقول البعض) السرد الهادئ العميق في " عرس الزين" والسرد المتوتر في "موسم الهجرة"، والجمل الخبرية القصيرة في "مريود"؟ أم طرح أسئلة جوهرية (العلاقة القائمة علي الصراع

بين الشرق والغرب) بوجهة نظر اختلفت عن توفيق الحكيم وسهيل إدريس ويحيي حقي؟ أم إثارته مسائل كبري مثل الثمن الذي يستحق أن ندفعه في سبيل التغيير الذي نريده أن يتحقق؟ أم تناول قضايا فلسفية بأسلوب الخير والشر ومغزي الحياة ولغز الموت ودرة الحياة في الكون وتعاقب الأجيال والبداية والنهاية، وما قد يغري أنصار الحلولية والتناسخ والتسيير بالتأويل في بندر شاه ومريود؟

-لماذا نال الطيب صالح هذا القسط من الجدل والتحليل والتأويل؟

لابد أن ما جاء في صدر هذا المقال جزء من الإجابة، أما الجزء الأكبر فنجده فيما قاله الكثيرون في الندوات والمحاضرات وأجهزة الإعلام وفي الكتب ورسائل الدكتوراه والمجلات والصحف· وربما أن شيئاً فوق ذلك كله يمكن أن يبرر هذا التفرد وهو "نفس الكاتب" قياساً بـ "نفس الشاعر" الذي تحدث عنه البروفيسور عبد الله الطيب فقال: "إن العرب عرفت "نفس الشعر" الذي هو الجسم النغمي النوري الروحي الذي يتميز به كل شاعر علي حدة، علي اتحاد الوزن الشعري المستخدم"، انتهي قول البروفيسور· ألا يمكن القول إن " نفس الكاتب" يميز الطيب صالح عن غيره؟ ثم إن اللغة التي يوظفها الكاتب تحمل إيقاعاً خفياً: إذ يحس القارئ بالسجع والموسيقي والتقنية وينظر فلا يجد شعراً مكتوباً، كما أن اللغة نفسها عالية الكثافة يصل الإيجاز البليغ فيها حد الإعجاز· فقد تقرأ سطوراً قليلة للطيب صالح فتشبع فيك شيئاً فكثافة لغته، مقارنة بلغة غيره، أشبه بكثافة مادة الثقوب السوداء، آلاف أضعاف كثافة المادة لدينا، أو بلغة عصر الكمبيوتر (الفضاء السايبروني) مثل قرص مدمج يزن بضعة جرامات ويحمل في أحشائه عشرات الكتب التي تملأ أرففاً وإذا كانوا يقولون "خير الكلام ما قل ودل؛، فقد برهن الطيب صالح أن خير الكلام ما قل ودل

وسحر وأدهش وأثار. لهذا كنت أتساءل دائماً (كالقارئ): لماذا يطالبونه بالمزيد، وقد أفرغ طاقة هائلة من أشياء سكنت جوانحه منذ الطفولة والصبا في ذلك المنحني، واعتملت في داخله ردحاً من الزمن حتي بلغ السيل الزبي فأخرجها من الوعي واللاوعي، وارتد إلي المكان نفسه واتخذه مسرحاً لشخوص يعرف دواخلهم تماماً؟ وأرجو ألا يبدو الأمر غامضاً ومتناقصاً، والحديث هنا عن الأدب والخيال واللاوعي. إن الطيب صالح فجر هذه الطاقة وعبر عن هذه الأشياء بصدق وشفافية، وآثر بعدها ينشئ ألا ينشئ (وعياً) مصنوعاً (ولا وعياً) متكلفاً.

وبعيد عن كتبه انظر ما كتبه في "نحو أفق بعيد" وما كتبه في " تذكر أكرم صالح"، وتأمل وصفه العجيب لزملائه في الـ "بي بي سي"، ثم انظر بتمعن لعبارة كتبها عن علي أبو سن، قال: كان يقرأ نشرات الأخبار كالمتفضل علي الأنجليز ألم تصف هذه العبارة سيكويولوجية الرجل وصفاً دقيقاً وتجسد أنفة وشموخ وكبرياء هذا السوداني القادم من العالم الثالث، الذي يمارس هذا الفعل في قلب لندن وفي أكبر مرافق الإنجليز؟ ألا تحمل هذه العبارة قدراً كبيراً من الطرافة إذا تأملها بعمق؟ وقد تتخذ الصورة بعداً آخر إذا علمنا أن الرواية السودانية المتداولة تقول إن جدّ المتكلم عنه كان في بعض المواقف- وإمعاناً في (الرجالة) - ينظر إلي الرجل بعين واحدة (مستخسراً) أن ينظر إليه بعينيه الاثنتين. معلناً بوضوح أن لا أحد (يملأ عينه).

إذا كان الإبداع بهذا الحجم والرجل بهذه القامة، والطيب صالح يجري ولا يجري معه ويجمع بين الاثنين فيغرف من بحر وينحت من صخر، فلا بد للسؤال المشروع أن يطرح نفسه: لماذا تأخرت جائزة نوبل حتي الآن ولماذا ضلت الطريق

إلي آخرين؟ وإذا كانوا أحياناً يمنحونها بسبب كتاب، ألا تكفيهم صفحات من مريود؟ ربما تأتي التكنولوجيا في المستقبل بمقياس (كمي) للأعمال الأدبية وتخترع جهازاً إلكترونياً حساساً توصل أقطابه برأس القارئ لرصد الحفز العصبي ومعدل الاستغراق، حينها سوف تكون كمية الإثارة (النظيفة) الناتجة عن موسم الهجرة تعادل ٨,٥ بمقياس ريختر الأدبي، فيقتنع أهل نوبل بذلك. ولو كان الأمر بيدي لأعلنت علي الملأ:

يمنح الطيب صالح جائزة نوبل بسبب سطر واحد كتبه عن أكرم صالح، فقال: "وأكرم صالح صوته مفعم باحتمالات الأفراح والأحزان. كأن أحداً يريد أن يبكي ويضحك في الوقت نفسه". وسوف يؤيدني في ذلك كل من سمع صوت أكرم صالح رحمه الله.

وبعد، فهذه (ختتي) المتواضعة في (حنة) الطيب صالح، وقد خفت أن يفوتني شرف المشاركة في العرس وأنا أشاهد من أهل ذلك المنحني العجيب، حيث يقف المرء في خط التماس بين الحياة والموت. ينظر وراءه فيري الموت والفناء في صحراء قاحلة، وينظر أمامه فيري الحياة والبقاء في نيل كوثر ربما أودع هذا التباين الحاد سرداً في النفوس وأشعل فتيلاً من الإبداع، وربما انعكس علي العواطف والأمزجة فأصبحت تتأرجح بين قمة حادة وسهل منبسط دون أن تمر بالمنحدر.

خفت أن يفوتني شرف المشاركة وأنا شاهد من أهل ذلك المنحني، وأعرف من أين اغترف الطيب صالح جزءاً من إبداعه "لا أعرف من أين اغترف الجزء الآخر". أنا من ذلك المنعرج وأهلي عندهم أعلام مثل دومة ود حامد،

عندنا حرازة ود قدورة "عسكر تحتها إسماعيل باشا بعد أن أبادات بنادقه فرسان الشايقية في أم بقر بكورتي".

يري البعض (مرأي العين وفي وضح النهار) أشياء غريبة تحت هذه الحرازة، عندنا (شديرة الوي) وكانت مثل (ذات أنواط) عند أهل مكة في الجاهلية، أصوات الليل عندنا كما في "ود حامد" فوج من صراخات تلتقي وتفترق في مكان ما في جهة ما، لا ندري هل هي أصوات مأتم أم عرس، لا ندري هل تجيء من قبلي أم من بحري، عندنا خيال خصب يصنع حكايات رائعة، عندنا الهمبوتية والبعاتي وود أم بعلو والسحار والنسناس والغول وحواء أم السخل وبت الحور. عندنا حكاية (علي ود كلب الحلة) ذلك الرواسي الذي يجيء بمركبه من أسفل النهر فتناديه السحارة باسمه راجية منه ألا يجر المركب فوق أولادها النائمين في القاع، عندنا بت الحور تخرج من البحر ليلاً وتبحث عن الرجال، سمعوها مرة تنادي أحد رجال البلد "ود الكودة .. كودة كدودة". عندنا النسناس (نوع مسالم من الجن) يعيش بيننا ويعرف أحوالنا ويمشي وراء سعيد حوار شيخنا ود توم عندما يعبر (البار) عند (قيف الهدمة) ويتونس معاه عن أحوال ناس البلد .. عندنا همهمات صوفية .. تنقلك إلي معارج عجيبة ومدارج غريبة عندنا عشق صوفي للمدينة وساكن المدينة (ص). وعندما ينشد المادح: طالبات المدينة مناي .. قوافل درجن بي جاي، يصل بعضنا مرحلة من العشق ويتمدد (من طوله) علي الأرض فاقداً الوعي، يحدثونك عندنا فيقولون إنهم (يقيدون) النحاس أيام الفيضان حتي لا يهيج مع قيام البحر، عندنا يرتاد الخيال مناطق أخري فيحدثونك عن ليلة القدر قائلين: " سيكون الضوء يومها ساطعاً باهراً في السماء (شالعاً) يخطف الأبصار.

وستكون الأشياء مقلوبة فتري جذور النخلة في الهواء وجريدها في الأرض مكان الجذور عندنا يحدثونك أن نبي الله الخضر يظهر في هيئة غريبة ويدهمك وأنت في عجلة من أمرك ويسألك فإذا أجبته انفتح لك باب الرزق واسعاً. وإن رددته عدت بالخيبة والخسران.

وأخيراً أقول لمبدعنا الطيب صالح: أنت أكبر من (البتاعة) التي يوزعونها سنوياً ويسمونها جائزة نوبل وإلي أن تجيئك خاضعة تجرجر أذيالها، خذ جائزة نوبلك من أعراب شعث غبر عقلوا جمالهم وجلسوا القرفصاء في طرف السوق، خذها من نساء اجتمعن في (دق ريحة) وزغردن (أيووي يووووي) خذها من (غبش مكندكين) اجتمعوا بحميرهم فوق مشرع خذها من (زولا سرب سربه وخت الجبال غربه) ومن زول رحل ببعيره في بطن وادي بين الجبال وطفق يدوبي: " دومتك دفقت وسط الرسن مقرونة وإدك خلت الحصحاص دقيق طاحونة" خذها من رجال في سودري يحجبون ضوء الشمس وخذها من عموم أهل السودان، في السافل والصعيد، في قبلي وبحري، في الضهاري والصحاري وفي كل واد وواحة. وإن كانت زينب بنت صبير قد صنعت فناً عظيماً في تلك الليلة قبل أكثر من خمسين عاماً وأدخلت بلدكم في نسيج عالمها الأسطوري (فإذا بلدكم كما تعرفونه وزيادة وإذا أنتم جميعاً كما تعرفون أنفسكم وأكثر)، فقد أدخلت السودان كله في نسيج عالمك الأسطوري (فطال الناس أشباراً).

من غيرك أتاح للناس في العالم أن يقرأونا بكل اللغات؟ من غيرك أتاح للناس في السويد والنرويج أن يعرفوا كومة ومروي وكريمة؟ من غيرك أتاح للناس في اسكوتلندا أن يسمعوا بقشابي:

The girl who made
Gushabi her home
All night long for her

I yearn

" الزول السكونو قشابي ... طول الليل عليه بشاي"

وليعذرني الطيب صالح، فنبرة الإعجاب الشديدة من أهله في السودان تزعجه إلي حد ما، حيث ظل يردد، ودون إحساس بتواضع مزيف، أنه أبعد ما يكون عن كاتب عالمي كما أنه لا يقبل المقارنة بينه وبين شارلز ديكنز. أما نحن فنجد بغيتنا في " عرس الزين" أكثر مما نجدها في GREAT EXPECTATIONS، ونجدها في "موسم الهجرة"، أكثر مما نجدها في DAVID COPPERFIELD وليعذرني القارئ إذا ظن أن غبار الشوفينية قد طغي علي هذا المقال فكاد أن يفسده وليذكر القارئ أن رجاء النقاش، قال ما قال وهو لم ير النمتة وأنا رأيتها ولم يشم رائحة النخل حين يتهيأ للقاح وأنا شممتها، ولم يسمع زغروده "أيوووي" وأنا سمعتها· وربما أكون قد رأيتهم وسمعت أصواتهم في مكان ما في زمن ما، مثل محيميد فتنادوا بي من ناحية النهر والصحراء من الشرق والغرب.

رأيتهم يخرجون من الماء .. ويتسللون بين فروع الشجر، ويقفزون فوق هامات النخل ورءس البيوت، وينّطون كأنهم يرقصون فوق القباب، ويذوبون في شعاع الشمس.

إضاءات

أولا: مؤلفات الطيب صالح

- موسم الهجرة إلي الشمال، رواية ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٦٦.
- دوة ود حامد ، قصص، بيروت، دار العودة ، ١٩٦٩.
- عرس الزين ، رواية ، بيروت، الدار الشرقية للطباعة والنشر ، ب. ت .
- بندر شاه: ضو البيت ، بيروت، دار العودة، ١٩٧١.
- نخلة علي الجدول
- الرجل القبرص

ثانيا: كتب تناولت أدبه

– أحمد سعيد محمدية (إعداد وتقديم) : الطيب صالح عبقري الرواية العربية دار العودة، بيروت، ١٩٧٦.

– فاطمة موسي: الرواية العربية المعاصرة، فصل عن الطيب الصالح، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٧١.

– رجاء النقاش: أدباء معاصرون فصل بعنوان "الطيب صالح عبقرية روائية جديدة"، القاهرة، ١٩٦٨ .

– محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة أصولها واتجاهاتها وأعلامها فصل عن "الطيب صالح"، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ١٩٧٣.

– محمد إبراهيم الشونس: أدباء وأدباء "الرمز في عرس الزين: أبعاد المأساة في موسم الهجرة إلي الشمال"٠ وحدة الفكر في روايات الطيب صالح: النقد وموسم الهجرة إلي الشمال، دار التأليف والترجمة والنشر، الخرطوم، ١٩٧٣.

– عبد القدوس الخاتم: مقالات نقدية فصل "الطيب صالح بين الرمز والاقتباس" مصلحة الثقافة، الخرطوم، ١٩٧٧.

– جورج طرابيش: شرق وغرب رجولة وأنوثة موسم الهجرة إلي الشمال د. ن ، بيروت ١٩٧٩.

– خالد موسي دفع الله: اللامنتهي في أدب الطيب صالح : مقدمات رؤية لمشروع عصر الانتقال دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ١٩٩٣.

– فوزية الصفار: دراسة في رواية موسم الهجرة إلي الشمال "أزمة الأجيال العربية المعاصرة مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله تونس" ١٩٨٠ "بحث لنيل درجة الأستاذية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية"

– طلحة جبريل: علي الدرب .. مع الطيب صالح : ملامح من سيرة ذاتية توب للاستثمار والخدمات، الرباط، ١٩٩٧.

– أحمد شمس الدين الحجاجي: صانع الأسطورة الطيب صالح الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.

– حسن أبشر الطيب: الطيب صالح.. دراسات نقدية دار رياض الريس، بيروت، ٢٠٠١.

– عبد الرحمن خانجي: قراءة جديدة في روايات الطيب صالح دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، أم درمان، ١٩٨٣.

– يوسف نور عوض: الطيب صالح من منظور النقد البنيوي، مكتبة العلم، جدة، ١٩٨٣ .

ثالثا: رسائل جامعية:

– رجاء نعمة موسم الهجرة إلي الشمال دراسة في التحليل النفسي للأدب

أطروحة جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٨٤. "

- محمد المهدي بشري محمد سعيد : الفلكلور في إبداع الطيب صالح بشري

- الخرطوم : جامعة الخرطوم ،١٩٩٨، رسالة دكتوراة".

رابعا: بعض ما كتب عنه بالإنجليزية:

-Ahmed nasr popular islam, in: al tayeb salih jal ,N. 11(1980) pp. 88-104

-Ali abdella abbas. Noteson tayeb salih :season of migration to the north & wedding of zein . sudan notes & records .vol. 1 (1974) -pp. 46-60

-Mohammed shaheen tayed salih &wad hamid :an alteration of vision . a j h, vol 5 (1985) p. 267- 287.

-Mustafa saaid in season of migration to the north a j h , vol 4 (1984) 282-292.

-Mona tagiedine . tayed salihs season of migration to the north :an inter pretation arab studies quarterly , 2 winter 1980.

-Osman hassan ahmed eltayeb salih fi alsihafa al ajnabiyya (el tayeb salih in the foreing press al sihafa (september 1969.(

-Samira abdalla images of the four elements in :el tayeb salih.

-A paper presented in completion of honour dagree university of khartoum fa culty of arts 1985.

-Salah hassan tayeb salih : patterns & ambiguitioes . sudan now december

محتويات الكتاب